

رحلة صداقة

من المهد إلى اللحد

للأسير خليل محمود يوسف أبو عرام



رحلة صداقة

من المهد إلى اللحد

المؤلف الأسير:

خليل محمود يوسف أبو عرام (خليل الأقرع)

الناشــر:

عمادة البحث العلمي والدراسات العليا

جامعة القدس المفتوحة

الماصيون - رام الله / فلسطين

ص. ب: ١٨٠٤

هاتف: ٢٩٨٤٤٩١ - ٢ - ٩٧٠+

٢٩٥٢٥٠٨ - ٢ - ٩٧٠+

فاكس: ٢٩٨٤٤٩٢ - ٢ - ٩٧٠+

بريد الكتروني: ***sprgs@qou.edu***

تصميم وإخراج فني:

عمادة البحث العلمي والدراسات العليا

جامعة القدس المفتوحة



جامعة القدس المفتوحة
عمادة البحث العلمي والدراسات العليا

رحلة صداقة

من المهد إلى اللحد

للأسير:
خليل يوسف محمود أبو عرام

كلمة شكر وتقدير...

أتوجه بالحمد والشكر لله سبحانه وتعالى على ما أعانني من تمكين، وألهمني به من قدرة وأناة لكتابة وتأريخ سيرة كوكبة سطعت وسطرت بفعلها صفحات مجد ناصعة جلية، رهن فرسانها أرواحهم مهورا لحرية وطنهم وشعبهم، وشكلوا بأجسادهم جسور عبور نحو الحرية والاستقلال، وإقامة الدولة العتيدة وعاصمتها القدس الشريف، وأفنوا ربيع أعمارهم خلف قضبان الأسر، وفي مسيرة نضال وطني مارثوني.

والشكر كذلك موصول للذين هم الملهم والمرشد والعقل والروح والدينمو الذي حرك هذا الجهد؛ ليكون فعلا راسخا وفكرا مكتوبا بين أيدي القراء، فإليهم جميعا جزيل الشكر وعظيم التقدير والامتنان، وأخص بالذكر جامعة القدس المفتوحة؛ ممثلة برئيسها **الأستاذ الدكتور/ يونس عمرو**.

وإلى جانب هؤلاء كل الذين شاركوا بالإشراف والتدقيق والنشر والذين يشكلون جنوداً مجهولين... فلهم مني بالغ التقدير والوفاء وجزاهم الله عني خير جزاء وأخص بالذكر عميد البحث العلمي والدراسات العليا في جامعة القدس المفتوحة **الأستاذ الدكتور/ حسن السلوادي**.

والشكر موصول لكل الذين تلقوا هذا الكتاب فقاموا بتصميمه وإخراجه الفني الذي يليق به؛ وتابعوه حتى النهاية، فأخص بالشكر مصمم الجرافيك والمونتاج في جامعة القدس المفتوحة الأستاذ/ **كميل غالب زيد**.

ثم الشكر والتقدير لكل أولئك الذين وقفوا إلى جانبي بإسداء النصح والمساندة المعنوية والفعلية لإخراج هذا الجهد إلى حيز النور، سواء أولئك الأخوة القابعين حيث أنا في مدافن الأحياء، ومثلوا بمؤازرتهم لي درعاً حصيناً للحفاظ على هذا العمل من الفقدان والضياع والمصادرة.

المؤلف

الإهداء...

الحمد لله حتى يرضى والصلاة والسلام على المبعوث رحمه للعالمين.. إلى روحَيْ والديَ طيب الله ثراهما وغفر لهما وأسكنهما فسيح جناته... إلى أسرتي وأبنائي الصابرين... إلى أهل بلديِ الطيبين عامة الذين ما ضنّوا على أبنائهم وفلذات أكبادهم، حيث أحاطوهم بالعناية والتقدير والخشية عليهم من ضيم الأعداء وسطوه الجلاد فغمروهم بالدفء والكرم وحسن الاستقبال... إلى تلك الأسر التي آوت وآزرت وتكبدت عناء اقتحامات جيش الاحتلال وبطش جنده، وظلت ساهرةً على راحة المناضلين أيام مطاردتهم وملاحقتهم من قوات الاحتلال ومخابراته وأعوانه، فقدموا كل عون ومثلوا حصناً وملاذاً آمناً إلى أن حلَّ حكم القدر ليرتقي بعضهم إلى جوار ربه، ويستمر الباقون على ذات الدرب شهداء مع وقف التنفيذ،... إلى أرواح شهداء مدينتنا خاصة وشهداء شعبنا عامة..

ملاحظة:

الأسرى وأسرهم الذين كانوا حضناً حانياً ومصدر ثقة وأمان، ثم تبدل دورهم إلى كد وعناء وصبر وعض على النواجذ بعد أن انتزعنا القدر ليُزج بنا الأعداء في غياهب السجون، ومقابر الأحياء إلى أن يشاء الله ويأذن لنا بالفرج....

إلى كل أولئك الذين عرفونا وقدروا دورنا وتألموا لألمنا وذكرونا بما هو أصل فينا من قليل خير فأحيوه وأبرزوه وكثير شر وسوء فَسَتَروه ووأدوه..... لهم جميعاً نهدي هذا الجهد المتواضع، ضارعين إلى الله سبحانه وتعالى بأن يوفقنا وإياهم لما فيه الخير

لوطننا وأبناء شعبنا، وأن يفرج كربنا ويجمع شملنا على ثرى وطننا الحبيب وتحت بيارق دولتنا العتيدة إنه سميع مجيب الدعاء.

ملاحظة:

يبقى هذا العمل بما يحويه من العثرات مظنة عجز وقصور، وهذا جلّه من زلات الخطأ ومحدودية المعرفة، فمن قدر إنني ملت عليه بإجحاف ومجانبة للحقيقة والصواب، فهذا ليس إلا سهواً وسوء تقدير، وله مني الاعتذار، وأملي فيه الصفح والعفو، ومن قرأ واستمتع فرجائي أن يجزل لي بالدعاء بالخير والتوفيق والفرج، ومن لم يسره هذا أن يسامح ويعفو، ويلتمس لي العذر، والله هو غفار الذنوب ولله الحمد في الأولى والآخرة.

المؤلف



تمهيد

رحلة صداقة

من المهد إلى اللحد

للأسير / خليل محمود يوسف أبو عرام

تمهيد

إنها البداية... بداية الحكاية حكاية من شاءت الأقدار أن تجمع بينهم منذ نعومة أظفارهم، حيث ارتبط مصيرهم من على مقاعد الدراسة الابتدائية، فكانت الصحبة البريئة التي أخذت تنمو وتكبر رويداً رويداً، وتزداد الروابط وسط أجواء الألفة والمحبة والأخوة الصادقة الواعدة.

نعم لقد نمت براعم حبّ الحياة وعشق الحرية مع توالي السنين، أيام صبا وشقاوة، وشغب رقيق، فالشباب والنضج، والحكمة والاتزان مرحلة ميلاد جديد ذات طابع آخر، ومنحنى مغاير له ميزاته وخصائصه وغاياته النبيلة والمرتبط بهدف سام وقضية عادلة.

لقد تدرجت الأيام هبوطاً وصعوداً واعتراها كثير من المصاعب والمعوقات.. ظروف اجتماعية، متطلبات حياة كالسفر من أجل التحصيل العلمي، قرب وبعد تفريق قسري، سجن واعتقال للبعض.. الخ... .

ورغم كل ذلك كان الأصل ثابتاً، وسرعان ما كانت عودة المياه لمجاريها فيلتم الشمل من جديد، وتجتمع الروح والأعضاء في الجسد الواحد بقوة ومتانة، ويعود الحراك والنشاط وحيوية الفعل، فترتسم صورة غاية في الجمال تكافل وتكافؤ.... صحبة ورفقة أصدقاء وأخوة، وذووو قربى، متآزرون متناصرون لا يفرقهم شيء حتى فارق العمر أو طبيعة العمل.

كأنه الناموس القدري الذي حدد معالم المصير المشترك ورسم المسار!؟ وربما الوفاء والعطاء والتضحية والفداء.. وربما النضال الشعبي الوطني والمشاركة في تحقيق الحلم الوطني بالحرية والاستقلال وإقامة الدولة..؟! تقدم الزمن وتطورت المراحل، وازداد الفعل والعمل، متخذاً أشكالا وأنماطاً مما أدى إلى تغيير الأماكن وساحات اللقاء، فها هو مكان اللقاء الجديد، يضفي رونقاً مميزاً، ويجسد حقيقة الروابط الصادقة التي تحولت إلى أخوَّة أسمى وأقوى فعلاً وقولاً.

فالصديق بات ينادي صديقه بالصفة السامية والكلمة الجامعة في مفهومها ودلالاتها، أخي... أخي... نعم أصبحت هذه الصفة تجسيداً مجسداً على مدار الساعة، حيث الاجتماع في حجرة صغيرة بمساحتها، كبيرة بمضمونها ومحتواها، رغم الاجتماع القسري هذه المرة في مقبرة الأحياء.. تلك المقبرة التي أعدت على أيدي دعاة التحضر والديمقراطية والإنسانية! قبور ومقابر تأوي الآلاف من أبناء شعبنا، يعيش الكل مع الأمل بين ثنايا النسيان... والقهر.. والحرمان، يصارعون الموت البطيء مرات ومرات، في تحد وشموخ لعل وعسى أن يدركهم من يجيب؟!

واقع آخر ومفردات أخرى لكنها في السياق ذاته، إِنها معالم الطريق المتجهة نحو قرص الشمس... نحو الحرية والتحرير وبلوغ الهدف، فلا البعد ولا الغربة ولا الأحكام الجائرة والمؤبدات التراكمية، وحتى الجدران والأسلاك الشائكة ليس بمقدورها أن تفل الحصن المنيع الذي يتحصن به كل أولئك الأخوة الذين اقسموا قسم الدم وأعطوا عهد الوفاء لربهم ووطنهم وشعبهم بان يكملوا المشوار سائلين الله التوفيق والمنة بالفرج والانعتاق والحرية حتى ترفع بيارق الدولة المستقلة وعاصمتها القدس الشريف ولله الحمد في الاولى والآخرة.

كلمة لابد منها:

ليست الصداقة كلمة عابره بلا مضمون أو معنى، وليست شعاراً فضفاضاً يتغنى بها المرء أينما ومتى شاء، ولا هي مجرد علاقة عادية تبنى بمجرد لقاء عرضي، قد يأخذ شيئاً من الودية وطيب اللقاء، لسبب من أسباب المجاملة.. والتقدير الناجم عن عادات أو (برستيج)، وآداب اللقاءات المعمول بها بين المجتمعات والمؤسسات والدول أو حتى الأفراد، ولم تكن آلية استمرارها والحفاظ عليها بالأمر السهل المنال على نحو العلاقات الأخوية الوطيدة، أخوة الدم والقرابة.

إذن فالصداقة:

جملة من السلوكيات والأفعال والمشاعر المتكاملة القادرة على خلق الأجواء والمناخ الملائم لتنتج هذه العلاقة في تربة الثقة والاحترام المتبادل، وتحتاج إلى الاعتماد على أدوات البناء المناسب، كالتحمل والتعقل والتماس الأعذار وامتصاص موجات الغضب الطارئة، وتوخي ردات الفعل الانفعالية، والمحافظة على شعرة التواصل والمحبة والمجاملة والمودة. ، ومشاركة الناس في المنشط والمكره ومؤازرتهم، والوقوف إلى جانبهم أوقات الحزم والضرورة، وتقدير الأمور تقديراً إيجابياً، ومحاسبة الذات وانتقادها، ومراجعتها، حرصاً على هذا البناء الاجتماعي الذي يأخذ وقتاً طويلاً من البناء والتوطيد، كيف لا؟ ونحن نحيك وشائجها عروة تلو الأخرى، إلى أن تقوى أواصر التعاضد الأخوي، وكلما قطعنا شوطاً استدعانا ذلك أن نكون أكثر حكمة وصبراً ومحافظة وتماسكاً، وتؤيده في الحكم على هذه العلاقة وتصنيفها.

من هنا جاء القول: (إن صديقك من صدَقك لا من صدَّقك) أي ليس كل من يصدقك هو بالصديق، فالصديق يظهر أوقات الشدة وفي الأوقات الحرجة، فهو لا يضحي بصديقه، كما أنه لا يساوم عليه مهما كلفه ذلك، إذ تجده ناصحاً... أميناً.. وفياً مخلصاً مُؤازراً مناصراً لمن يتخذه صديقاً.

ومن خلال السيرة العطرة: نرى كيف أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه، كان صديقاً للرسول عليه السلام قبل نزول الوحي عليه، وكان مصدقاً له منذ نزول الوحي، وصادقا معه في نصرته وصحبته والدفاع عنه وحفظ سره، ومن هنا سمي بالصّديق، وهذا هو الدليل الواضح على الصداقة الحقيقة، وإلا لاختلفا باختلاف المصالح أو لحسده على ما نزل عليه من رسالة.

(١) رامـون (٢٠١١) :

بـئـر الـسـبـع.

رحلة صداقة

من المهد إلى اللحد

للأسير / خليل محمود يوسف أبو عرام

(١) رامون (٢٠١١) : بئر السبع.

ولا غرابة أن نجد العرب قديما يمجدون الصداقة ويتغنون بها وأكدوا على ذلك في العديد من القصائد والمناظرات الشعرية والأدبية ونبذوا الصداقة المبنية على المصالح الدنيوية، وحطوا من شأنها واعتبروها دنيئة في غايتها فيما اعتبروا الصداقة بمرتبة الأخوة الحقيقية وتغنوا بذلك فقالوا:

صديقــي من يقاسمنــي همومي	ويرمــي بالعــداوة مــن رمــاني
وينصــرني إذا مــا غبــت عنــه	وأرجــو ودّه طــول الزمــان

وقيل أيضا (ربَ أخ لك لم تلده أمك) وهذا يعني أنه لا فرق بين الأخ والصديق الصادق؛ لأنه بحرصه ونصحه يصبح في المقام ذاته.

ولا يمكننا قياس الصداقة بسلوك طارئ وموقف عابر ومحدد؛ لأنَّ الإنسان من طبعه خطاء ويتأثر بالمؤثرات الخارجية التي تجعله يقوم ببعض السلوكيات الخارجة عن إرادته في بعض الأحيان، كما أنه يعتقد أحيانا أن السلوك ما من وجهة نظره صائباً؛ فيما يراه الآخرون عكس ذلك؛ ولذلك فهو بأعماله مجتهد (ولكل مجتهد نصيب) ومقاييس الناس للأشياء تختلف باختلاف زاوية الرؤيا، والغاية التي ينظرون من خلالها، مع أن الأصل في الأمر أن لا فضل لإنسان على الآخر إلا بما في نفسه من الحب والتسامي، وبما فيها من محبة للغير ونفع للمجتمع، فالإنسان لا يستطيع أن يعزل ذاته عن الناس؛ لأن الله سبحانه وتعالى خلقنا وجعلنا شعوباً وقبائل لنتعارف، حيث قال تعالى: {**وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا**}.... الحجرات ١٣، ولذلك جاء التصنيف في الأنساب والروابط، وكل حسب درجة القرابة بدءاً من الأب فالأخ... فالقريب الصديق... فالجار.. فابن البلد..

الخ، وجعل علاقة الأخوَّة والصداقة في الصف ذاته.. (رب أخ لك لم تلده أمك) ، ومن هنا جاءت مؤاخاة الرسول عليه الصلاة والسلام بين الهاجرين والأنصار؛ ليؤكد أهمية هذه العلاقة السامية.

ولله الحمد في الأولى والآخرة.

الفصل الأول:

عجلة التاريخ تدور للوراء

رحلة صداقة

من المهد إلى اللحد

للأسير / خليل محمود يوسف أبو عرام

الفصل الأول:

عجلة التاريخ تدور للوراء

لم يخطر على بالنا يوماً من الأيام بأننا سنتعرض لحياة إنسان كائناً من كان، مهما كانت الخلفية أو المعتقد، وبغض النظر عن الجنسية أو اللون أو الجنس،. كما أننا لم نكن مع موعد لانطلاق انتفاضة ثانية أو معركة جديدة يتواجه فيها الفلسطيني مع قوات الاحتلال ومستوطنيه من ناحية، أو مع عملائه وأعوانه من ناحية ثانية، على الأقل في تلك المرحلة التي تلت توقيع اتفاقية إعلان المبادئ عام ١٩٩٣، وحلول السلطة الوطنية وتوليها إدارة شؤون الشعب الحياتية.

لكن هكذا هي الأحداث تتلاحق وتتسارع تبعاً لممارسات الاحتلال واستفزازاته، التي تأتي عكس كل التوقعات، وبلا سابق إنذار، تماماً كما هو الموت يأتي بغتة، لا بل كالجلطات القلبية أو السكتات الدماغية وقليل من ينجو منها، ولم يكن في وارد أحد منا انه سيأتي يوما وتعود فيه الكرَة من جديد، لا سيما بعد تلك السنين الذهبية، التي ساد فيها الهدوء، وتخللها شيء من الاستقرار وشبه حالات التطبيع، وما واكبها من تطورات سياسية دراماتيكية واتفاقات أمنية كانت قد كبلت السلطة الوطنية وانتزعت منها أحقية المقاومة، وفرضت عليها حفظ الأمن، وفرض القانون لحماية تلك الاتفاقيات، وعدم خرقها من الطرف الفلسطيني، حتى وإن شابها الاجحاف بحق أبناء شعبنا في أوقات كثيرة، وسادتها حالات الكبت الوطني للتنظيمات الفلسطينية، وبخاصة تلك المعارضة لتلك الاتفاقية.

للمرة الأولى نلمس أن عجلة التاريخ تدور للوراء، ربما لأننا نتعامل مع كيان مختلف في طبيعته من حيث الفاشية والعنصرية والغطرسة ونقض

العهود والتحلل من الاتفاقيات والالتفاف عليها واتباع سياسة الباب الدوار والمراوحة في المكان ذاته لهدر الوقت وتغيير الأوضاع على الأرض دونما تقديم شيء، وربما ذلك يأتي من الطبيعة ذاتها لبني يهود الذين جبلوا عليها منذ فجر التاريخ حيث الجدال والتشكيك واختلاق الأعذار والذرائع كل ذلك برد مشاعر الغرابة والدهشة التي اعترتنا، وأكدت لنا بقرب العودة للمربع الأول، وخاصة بعد اللقاءات وجلسات التفاوض المارثونية التي دارت بين قيادة السلطة الوطنية وقادة الكيان الصهيوني في كامب ديفيد وغيرها من الأماكن ناهيك عن إشارات التشاؤم، التي رشحت من تصريحات بعض القادة والمسؤولين التي تداولتها وسائل الإعلام، فأوحت لنا بضرورة الاستعداد للعاصفة القادمة والبقاء على جاهزية لإمكانية مواجهة وشيكة.

لكننا لم نضع في حساباتنا أن أية مواجهة ستندلع ستصل إلى هذا الحد من الدموية والعنف، أو انها ستستمر طوال هذه الاعوام دون تحقيق أهدافها المرجوة، ولم يتنامَ لاعتقادنا أن الأمور ستنحو هذا المنحى الخطير الذي استشهد فيه الآلاف من أبناء شعبنا.

ومنهم خيرة الخيرة من قيادات السلطة الوطنية ورموز التنظيمات، علاوة على عدد الأسرى في السجون الإسرائيلية والذي فاق عددهم عشرة ألاف أسير وأسيرة، بعدها تقلص عددهم في أعقاب اتفاقية أوسلو إلى بضع مئات، كانوا ينتظرون الحرية مع كل إشراقه شمس، ومع إي بارقة أمل قد تلوح في الأفق، ولم يراودنا التفكير أن تعم حالة الفوضى، وتضل البوصلة الوطنية طريقها وينشطر الوطن ويصل بالمناضل إلى حالة الندم لو انه لم يدرك ذلك اليوم، ويرجو عودة الأوضاع إلى حيث كانت عليه من ذي قبل.

ولم يأت في واردنا أننا سنعيش جولات من "الاكشن" العنف الفعلي، ولأننا لسنا (رامبو أو فان دام) ، وكذلك لم نكن عنترة بن شداد، وأيضا لسنا بالجبناء أو

الرويبضات الذين يتنازلون عن حقنا لمحتل غاصب، أو لا نغار لمقدساتنا التي تنتهك صباح مساء، أو لا نثور لأوطاننا المحتلة وأرضنا التي سلبت ودنست.

ومع عدم رغبتنا بأن نكون "فان دام" أو عنترة أو نبوخذ نصر وغيرهم، إلا أن هناك أسماء وألقاب وكنى كثيرة لاحقت كثير منا ولاصقتهم، منها ما كان أصيلا ومنها ما استجد لضرورات العمل ودواعي الحيطة والحذر لحظات المواجهات التي تواجه فيها أبطالنا مع أعدائهم الصهاينة، ومنها ما لحق لهؤلاء الأشاوس للتجميد والمفاخرة، وكل ذلك هو حق لهم، بالرغم من أننا لم نجد من بيننا من يبحث عن حق شخصي أو يحسد صديقا أو أخا على ما كنَي به من كنى وألقاب الفخار والبطولة.

ولم يتصور أحدٌ أن يصل أبطالنا إلى حيث وصلوا لا من حيث الصيت والاحترام والمكانة في نفوس ذويهم ومحبيهم، ولا من حيث مكان الإقامة الذي أصبح هو الآخر مكان الجميع ومأواهم منذ سنين عدة، رغما عنهم مع أنهم لم يفضلوه على غيره من مصير محتوم كانوا قد تمنوه وعملوا لأجله، كيف لا؟ وان غاية المنى لكل مناضل يسير على الدرب ذاته هو نيل إحدى الحسنين، إما الظفر وإما الشهادة، فأما الأسر فكان آخر النهايات المتوقعة، وهكذا اقتضت إرادة الله سبحانه وتعالى.

وعلى هذا النحو تسير الأمور بلا تعقيدات أو كثير حسابات وتتدحرج الأحداث حدثاً تلو الآخر، تماما ككرة الثلج المتدحرجة، فكل حدث يثير خلفه جدلاً وزوبعة إعلامية من الشجب والإدانة والاستنكار، ويتلوه رد فعل من الطرف النقيض ويتخلل ذلك حملات اعتقال وتصعيد وتصفيات، وعلى هذا المنوال يتدرج المسير، وينخرط في المقاومة أشخاص جدد، وكل يوم يمر ليس كسابقه لا من حيث الاستقرار والهدوء، ولا من حيث درجة العدائية.

والكراهية التي تزداد عمقاً وتأزماً بين النقيضين أو حتى حالة التقارب والتوحد بين صفوف الطرف الضحية، خاصة أولئك الأفراد الفاعلين في ساحات النضال، فكل يوم يدخل إلى ساحة المقاومة بطل جديد بغض النظر عن النتيجة أو الدور الذي سيناط به أو إليه، وبدون كثير أسئلة عن المكانة والمال لمصيره ومصير أبنائه وأهله من بعده.

لم يكن أبطال قصتنا شخوصاً عابرين سواء على صعيد الوعي الوطني لقضيتهم وعمق الفهم بتاريخها وأبعادها السياسية، أم من حيث مكانتهم الاجتماعية والنضالية أو حتى الوظيفية والدرجات العلمية، فكل منهم له مكانته الاجتماعية اللائقة سواء بين أسرته وعشيرته أم بين أبناء بلده ومجتمعه، ولكل منهم ماضيه النضالي وإن صغر سن بعضهم، ولم يكتب له شرف النضال سابقا فهو من دون شك من أسرة عانت ويلات الاحتلال ولوعة النكبات وألمها، التي توالت على شعبنا وطالت الجميع بلا استثناء، وها هو دوره، قد حان في هذه المرحلة وأخذ دوره وأثبت ذاته وسطر أسطورة مجد إضافية تضاف إلى رصيد سابق كان قد حققه.

وبما لا يدع مجالاً للشك، فإن هؤلاء الرجال قد تمتعوا بشمائل خاصة واستقلالية فريدة من حيث المكانة الاجتماعية التي ينحدرون منها، فهم ينتسبون لأسر متواضعة وميسورة الحال، يتوافر لهم المأوى اللائق والحياة الكريمة، فالسواد الأعظم منهم يعيل أسرته، فيما آخرون كانوا يستعدون لتأسيس أسر جديدة، وافتتاح بيوت الزوجية، ومقبلين على الحياة بكل ما تعنيه من جينات وقيم اجتماعية وإنسانية وتعاون وشراكة، كما أنهم ليسوا بجهلة، فلكل منهم فهمه وإلمامه الكامل بقضيته وبما يدور حوله من أحداث وصراعات، فبينهم حملة شهادات علمية وألقاب أكاديمية، ومنهم من قطع شوطاً لا بأس به من الدراسة لكن ظروف الدهر حالت دون مواصلة مسيرة العلم والتعليم، فالتجأ إلى مجال التدريب والعمل المهني أو الوظيفي في أجهزة السلطة الوطنية.

إذا الجميع منهم لديه عمله ووظيفته وأسرته ومحبوه من أبناء إخوة وأهل وأصدقاء، لكنهم أيضاً التقوا على غاية سامية وهدف نبيل، وحَّدهم وجمع بينهم وقوى روابط الألفة والانسجام وعزز أواصر الإخوة والترابط النضالي وحب التضحية والفداء، بعيداً عن المصالح والحسابات المادية والفخرية، فما جمعهم سوى عشق الوطن والعطاء والبذل ومقاومة هذا المحتل الغاشم الذي احتل الأرض وشرد الإنسان، واقتلع الشجر والحجر، فأصبح هدف التحرر من براثن المحتل هو عامل التوحيد لخطاهم، وحصر آمالهم نحو وجهة واحدة عنوانها نيل الحرية والاستقلال وبناء الدولة المستقلة وعاصمتها القدس الشريف تماماً كما هو هدف الجميع من أبناء شعبنا وقيادته الشرعية.

لم يكن التقاء مناضلينا محض صدفة، أو حديث عهد وإن كان بينهم فارقٌ في سنوات العمر وشيءٌ في التجربة النضالية والعلم، فهذا يتم عن تكاملية الأدوار بين الأجيال ويمثل صمام أمان وسر للنجاح والتواصل والديمومة، التي ما انفكت عراها تزداد تماسكاً ومتانة، ووشائجها تزداد ثقة وأخوة ومحبة وتضحية وفداء.

ولا يعني هذا أن علاقتهم خالية من الخلافات والعصبيات والنرفزات الآنية فليس هذا هو الصحيح، ولا سيما أن لديهم كثيراً من الأفكار، وتتعدد أفكارهم بتعدادهم، وهذا ما يولد الخلاف في وجهات النظر، لكنه دوماً خلاف لأجل المصلحة العامة والهدف الواحد وحول الأنجح والأمثل من الآليات والسبل لبلوغ الهدف وتحقيق الغاية، يسود حديثهم الهرج والمرج، والجدية والتعمق في نقاش ما يطرح من أفكار، لكنهم يرسون على رأي واحد يُجمع السواد الأعظم عليه فيتبنّونه، ويدافع عنه الجميع كلما اختلفوا على فكرة ازدادوا توحداً ومحبة على عكس ما يحدث لدى بعضهم؛ لأَنَّ ما يربطهم أسمى من الروابط العادية (كرابطة الزمالة أو رابطة الدم والقرابة) وهذا يعود لخلو المغرضين والانتهازيين بينهم، ولعدم وجود المتسلقين الباحثين عن الذات، هذا إن وجد منهم من يقبل

لذاته صفة من هذه الصفات، لأهداف غير واقعية وليس لها أثر في حياتهم لا في الحقيقة ولا في الطموح، فكيف سيبحثون عن هدف دنيء والواحد منهم يحمل روحه على كفه، ويرنوا إلى نيل المجد والعلا والشهادة أسمى أمانيه.

قد نجد الغرابة في عصر تملؤه الفوضى ويعج بالوصوليين وشعار أفراده النرجسية، وفيه من علامات الساعة العجب العجاب، أن نجد أفرادا بمستوى هذا الانسجام والتّآخي شبه التام وبهذه الغيرة والحرص على بعضهم ويتحلّون بهذا الفداء والتضحية، لقد ذكرني ذلك بحال والدتي رحمها الله واسكنها فسيح جناته حينما كنت أتشاجر أنا وشقيقي الذي يصغرني سنتين بالتمام والكمال حسب سجل ميلادنا، وذلك أيام الصبا حيث كان الواحد منّا يطيح بالأخر ضرباً وكأننا «ديكان»، يريد الواحد منا أن يهزم الأخر أو بطلاً مصارعاً حُرّاً، والكل فينا يريد سحق الثاني ويسجل عليه الانتصار، لكن الوالدة المسكينة تحاول جاهدة الفصل بيننا خوفاً علينا، ولهفة وتحسباً من أن نؤذي بعضنا بعضا، فلا تستطع فتجلس عاجزة خائرة القوى تكيل الدعوات علينا وليس لنا، متوعدة بأخبار والدي رحمه الله وأسكنه في عليين، لكنها سرعان ما تتفاجأ بنا وقد تراضينا وبدأنا بالضحك واللعب معا، فتقول والدتي كان الله في عوني، هكذا هم الروسِّية، (أي الذين يولدون على التوالي دون أن يفصل بينهم أحد) وهذا فهم خاص لدى الوالدين الكبار والمسنين، بأن من يولد بعد الثاني مباشرة يغار منه على حب الوالدين له، وعلى أية قضية قد ينصف بها، إنما هذه الغيرة تتبدل محبة ووداً ويتولد لديهم حرص شديد على بعضهم، وهكذا تماماً كان أبطال قصتنا.

لقد جمعهم القدر بلقاءٍ حميم، فيه الأخوَّة والتفاني والعطاء والتضحية والتسابق للعمل والخدمة، وحملوا بداخلهم روح المسؤولية والغيرة والحرص لا على المصالح الخاصة إنما على تلك القضايا والهموم الكبيرة لأبناء شعبنا، التي تستدعي من الجميع الوقوف والإيثار، إضافة لبلدنا التي تستحق منا

الكثير، وندين لها بالفضل والجميل، وخدمتنا لها تمثل جزءاً من تلك المسؤوليات الجسام، التي يستدعيها الواجب الوطني والأخلاقي.

وكلنا على ادارة شؤون الحياة التنظيمية داخل المدينة، وذلك بما حبانا به الله سبحانه وتعالى بقليل المعرفة وطول النفس والصبر، لا سيما بعد أن ابتلي بعضنا بامتحان الأسر باكراً، الأمر الذي وهبنا معرفة إضافية، ومنحنا إمكانية على التعامل مع المواقع تنظيمياً، وأعطانا الثقة وقدرة تحمل، ناهيك عن دور الجماهير الإيجابي الذين أحاطونا بطيب الخلق وحسن الالتزام وقويم المعاملة والدعم الكافي، ولولا هذا الاحتضان والاهتمام بمشيئة الله لما استطعنا الصمود والاستمرار وتحقيق ذلك النجاح الذي عكس صورة التفاعل الودي الخالي من الاشكاليات على هذا الصعيد، الأمر الذي مكننا من رفع اسم مدينتنا في سجلات النضال الشعبي والوطني.

عزم أبطالنا على المسير فشدوا أشرعة مراكبهم المتواضعة، وخاضوا بها بحراً متلاطم الأمواج، صارعوا علو الأمواج تارة، وسرعة الرياح التي تقاذفت مراكبهم ودفعت بها يمنة ويَسره وأطاحت بها هبوطاً وصعوداً تارة أخرى، لكنهم تمسكوا بحبال النجاة وحافظوا على أشرعة المراكب مشرعة ومشدودة الأوتار، ورغم مصاعب البحر وعتو الرياح ومكدرات السفر، إضافة لتواضع الخبرة في ركوب هذا البحر الهائج، كل تلك المعوقات التي حاولت عبثاً أن تمنعهم من السير، إلا أن سفنهم أبحرت وإن كان عامل التعطيل قد أعاق الوصول، وأَخَّرَ في بكور الزرع، سواءَ على صعيد المواجهات الداخلية، أم تلك التي كانت خارجة عن الإرادة، إذ علينا أن لا ننسى شُح الإمكانات ونقص الخبرة، أو انحصارها في مجالات دون أخرى، وعدم البحث عن مصادر بديلة، إذا ما كان القصد أحياناً هو عدم البوح بسرية العمل، وعدم الرغبة بالانفتاح على الآخرين كإجراء وقائي لدواعي السلامة والحيطة والحذر من عملية الوقوع في أخطاء قاتلة سواءً على صعيد أفراد المجموعات أم على صعيد تعريض المواطنين وممتلكاتهم للخطر

والتزاما بالتسلسل التنظيمي الذي وللأسف لم يظهر دوره وفعاليته بالشكل المطلوب.

حاولنا جاهدين تذليل الصعاب، وتجاوز ما اعترضنا من عراقيل، فرضنا حضورنا بحسن الأداء والحلم والأناة وبالتعامل المتزن والحضور المتواصل، إلى أن أصبح لنا دورنا واحترامنا التنظيمي والاجتماعي، سرنا بخطى ثابتة وإن كانت وئيدة ومتأنية في قطع المسافات نحو بلوغ الهدف، لكن في لحظة ما سادنا شعور بأن هناك شيئاً من التسرع أو التهور في بعض الزوايا، وإن كان هناك خلافٌ بالمعنى الدقيق للكلمة، إلا أننا وقعنا فريسة هذا التسرع الذي لا يمهلنا وقتاً طويلاً ولم يمكننا من قطف وجني المزيد مما نطمح إليه من نتائج.

تجنبنا قدر الإمكان الوقوع في أخطاء العمل وحاولنا أن تكون خطواتنا مدروسة وصائبة وجلية، لكن حالنا كباقي البشر أننا خطاؤون وتنطبق علينا قاعدة: (من يعمل يخطئ ومن لا يعمل لا يخطئ) لذلك تخلل مسيرتنا بعض الكبوات، منها ما كان مؤلماً وقاسياً بحق أنفسنا وبحق أهلنا، ومنها ما كاد يوقعنا في حالة عض أصابع الندم على القيام بها لانها تزج بنا في أتون التلاوم والعتاب والانتحار التنظيمي فيما لو تحققت نتائجها، ولولا رعاية الله وعنايته ومن ثم الكرم الأصيل لأهل مدينتنا الطيبين وتفهمهم لنا ومعرفتهم السابقة بنا وبسلوكنا وتوجهاتنا وأهدافنا وهذا ربما هو الجانب الذي أعطانا الدعم وروح المواصلة، وكان عامل إسناد لعدم الوصول إلى حالة اليأس والاحباط والانتكاس أو التنحي عن الاستمرار ومواصلة المشوار، هذا إلى جانب إيماننا العميق بعدالة القضية وحتمية الانتصار، إن هناك من الأعمال ما سررنا لعدم تنفيذها، وأخرى لعدم نجاحها؛ لأن نتائجها ستكون كارثية ومضرة بنا وبأهلنا فيما لو كتب لها النجاح؛ ولذلك حمدنا الله على قضائه وقدره والخيرة فيما اختار الله.

لا شك في إن انسجامنا ووحدتنا ورابطة الصداقة التي تجمعنا والحس بالمسؤولية والقدرة على التحمل والإيمان بالقدر كل ذلك بعد إرادة الله سبحانه وتعالى، كان من أهم الأسباب التي مكنتنا من الاستمرارية وعدم الوقوع في أخطاء كبيرة أو الاستسلام لبعضها، وان كان جزء منها يفوق قدرة التحمل، لا سيما في مدينة كمدينتنا متماسكة بعاداتها وتقاليدها وأعرافها وترابطها العشائري بما نعكسه من صورة مصغرة لمجتمعنا وشعبنا بأسره.

ولا يمكننا إغفال دور أهالي تلك المدينة الطيبة بطيب أهلها الكرماء الذين لم يبخلوا علينا ولم يدخروا جهدا في المساعدة والإيواء والمؤازرة، بصرف النظر عما سينجم من مخاطر وما سيعود عليهم من أضرار أو ما يطالهم من أعباء ومسؤوليات قد يكون فيها السجن.. الشهادة... المضايقات... أو هدم البيوت، وهذا كله فعلا قد حدث لكثير من الأسر، التي دفعت ثمناً باهظاً جراء مساندتها ووقوفها إلى جانب مناضلينا، ولا يسعنا إلا أن ننحني إجلالاً وإكباراً لهذه الأسر التي فقدت عزيزاً من أبنائها ليرتقي شهيداً أو ليقع بعضهم الأخر أسيرا، وذلك كله حدث ليس ألا لوقفة عز وشهامة وأصالة وقفوها إلى جانبنا نحن أبناءهم وإخوانهم الذين لا ولن ننسى لهم الفضل والجميل الذي سيبقى ديناً في أعناقنا إلى يوم الدين.

ويدعونا الواجب إلى استذكار شهدائنا البررة خالد مخامرة، ومحمود بدير وإبراهيم أبو رجب وكل شهدائنا الطاهرين الذين قضوا نحبهم وارتقوا إلى جوار ربهم ورحمته مؤكدين أن كرم الضيافة وإيواء المناضلين والدفاع عن الصديق والتضحية والفداء ليس مجرد شعارات وكلمات فضفاضة بلا مضمون، بل هي فعل وأصل راسخٌ في نفوس أهلنا وأبناء شعبنا وعقولهم، فإلى جنات الخلد أيها الشهداء وكل شهداء مدينتنا وشعبنا، وستبقى خطاكم وذكراكم لنا نبراس هداية.

وفي المقابل لا يخلو الشق الآخر من الصورة من سلوكيات وأفعال مشينة يندى لها الجبين خجلاً لأولئك المأجورين والأوغاد الذين رموا بأنفسهم ليكونوا عيونا للأعداء وليصبوا نار حقدهم ودناءة نفوسهم ويصبحوا أحجار شطرنج تدار في غير صالح أبناء جلدتهم، مقابل فتات زائل أو إشباعٍ لشهوة شبق حيوانية، سيطرت عليهم وجرتهم إلى مستنقع الرذيلة والانحطاط، وليتحولوا بذلك لخفافيش ظلام تَرصد حركات أبطال، رهنوا أنفسهم للدفاع عن بلدهم وأبناء شعبهم، وفضلوا السهر على راحة الناس وأمنهم، فإن كل الفضل والجميل والعرفان والتقدير هو الإكليل الذي نتوج به رؤوسنا والأمانة التي نعلقها في أعناقنا في تلك الفئة الأولى، التي لم تروعها سطوة الجلاد وعقوباته عن القيام بواجبها الوطني، فلا يسعنا في الفئة الثانية إلا أن نلفظها من بيننا ونعريها ونقاطعها، ونعلن عليها الحرب بلا هوادة ولا رحمه، وندعو المجتمع بأسره كي ينظر أليها بنظرة غضب واحتقار، والنبذ والازدراء لما يقومون به من ادوار خيانية لا تميز بين فرد وأخر من شرفاء المدينة والشعب بأسره، ولما يجرّونه علينا من عار وخسة ودنس بأنتمائهم لهذا الشعب الأبي.

وبالقدر الذي نتحدث فيه عن عامة الناس وخاصتهم، فعلينا أن لا ننسى أفراد الأجهزة الأمنية والعسكرية لسلطتنا الوطنية في تلك المدينة الوادعة أسوة ببقية مدننا وقرانا في الوطن، حيث كان لهم مواقف شجاعة وأصيلة، وإن تباينت بين جهاز وأخر، إلا أن مواقفهم لا يمكن إنكارها أو إسقاطها والتغاضي عنها، كيف لا؟ وأن بيننا كثيراً من أبطال هذه الأجهزة حتى وإن كان القرار في انضمامهم وانخراطهم في صفوف مجموعات وخلايا العمل الفدائي طوعيا وفرديا، لكننا نقول إن عملنا جميعاً سواء أكان طوعياً أو فردياً وتحت كل الظروف فإن أجهزتهم أيضاً لم تحاسبهم ولم تعق اندماج من يمتلك الحس والغيرة والمسؤولية بالواجب، تجاه شعبه ووطنه ويرغب بتأدية الدور المنوط به على هذا الصعيد.

وقد يساور بعضهم الظن أن فرساننا لم يلتحفوا السماء ولم يفترشوا الأرض أو يسكنوا الكهوف وأنهم كانوا ينعمون بوافر العيش، وينامون على أرائك الحرير، سيما وأننا نعيش في انتفاضة الأقصى وعصر مقاومة ونضال اختلفت وسائله وأشكاله ومفاهيمه، لكن ليست هذه هي الحقيقة، فهم فعلاً لاقوا الترحاب والكرم والاحتضان ما أنساهم صقيع البرد القارص، وصلي الشمس الحارقة وشبح الجوع، وألم التعب ولوعة البعد عن الأبناء والأهل أثناء تنقلهم ومطاردتهم برغم قصر الفترة الزمنية التي قضوها بين الكهوف وأحضان الجبال وبطون الأودية.

لم يكن جل وقت أفراد الخلايا التنظيمية الفاعلة المقاومة ومقارعة الاحتلال لكنهم أيضا ليسوا إستعراضيين في سلوكهم وعملهم ولا متواصلي الاختباء داخل المغر والكهوف، ولم يكونوا بلا حسيب على سلوكهم وتصرفاتهم وأفعالهم أذا ما خرجت عن إِطار المعقول والمنطق، كما أنهم يعيشون على البساطة، يتفاعلون مع قاعدتهم الجماهيرية، يشاركون الناس أفراحهم وأتراحهم، يختبئون لحظات الضرورة ويظهرون كلما استدعاهم الأمر لذلك، فلهم مسؤولوهم التنظيميون الذين انخرطوا في ميادين العمل الفدائي والقادرون على أخذ القرار، ربما أن ما كان يفرزهم في أغلب الأحيان ويصنفهم ويفرض عليهم تحمل عبء المسؤولية، هو مدى تمسك العدو وإصراره على إلقاء القبض عليهم أو اغتيالهم عقاباً لدورهم النضالي وعملهم الذي قاموا به، وهذا ما يجعل القائد أكثر بروزاً وتقع عليه مسؤولية حمل اللواء إلى حين ينظر الله في أمره، بأن يقع أسيراً أو يرتقي شهيداً، ويأتي من يخلفه وفق ذات الآلية والتدرج، وهكذا تسير الأمور على هذا النحو خاصة في قيادة الجناح العسكري وخلاياه العاملة.

تحدينا الواقع وواجهنا العديد من الإشكاليات التي كانت أحياناً فوق طاقة التحمل من قبل بعض مواطنينا، الذين لا يختلف دورهم وأداؤهم عن دور بقية المواطنين الآخرين، الذين كانوا يُحمّلون المناضلين مسؤولية جلب الدمار وإعطاء المبررات والذرائع للاحتلال في اقتحام البلدات، لا سيما المواطنين البسطاء الذين

يقطنون المناطق المحاذية للطرق الالتفافية أو بجوار المستوطنات، ويظنون إننا نمتلك قوة خارقة وإمكانات تستطيع دحر المحتل وإيقاع الهزيمة بجيشه، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على البساطة وسطحية التفكير وطيب النفس في اغلب الأحيان، وقد التمسنا لهم العذر، وإن تخلل ذلك بعض النفوس المريضة التي تحاول خلط الأوراق وتشويش الأجواء وخلق حالة التنافر بين المواطنين البسطاء والمقاومة الذي يحاول جاهداً تنفيذ ما أوكل إليه من مهمات عبر إمكاناته المتواضعة وإصراره على المقاومة.

وهكذا وبهذه الصورة البديعة والقاسية والمليئة بالتناقضات والأحداث المتوالية تسير الأمور ببساطتها وعفويتها ودورها المرسوم لها، بين كدّ وتعب، مطاردة وملاحقة، تستر وظهور، كر وفر، ونوم في العراء أحيانا، وفي القصور وعلى الفراش الوثير أحياناً أخرى، عيش فوق رؤوس الجبال وبين بطون الأودية، نتلاوم ونتعاتب، نلقى المؤازرة والمساندة مرة ونذوق لوعة البحث عن مأوى مرات ومرات، وقد يكون السبب في عدم إيجاده شدة الحذر والخوف من القدر المجهول والذهاب للبحث عن الأكثر أماناً وأمناً وليس لعدم إيجاد المأوى كمأوى بعينة.

استمر حالنا على هذا المنوال وبهذه الطريقة والكل يسعى ويجتهد، لكننا لا ندري من أسرع نحن أم القدر؟ فلا شيء عادَ يهمنا إلا أن نلقى الله سبحانه وتعالى وهو راضٍ عنا، نحاول أن ننجح بالاستمرار، والعدو يحاول أن يصل إلينا في أسرع فرصةٍ ممكنة، والقدر هو الذي سيفرض نفسه علينا ولا ندري لصالح أي من الأطراف سيكون حكمه، لكن بكل تأكيد لدينا الإيمان بأن الخيرة فيما اختار الله سبحانه وتعالى لا في اختيار العبد، وإن كان الأصعب هو النازل بنا فنحن به راضون.

الفصل الثاني:

تلاقي الغايات يوطد العلاقات

رحلة صداقة

من المهد إلى اللحد

للأسير / خليل محمود يوسف أبو عرام

الفصل الثاني:

تلاقي الغايات يوطد العلاقات:

على هذه الأرضية من التفاهم والانسجام يلتقي ثلة من الأخوة وحدَّهم الهدف وجمعتهم الغاية، من خلال معرفة سابقة، حيث جمعهم تلاقي وتعارف من كانوا أيام صباهم على مقاعد الدراسة، والمدارس التي كانت الحاضنة الأولى لشبكة علاقاتهم الأخذة بالتعزز شيئا فشيئا، وهكذا دواليك تتفاعل العلاقات وتقوى مع انقضاء السنين، سيما وأن هناك بعض روابط القرابة والصداقة أو بعض روابط العمل التي ساعدت هي الأخرى في التلاقي والتآلف، وبازدياد الثقة يبدأ بعضهم بالتنفيس عن مكونات نفسه، وأسرار عقله الباطني الحبيسة، التي تحمل عنف الفتوة وشهامة الشباب، ويبدأون بالبحث عن آلية للتعبير عما تختلج به نفوسهم من أفكار لإخراجها إلى دائرة التطبيق الفعلي.

ما بين الرغبة والرهبة للبوح بهذه الأسرار وما يترتب عليها من مخاطر قد لا تحمد عقباها، فقد يكون لها ثمن قاسٍ على صعيد الفرد والجماعة؛ لذلك يبدأ التلميح تارة والتصريح أخرى ثم يتبعها الانسحاب مما دار من أحاديث، ويختلط الجد بالهزل وتغيب المواقف والقرارات، بين التلاعب بالألفاظ والكلمات والاقتراب من خط الخطر ثم العودة للوراء خطوات، حيث خط الأمان وإبداء الأعذار عما بدر ثم التنصل، وكأن شيئا لم يُقلْ، لكن الفطنة لن تغيب عن بال البعض، خاصة في حالات العصف الفكري التي تعصف بعقول هؤلاء الشباب، الذين تتوقد أحشاؤهم وتغلي

بما يدور في نفوسهم من مشاعر الوطنية والثورة على المحتل الغاصب، وكراهيتهم للذل والخضوع والاستسلام وسخطهم من ممارسات القمع اليومي، التي أوصلت الناس إلى حالة من اليأس والقنوط والضغط النفسي إلا أنهم مع كل هذه الروح الوثابة لن ينطلقوا بلا سابق إنذار، إذ لابد لهم من مقدمات وإشارات، ستأتي تماماً كأعراض الولادة لتدلل على قرب الموعد؟! وضرورة الانطلاق والالتحام، وهذه الأَعراض يمكن إيجادها إذا ما توافر السبب، الذي هو بلا شك حاضر في أذهان الجميع وأمام ناظرهم.

بالتأكيد أعراض المرض دوماً تشير إلى وجوده، وتستدعي البحث عن الأسباب لاستئصال المسبب أو علاجه، والأسباب كما أسلفنا كثيرة فكيف يغيب عنا السبب؟! ولا يوجد مدينة أو قرية إلا وأقيم على أرضها مستوطنه أو أكثر، أو شق وسطها طريق التفافي ليقضم بذلك مئات الدونمات من الأراضي، وهناك العشرات بل المئات من الأسرى القابعين في السجون، ولها نصيب وافر من الشهداء مع توالي سيء الاحتلال، ولا يخلو يوماً إلا وفيه ذكرى نكبة أو مذبحة أو مجزرة ففيروسات المرض والعدوى متوافرة وبكثرة، لكن تبقى البشائر التي لابد من استغلالها كشرارة للترويح عن النفس واختيار الطرف المناسب للبدء.

وعلى هذا النحو تختمر الأفكار الحبيسة في عقول كوكبة من الإخوة والأصدقاء وتنضج، وإن لم يكن لهم آنذاك دورٌ قيادي وريادي؛ لأنهم لم يبحثوا عن ذلك بقدر ما أرادوا الانخراط في العمل، والقيام بما يمليه عليهم الضمير ويفرضه الواجب الوطني والأخلاقي الديني، وفعلا استطاعوا

بذلك أن يأخذوا دورهم ويسيروا في ركب المقاومة، وتركوا بصماتهم جلية، وبدأوا مشوارهم النضالي بالخطوة الأولى، وفرضوا ذاتهم على معادلة النضال ومقارعة المحتل، ولتستمر هذه المسيرة ردحاً من الزمن، حملت في ثناياها ما قدر لها من أحداث وسيَر وبرغم التباعد والانفصال والفجوة التي حالت فيما بينهم بسبب سنوات الاعتقال الطويلة للبعض، إلا أن التواصل اجتماعياً وفكرياً بقي محافظاً على صورة مشرقة لسلسة متينة من علاقات الصداقة الصادقة التي نسجوا أواصرها في ظروف قاهرة، كان قوامها الإخوة والمحبة والثقة ورفقة الدرب التي مهدت الطريق للدور الثاني من السيرة النضالية الثانية وعلاقات الصداقة الحاضرة التي زادت انسجاماً وتوحداً.

ومع الصبر تتحقق إرادة الله، وتأتي ظروفٌ أشبه ما تكون بالمعجزة خاصة بالنسبة لعامة الناس البسطاء من أبناء شعبنا، لا سيما أن حالة العدائية والصراع الدموي لشعبنا الفلسطيني وثورته المعاصرة بشكل عام وانتفاضة الحجارة على وجه الخصوص مع المحتل كانتا في أوج العطاء، وتزداد ضراوة ودموية، ولم يكن هناك بشائر سلام تلوح في الأفق القريب أو البعيد، بل زيادة على ذلك أن الحديث جله كان يدور عن التصعيد، والعنوان دحر المحتل عن كامل التراب الفلسطيني، وأن الصراع مع العدو صراع عقائدي ووطني، صراع وجود أو لا وجود؟! لذلك فإن ما حدث كان معجزة إلهية كمعجزة تأمين ذئب جائع على حمل وديع، فهل يخطر ببال أحد يوماً؟ ويتخيل كيف سيكون عليه الحال؟ وهل يتصور انه يمكن لذئب أن يترك حملاً وشأنه وهو يتضور جوعاً، لكن الحقيقة هي إرادة الله سبحانه وتعالى، أن

تقضي بالقول للشيء كن فيكون وان يغير الأحوال، ويلتقي الأعداء ليجلسوا على طاولة واحدة، يتفاوضوا ويتصافحوا ويوقعوا إتفاقية سلام الشجعان، ويتحرر قرابة عشرة آلاف أسير من سجون الإحتلال ويجتمع أصدقاء العمر ورفاق الدرب من جديد بعد أن كان القدر قد شتت شملهم وحزمتهم.

الفصل الثالث

رحلة صداقة

من المهد إلى اللحد

للأسير / خليل محمود يوسف أبو عرام

الفصل الثالث:

انتهت مرحلة الصقل والتجربة الأولى على هامش الفعل غير المبرمج وعشوائية الطيش الشبابي لتنتقل إلى مرحلة تحمل أعباء المسؤولية وتولي زمام الأمور وان كانت هذه المرحلة هي مرحلة استراحة مقاتل وهدوء واستقرار تحت مسمى عملية السلام، ولكن بكل تأكيد فإن نظرة الناس إلينا قد تغيرت ومطالبهم منّا كذلك، وكان هناك على صعيد الواقع العام تغيرات جمّة، فمن اعتقل لمدة من الزمن، خرج من السجن ليجد الصغير قد كبر وأصبح طالب جامعة، أو معلماً في مدرسة، أو رب أسرة أو صاحب مشروع... الخ من هذه الأمور، ومن كان مناضلاً في صفوف الإنتفاضة الأولى تحول إلى جندي أو ضابطٍ عسكري في أحد أجهزة السلطة الوطنية، أو تبوأ مركزاً قيادياً في إحدى مؤسسات المجتمع المدني أو المواقع التنظيمية، وهكذا كان الحال، كل هذا حصل لأن الأسير يعتقد أن الحياة تتوقف مجرد دخوله السجن، ولكنه يتفاجأ حينما يتحرر ويلقى الواقع فيلمس الفرق والتغيرات دفعة واحدة، والتي فيها بالتأكيد الإيجابي والسلبي، حيث التطور العمراني والتغيير في السلوكيات والمفاهيم والأعراف وأنماط الحياة الاجتماعية التي طرأت مع التطور الزمني الحضاري والتعليمي والتكنولوجي والديمقراطي.

عاد الأصدقاء إلى مدارجهم التي نَشَؤوا فيها طفولتهم وشبوا، وترعرعوا أيام شبابهم، ونسجوا فيها علاقات صداقتهم الطاهرة، عادوا إلى ذكرياتهم الجميلة، وإلى تلك الأفكار والطموحات التي دفعوا ثمن تبنيها والتشبث بها ربيع شبابهم، وأجمل أيام عمرهم، ليبدأوا مشوار حياتهم من حيث توقفت، يخوضونها بكل ما فيها وبما تحمله من مواضيع وأحاديث مستجدة ومختلفة

في رصانتها ومكانتها عما كان في الماضي، فالأفكار هذه المرة بناءة وتأخذ في نقاشها الجدية والموضوعية والعقلانية والتعمق بالفهم بعيداً عن ردات الفعل والعشوائية السابقة والصبيانية والهزل الذي كان، فالكل أصبح يعرف ما يدور في خلد الآخرين، وأي أفكار يحملون ولأي جهة ينتمون أو يتبعون، والحديث بات جلياً بأبعاده ومراميه صريحاً بألفاظه ومعانيه.

وتسير الأمور وتتوالى الأيام أو تأخذ الحياة مجراها بلا توقف، كيف لا يؤذن لها بذلك وسنّة الله تقتضي استمرارها إلى أن يشاء الله فتتوقف معها الحياة بالموت أو بنفخة إسرافيل، وها هو سلام الشجعان الذي كان معجزة المرحلة آنذاك قد وقع وعادت طلائع الثورة الفلسطينية والفدائيون إلى أرض الوطن، ويأذن الله بقيام السلطة الفلسطينية التي بدأت بالانتشار داخل مدن الوطن وقراه، وتتسلم إدارة الأمور فيها ويكون نصيب مدينتنا من بين تلك المدن التي انتشرت فيها السلطة أخيراً، وبانتشارها واستلامها شؤون ومرافق الحياة خرج أخر جندي من جنود الإحتلال من داخلها فيما بقيت المستوطنات على تخوم المدينة ومرافقها الحدودية، عمت الفرحة أوساط الأهالي، الذين عانوا الاضطهاد والقهر اليومي جراء سلوكيات الاحتلال وجنده وتنفس المواطنون الصعداء وابتهجوا وسادهم السرور، كيف لا تكون الفرحة في بلد قدمت الشهداء والأسرى والجرحى وقامت بواجبها الوطني وما عليها من مستحقات المقاومة والصمود، تماماً كما هو الحال في باقي المدن والقرى والمخيمات الفلسطينية إذاً من حقها أن تفرح وتصهل وتمرح وتتزين ويبتهج فرسانها وتنشرح صدورهم ويتباهون أمام جماهيرهم ومحبيهم.

لقد طاب للأصدقاء والمناضلين أن يحتفلوا ويبتهلوا لله على هذا النصر، وأن يتركوا العنان لأزيز الرصاص كي يزغرد في سماء المدينة أسوة بكل المدن

والمخيمات التي احتفلت لذات العرس، فهم من عشق السلاح منذ نعومة أظافرهم، وحلموا بهذا اليوم وحتمية قدومه، فمنذ أن وعوا الاحتلال وهو يغتصب فلسطين، ويحتل ويعتقل ويبطش، بشكل يومي ومتواصل بلا حسيب أو رادع، رضِعوا حليب الوطن فطرياً وتشربوا مفاهيم الثورة وتعاليم النضال، حينما كانوا يسترقون السمع لصوت الثورة الفلسطينية الذي كان يبث لساعة واحدة من بغداد، وما يتخلله من أغاني الثورة وصوت اليرغول والناي وحديث أبو باجس، اليس من حقهم؟ أن يعربوا عن سعادتهم وفرحهم وتفتح شهيتهم ويتفاخرون على المارقين والخونة من الطابور الخامس، ويتوعدوهم بقرب يوم حسابهم من السلطة الوطنية التي رفعت راية فلسطين، هذه الراية التي راح في سبيلها قوافل من الشهداء والأسرى والجرحى، كل ذلك راود أذهان هؤلاء الأبطال، لكنهم فضلوا التحلي بالرزانة وعدم الشماتة ممن أوقع بهم الاحتلال في شباكه، وقرروا الترفع على الصغائر في زمن طابت فيه الفرحة ومشاركة الناس مشاعرهم واحتفالاتهم.

تفهم مناضلونا الموقف الحركي وراء توقيع هذه الاتفاقية، واعتبروا أن ما حدث خطوة مهمة تأتي على طريق التحرر والاستقلال وبناء الدولة، وان كانت ناقصة، كيف لا يرون أهميتها وهم من المؤمنين بالفكرة القائلة: أن مسيرة الليل تبدأ بخطوة ومن جند القائد الرمز الشهيد الذي قال: إننا في ربع الساعة الأخيرة نحو إقامة الدولة العتيده وعاصمتها القدس الشريف، فقد اعتبر أن ذلك، ثمرة وانجاز انتفاضة الحجارة التي كانوا من جنودها، وهذا ما زاد من ثقتهم وضاعف من دورهم الريادي أمام قاعدتهم الجماهيرية، وفسح لهم مجالاً من التفاعل وتكاملية الأدوار من مسؤوليات المجتمع المدني القائمة، لا سيما بعد

أن التحق العديد منهم بالجامعات أو بالوظائف العسكرية أو المدنية، واخذوا دورهم بالمشاركة الفعلية في مسيرة البناء.

وتبقى روابط الصداقة مستمرة، لأنها ليست آنية أو مرهونة بزمان أو مكان أو غاية مادية، بل هي تعبير صادق عن علاقة سامية وظاهرة قوامها الفداء والتضحية والإيثار، ويستمر العطاء ويتواصل، لكن بأساليب وطرق جديدة ومختلفة عن السابق، وأخذت دائرة العلاقات بالاتساع تماماً كبقعة الزيت، حيث ينتقل من دائرة أضيق إلى أخرى أوسع، فمن دور الأفراد إلى الجماعة، فالأسرة فالأبناء، فالأخوة الأشقاء وأصدقائهم ليشكلوا بذلك معادلة تأثير بارزة، وتعزز شبكة الصداقة بالتواصل الأسري وسادها التزاور وبعض روابط المصاهرة والنسب وهذا أضفى عليها عوامل قوة إضافية خاصة، وأن العلاقات العائلية والأسرية قد توطدت أثناء خروجهم معاً لزيارة أبنائهم الأسرى في سجون الإسرائيلية، وكأننا مع انبلاج الفجر بموعد، إذ بدا القدر يفتح لنا ثغره مبتسماً، وأشرق الصبح بنوره وبدأ ينير لنا الدرب، ويبدد إسراف عتمة كانت قد طوقتنا منذ زمن، لكنها كانت فترة الهزيع الأخير لتكون مع الفجر، مع مرحلة أخرى من عوامل النجاح على صدق هذه العلاقة وتمتن وشائجها، فقد تقرر عملية فرز تنظيمي لأبناء الحركة وانتخاب قيادة تنظيمية لإدارة المواقع، كان هذا العمل أمراً طارئاً على صعيد الحركة الوطنية داخل الوطن ولم يعتدْ أبناء الحركة من ذي قبل اختيار قيادتهم بهذا الشكل الديمقراطي الحر والعلني، لكننا وكما أسلفنا فإن مرحلة العمل داخل السجن والجامعات والمؤسسات، اكتسبنا بعض التجربة وأوجدت لدينا فهما تنظيمياً واداريا على هذا الصعيد وبالتالي، لم نتردد من خوض غمار هذه المرحلة وما ستحمله في قادم الأيام من مزايا وأحداث.

ويأتي دخولنا في هذه المعركة الديمقراطية لأسباب عدة فجماهيرنا تتطلع إلينا بالرضا والثقة والأمل بان نقدم لها ما نقدر عليه من خدمات ومساندة، وتشعر أنها تقدم لنا حقاً في هذا الجانب فيما نحن نتطلع لهذه الأمانة كمجال لخدمة أهلنا، ولعلنّا كذلك نستطيع القيام بما يوكل الينا من مهمّات تنظيمية وخدماتية، إضافة لرغبتنا في اكتساب تجربة عملية في مجال خدمة الجماهير داخل مؤسسات التنظيم.

ونخوض تلك التجربة على صعيد القواعد التنظيمية داخل الوطن، ونشق طريقنا بخطى واثقة، دون خشية أو تطلع لمن سيفوز، رغم إننا كمجموعة أصدقاء تمثل قالبا واحداً من العادات والفهم والطباع، ونملك من زمام المبادرة وأوراق النجاح والتأثير الشيء الكثير، لا بل لا نذيع سراً أن قلنا، إننا كنا نمثل دينامو حركة واضحة، وكنّا نقيس الأمور ونقرأ الواقع جيداً، ونتوقع بدقة ما هو في صالحنا وما هو عكس ذلك، على الرغم من حداثة التجربة في هذا الأمر.

وأمام ما نملك من مقومات النجاح آنفة الذكر، تمكنا من اختيار أعضاء قادرين على الانسجام والمنافسة وتحقيق الفوز، بل الفوز الساحق في حال إجراء الانتخابات ومال الخط لصالحنا، هذا ما حدث وما عملنا لأجله، بالرغم من أن الأمور سارت على عكس ذلك تماماً، لكن أيضاً كانت في صالح تلك الثلة، وما كان ذلك ليتحقق لولا حسن صورة هؤلاء الأخوة في عيون قاعدتهم الجماهيرية من ناحية، ولطيب تلك القاعدة وثقتها بأبنائها ورغبتها في مكافأَتهم وإعطائهم دورهم وفرحتهم بالعمل لا سيما الهيئة العامة "صاحبه حق الاقتراع" والتصويت لصالح تلك اللجنة.

وتمر الأيام وتنقضي الليالي كلمح البصر، أو كأنها البرق، وإذا بنا أمام يوم الانتخابات الذي انتظره ابناء مدينتا من مشجعين ومرشحين وأصحاب حق الاقتراع بفارغ الصبر، لما يمثله هذا اليوم من مفترق طرق بين حالة العشوائية التي كانت سائدة سابقاً ومفروضة بالتعينيات، وبين حاله الرتابة والفرز الديمقراطي الذي يشارك فيه أعضاء الحركة لاختيار قادة الميدان، وما يحمل لنا ذلك من بشائر أمل ودلالات سياسية سامية لها وقعها الخاص في نفوس الأعضاء وخصوصاً المهتمين وأصحاب الشأن الذي سيشاركون في هذا العرس الوطني، وذلك بما حباهم به الله ومكنهم من حرية لانتخاب ممثليهم بصورة حرّة وبعيده عن شبح الملاحقات الأمنية من مخابرات العدو، وحملات الاعتقال الاحترازي، التي كان جيش الاحتلال ينفذها ضد أبناء شعبنا، قبيل أَي انتخابات لمجالس الطلبة إذا ما بدا له أن هناك ميولاً تنظيميه أو توجهات سياسية لأي فرد.

وتأخذ الاستعدادات والترتيبات مجراها الطبيعي كأي انتخابات نقابية أو مؤسساتية، ويستعد الأخوة المعنيون بشكل جيد، فقط استطاعوا قراءة الواقع وحساب الأمور حسابا ًدقيقاً، إلا أن النتيجة والحسم تبقى رهن التغيرات الطارئة في اللحظات الأخيرة، ذهبوا إلى مكان عقد المؤتمر التنظيمي "قاعة الانتخابات" في المدرسة الأساسية للبنات التي كانت قديماً المدرسة الثانوية الوحيدة للذكور في المدينة، لكنه ذهاب الواثق بالنصر، أو أن المعركة شبه محسومة، لا سيما بعد كل الجهود والمداولات والتحضيرات والقراءات التي أوصلتهم إلى هذا الاستنتاج المسبق والمطمئن، والذي يشير بأن أعضاء اللجنة المرشحين والذين نحن جزء منهم قد يحظوا بالتزكية، وذلك يعود لمحدودية عدد المرشحين ولغياب منافسة قوية أمامهم، لا تخفي ما ساورنا من خشية.

بداية المشوار معتبرين أن ذلك الطرح ليس سوى خدعة وشرك انتخابي، لكن سرعان ما تلاشى هذا الشك وأكد الخبر، وتأتي خشيتنا انطلاقا من وعينا بأن هناك معارضة واضحة ولها صوتها المؤثر بلا ريب، وهذا ما نعتز به، ويمثل لنا صمام أمان كي لا نقع في غرور النفس القاتل، ونعتقد أننا ملكنا الكون في انتخابات كهذه.

احتشد جمهورنا الكريم، وأعضاء الهيئة العامة أصحاب حق التصويت.. واصطف المرشحون، وحضر المراقبون، الذين سيتولون عملية الأشراف على سير العملية الديمقراطية، الذين يكن لهم الجميع كل التقدير والاحترام، فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر ولا يسعنا إلا أن نطير لمن ارتقى إلى العليا، الرحمة وحسن المأوى وخاصة رئيس بلدية يطا سابقا المربي الفاضل خليل يونس (أبو جمال) والمناضل الكبير الشهيد أبو فضل النجار، كما ندعو للبقية الباقية على الدرب ذاته بدءاً من أمانة السر وأعضاء لجنة إقليم الجنوب آنذاك والسادة الضيوف الكرام وجميع الكادر التنظيمي والوطني الذين لبوا الدعوة وشرفوا العملية الديمقراطية حضورا بالتوفيق والنجاح في خدمة شعبهم وأبناء مدينتهم.

وعلى هذا النحو تجري بنا الأحداث وتسير السفينة كما خطط لها وقبل فتح صندوق الاقتراع، سرعان ما يتقدم أحد أعضاء لجنة الأشراف وبعد تشاوره مع الآخرين ليعلن تزكية أعضاء اللجنة المرشحين بالإجماع داعيا مبايعتهم والدعاء لهم بالتوفيق والنجاح في خدمة أبناء شعبهم ومدينتهم، لبى الأخوة نداء اللجنة وقبلوا المبايعة وأبدوا ارتياحهم فشكروا الحضور ضيوفا ومراقبين وجماهيراً، وقطعوا عهداً أنهم سيبذلون جُلَّ ما في وسعهم من طاقة وجهد ويحدوهم الأمل بأن يكونوا عند حسن ظن جماهيرهم بهم، مؤكدين أن جهدهم

يبقى عاجزا عن الوفاء ولن يؤدي ما هو منوط به من أدوار ولن يكلل بالنجاح بمعزل عن مؤازرة وتعاضد الجميع منهم.

أما الموقع الذي جرت فيه عملية الفرز فهو موقع الشهيد كمال الصريع فيما ثلاثة مواقع أخرى تابعة للمدينة ولإقليم الجنوب وهي موقع الشهيد أبو جهاد، موقع الشهيد فضل النجار، موقع الشهيد أبو الحسن القاسم فقد تم فرز لجانبها خلال أيام الأسبوع بالتوالي.

شرعت مراكبنا بالمسير وسط بحر متلاطم الأمواج لم نعتد الإبحار فيه من قبل، عقدنا العزم على السير رغم كل الصعاب، لكن بثقة تامة، وحساب لكل خطوة، حساب للكلمة، للسلوك للموقف، لمن يساند ومن يعارض، من يؤيد، ومن يقف على مسافة واحدة من كل ذلك حسابات كثيرة ودقيقة، لابدّ من معرفتها، لم يسبق لنا أن حسبنا على هذا الطرف أو ذلك، لقد كنّا قبل ذلك في موقع التحلل من المسؤولية، لأننا متطوعون وغيرُ محاسبين على النتائج، أما الآن فالوضع مختلف كلياً، فالكل ينظر إلينا وينتظر منا الكثير، ويتوقع ما يحاوله ويحكم كما يشاء له أن يحكم.

ويقوم أعضاء اللجان بتوزيع المهمّات وفرز أمانة السر، صحيح أنها مناصب شكلية، لكنها إلى حد ما لها أهمية ورمزية، وكثيرون من يختلفون عمن يأخذ هذه الحقيبة أو تلك ألا إننا لم نواجه في هذا الأمر بالذات كثير خلاف، ليس لأننا غير طموحين أو أكثر زهداً وتعففاً من غيرنا، أو أننا قادمون من كوكب غير كوكب الأرض، وإنما كوننا كما أسلفنا نتحدث عن مجموعة أصدقاء لم يكن في وارد أي منهم منافسة أخيه على مكانة أو مركز بقدر ما كانت الغاية التوحد والتطلع للنجاح والنظر للمهمة كمجال للخدمة والمحافظة على الانسجام

وعلى هذه الصداقة المميزة واعتبار النجاح إنجازاً للجميع، ومن هنا لم نواجه في توزيع المناصب كبير جهد بل سرعان ما انتهينا من هذه الخطوة الشكلية في نظرنا، ثم جاء دورنا المميز والتكاملي في العطاء، ولو على صعيد الإقليم الخاص كامل التعديل.

واجهتنا بعض المعوقات والمعارضة، غير أن هذه الثغرات لم تكن قادرة على إيقاف سير واستمرارية تحركنا كلجان أو كمجموعة أصدقاء؛ لأنها كانت أقل تأثيراً وقدرة من تشكيل مجموعة ضغط حقيقية على قرارنا، كما أن قادم الأيام التي تلت تلك المرحلة جمعت بين المعارضة والبقية المؤثرة فتصارع القوم، ولم يكن لذلك أثر كبير في نفوس أخوة أدركوا أن المهم في الأمر المنافسة على العمل، وترك بصمات فيه، والحرص فالمسؤولية هي التي دفعت الأمور بهذا الاتجاه، واللبس في حقيقة المعرفة لنوايا وأفكار بعض الأخوة هي التي أدت لإدارة الظهر لهم وتجاهلهم في بعض الأحيان، فيما قلة منهم لا نجد حرجاً من تهميشهم والتنكر لهم، وقد مثلوا ببعدهم وهجرهم للعمل، عاملاً مساعداً لمجانبتهم، كما أن الأيام التالية كانت كفيلة ببرهنة صحة موقفنا القاضي بتجاهل أدوارهم، هذا ناهيك عن أن عملنا كان رهن اجتهادات قد نصيب وقد نخطئ، وكما يقال: لكل مجتهد نصيب، وهكذا كان عليه حالنا، وما رجاؤنا إلا بالله بأن يغفر لنا ذنوبنا وأن يعفو عنَا ثم توجهنا لأهلنا وجاهرينا بالصفح لنا عما وقع منا من زلات.

لا تخلو هذه المرحلة من مراحل العطاء والعمل التنظيمي من إخفاقات هنا وهناك، خاصة وإننا نعيش في مجتمع تحكمه العشائرية أكثر من الحالة التنظيمية، هذا عدا عن حالات المنافسة التنظيمية والمعادلات التي لم تكن في واردنا، ولم نعتد على نسجها بهذه الصورة، إضافة إلى قصر تجربتنا، والأهم من

كل ذلك هو شح الإمكانات وتعدد المرجعيات وغياب الرعاية التنظيمية العليا وسواء من حيث التوجيه والرقابة أو الحماية مما أعطانا فسحة للاجتهادات الشخصية والعشوائية، وإن كانت مضبوطة في أغلب الحيان، لقد مدنا ذلك بقدرة الاعتماد على الذات، وشجعنا على الاجتهاد في إطار المعقول وحدود المتوافر من الإمكانات التي هي في معظمها إمكانات خاصة، وبالرغم مما تخلل تلك الحقبة من مصاعب وإشكالات، إلا أَنها كانت فعلاً مرحلة حية ومميزة سواء من حيث التفاعل مع الجماهير والناس، أو من حيث اكتساب التجربة والصبر وطول النفس والشجاعة، والجرأة على نقد الذات والآخرين، بدون خشية أو مواربه، وبدون طعن أو تجريح قصدنا بذلك التصحيح والتطوير، لأننا فعلا لم نكن نخشى على منصب أو مرتبة، وهذا ما أعطانا قوة شخصية إضافية لقوتنا الحقيقية في الأداء والإدارة.

ولا نذيع سراً أن قلنا وبصراحة إن بعضاً من المسؤولية في المواقع والقرى والمدن المجاورة المنافسة لنا كانوا يحاولون دائماً (دس السم في الدسم) ، بالإشارة إلى أن مدينتنا تمثل عقبة أمام تقدم سير الانتخابات للمرحلة الثانية والأخيرة، انتخابات لجنة الإقليم، إلا أن الحقيقة كانت عكس ذلك تماماً، رغم وجود بعض الإشكاليات الإجرائية والشكلية عندنا كما هو الحال في أغلب الدوائر التنظيمية الأخرى، لكن الحديث عنها كان يتم في سراديب العمل الدبلوماسي والتنظيمي ومن تحت الطاولة فيما المباشر في النقد كان يوجه إلى مدينتنا، انطلاقا من كونها تمثل ثقلا سكانياً وتنظيمياً، فقد كانت تمثل ثلث الإقليم بعدد مواقعها التنظيمية وأكثر من ثلث السكان في الإقليم نفسه وأكثر من ثلث القاعدة الجماهيرية تنظيماً على مستوى الإقليم كما إنها تمثل ما نسبته ١٥٪ من عدد سكان المحافظة بمجملها وهذا ما كان يثير الخشية لدى الكادر

في المناطق المنافسة، الذين كانوا يرون في مدينتنا ندا لهم وخصما عنيدا لا موطن تحالف كما هو الحال في المواقع الصغيرة، لا سيما أن كادرنا كان مميزا تنظيمياً واجتماعياً وإدارياً ومؤهلاً للمنافسة على قيادة الإقليم ولا نبالغ إن قلنا بأن مجموعة الأصدقاء الذين مثلوا لجنة موقع الشهيد كمال الصريع كانوا الأكثر نجاحاً وانسجاماً على صعيد الإقليم التنظيمي بأسره مع عدم تجاهل ادوار المواقع الأخرى على صعيد المدينة والاقليم، وهذه شهادة المسؤولين التنظيميين في الأقاليم ونعتز بها.

سار القوم بالمركب روادا أمناء، ومنهمكين في خدمة جماهيرهم ومناصريهم، سعوا لتقديم أفضل ما باستطاعتهم من خدمات لإثبات حضورهم الحركي والتنظيمي وعلى مدار بضع سنوات شاركوا فيها الناس همومهم وأفراحهم، وساندوا القطاعات كلها بدون استثناء بدءاً بقطاع الطلبة في الجامعات المحلية الذي هو بحاجه ماسة للتوجيه والإرشاد والاستقطاب والتأطير والمتابعة المستمرة، وكذلك متابعة الإشكاليات التنظيمية والاجتماعية الطارئة وإن لم يكن لنا تأثير مباشر وبالغ في حل إشكاليات اجتماعية معقدة ومستعصية، لأسباب منها ما هو خارج عن الارادة والقدرة، ومنها ما يقع تحت طائلة قصور بني البشر الذي يقع فيه كل الناس ومن هذا نرجو العفو من الله أولاً والصفح ممن له علينا واجب الوقوف معه وشعر أننا لم نفِ بالواجب ثانياً.

من واجبنا بل مطلوب منا أن نعمل بجد وإخلاص وبكل ما أوتينا من قوه، ولا نَحمل في ذلك أحداً منَّه أو جميلاً على ما قدرنا عليه الله من عمل، وما أملاه علينا الواجب والضمير واستدعته المسؤوليه الملقاة على كواهلنا أن نقوم به، وعلى الرغم من حساسية المرحلة فلم ننقطع خلالها من مواصلة أنشطتنا وأعمالنا الخاصة وكذلك لم نكن متفرغين للعمل التنظيمي ولربما كان

هذا سبباً في توزيع الجهد وتبذير الطاقات والحد من النتائج، سيما أننا لم نكن مفرغين مالياً أو تنظيمياً بقدر ما كان عملنا التنظيمي طوعياً ورمزياً، وهذا ربما كان وراء عدم وضع خطط مبرمجة، وبالتالي كان كل واحد منا يحرص على المحافظة على حضوره الاجتماعي والأسري بين أفراد أسرته وأبنائه وعائلته وعشيرته وأصدقائه ثم حضوره في مجال العمل المهني أو الوظيفي، والذي غالباً ما يتخلله تقديم الدور الخدماتي والإرشادي من خلال فهم تنظيمي، وهذا ما دعانا إلى تقسيم الأدوار فيما بيننا على هذا النحو وبهذه الخصوصية، كأن يكون شخص متفرغاً لمتابعة القطاع الطلابي، وأخر للعمل الاجتماعي أو المخيمات الصيفية وأخر للعلاقات الخارجية وهكذا شريطة أن نكمل ادوار بعضنا البعض دون ترك ثغرات قد ينجم عنها مخاطر صوب الحركة وإفرادها.

وتنساب بنا الحياة في معمعان التعارك والمنافسة والانخراط بأحداثها المتجدده باستمرار حيث احتوت المعقد والبسيط والمتوسط التعقيد والهين، فوجدنا فيها من يلتمس لنا الأعذار، ومن يُحمِّلنا فوق طاقاتنا ظنا أننا نمتلك الكون، وما ذلك إِلا للاختلاف والتفاوت في التفكير وعدم التقدير الجيد للمسؤولية وأعبائها ودور القائمين عليها وقدرتهم وإمكانيتهم على امتصاص أزمات العمل وتقلبات النفوس أو لضيق الأفق، ناهيك أن ذلك كله ينطلق من حاجة الناس للخدمة التي يطلبها من هو بحاجة ماسة إليها، فهو كالغريق الباحث عن قشة للنجاة، فإن لم تحققها له ليقينك بأنها لن تسعفه بشيء، فإنك بلا شك متهم بالتقصير ولا نستثني إننا قد تحدثنا عن مجال للمنافسة ضمن احتمالية وجود الحساد والطامحين والمنافسين الذين لا يرغبون لنا في تحقيق النجاح لأن ذلك سيكون على حساب أوقاتهم.

الفصل الرابع

رحلة صداقة

من المهد إلى اللحد

للأسير / خليل محمود يوسف أبو عرام

الفصل الرابع:

اعتدنا التأقلم مع تغيرات المناخات السريع والطارئة في منطقة تعج بالأحداث والصراعات السياسية وذات تقلبات مناخية متلاحقة لدرجة أننا نعيش فصول السنة الأربعة في اليوم الواحد خاصة في منطقة الصراع الأكثر تعقيداً ودموية ومركزية في الشرق الأوسط فمنذ مطلع القرن العشرين وحتى ألان ونحن نعيش حالة من التوتر والثورة والثورة والنضال المستمر، وإن تفاوت ذلك بين مد وجزر لأسباب خاصة بطبيعة الصراع والظروف المحيطة به، فالمنطقة بأسرها تعيش على فوهة بركان أو تشهد أجواءً قطبية وإن اختلفنا بين التعبيرين الثلج والبركان، فالاختلاف يكون في ارتفاع درجات الحرارة أو انخفاضها، فيما الواقع والتأثير لهما سيان، فحاله الجمود السياسي بلا شك لها محاذيرها، وإن سادها شبه الهدوء، فهو ما قبل العاصفة وحالة الغضب والغليان والرد على الغطرسة والتصعيد هي الوصف الطبيعي لحالة المقاومة ضد المحتل والمؤشر الحقيقي لصحة الظاهرة النضالية والوطنية ورفضها لواقع الاحتلال.

وأمام هذا الواقع المتقلب وطبيعة العدو العنصرية والرافضة لأي حل حقيقي، فإننا لم نتفاجأ لما ستؤول إليه الأوضاع خاصة وأن بشائرها كانت سابقة ودالة عليها، ويرى ذلك جلياً من الهبات الإعلامية التصعيدية، وما تخللها من تصريحات صريحة وواضحة لبعض القادة لا سيما بعد مماطلة حكومة الكيان الصهيوني وتلكؤها عن الايفاء بمتطلبات المرحلة الأخيرة والنهائية من مراحل اتفاقية السلام التي من المفروض دخولها حيز التطبيق الفعلي لعام ١٩٩٩ لقد كانت جل هذه المقدمات تمثل علامات على قرب حلول العاصفة أو الانفجار، وما نحن إلا بانتظار شرارة الصاعقة الأولى وبدء هزيم الرعد وَوَمْضِةِ البرق التي تعتبر صفارة الانطلاق القادم غير الواضح نتاجه. ففي

الوقت الذي لم نتفاجأ فيه بالمؤشرات إلا أن المفاجأة كانت بوصول الأوضاع إلى ما وصلت إليه وتسارع الأحداث بهذه الوتيرة المتلاحقة، وإلى هذا الحد من العنف والعنف المضاد، وما تحدثه الأمور من منحنيات خطيرة أدت إلى ما أدت أليه من ضعف السلطة الوطنية وبلوغها هذا الحد من الوهن والترهل، بأستشهاد قائدها ورمز الشعب وزعيمه الروحي، وصعود قوى جديدة في الانتخابات بهذا الحجم واستشهاد ثلة من قادة الفصائل والتنظيمات الفلسطينية السياسية من الصفين الأول والثاني عدا عن قادة العمل الميداني التنظيمي والعسكري، إضافة لآلاف الجرحى والشهداء، والزج بعشرات الالاف من المناضلين في السجون، وتدمير مراكز السلطة واجتياح المناطق واستباحتها، ومحاولة إجهاض السلطة ودورها خاصة بعد تلك الأزمة التي عصفت بالولايات المتحدة الأمريكية في الحادي عشر من أيلول عام ٢٠٠٠ وما أحدثته من ترددات أثّرت بصداها على قضيتنا، وكذلك حرب العراق الثانية، وما تلاها من فرض مصطلح محاربة الإرهاب، ناهيك عن فوز حكومة يمينية متطرفه يتزعمها السفاح شارون وغيرها من الأحداث التي كان لها أيضا تأثيرات وإن كان ذلك بدرجات متباينة.

لا نجد غرابة بسرعة قدوم تلك الأعراض المقروءة أصلا، فحكومة ايهود باراك آنذاك لم تكن معنية وليس عندها الجاهزية أو الرغبة المطلوبة، لتقديم متطلبات المرحلة النهائية، كالانسحاب من الأراضي الفلسطينية المحتلة عام ١٩٦٧ بهذه السهولة؛ ولذلك لابّد من البحث عن قارب نجاه يجنيه هذا الاستحقاق، وهذا الكابوس السياسي؟ الذي سيبقى ملاحقاً له في حياته ومماته، وبالتالي ما كان منه إلا الاستجابة بإعطاء الضوء الأخضر ويسمح للمجرم شارون بتدنيس عتبات المسجد الأقصى المبارك الأمر الذي فجر الوضع من جديد ولتبدأ مرحلة أخرى من الصراع الشعبي والدموي، الذي لم يتوقف أصلاً، ولكنه خَفت قليلاً لإعطاء فرصة للسلام، ثم عاد بعزم ووتيرة أقوى وأشد.

وقد يأتي من يقول وهل كانت هذه الزيارة تستحق هذا العناء؟ وهذه المعركة؟ أم أن هناك مقاصد أخرى هي ما جرتنا وحدت بنا إلى الوصول إلى هذا المربع؟! محق من يسأل ومحق من يجيب بالإيجاب، وكذلك من يجيب بالسلب وهذه فلسفة خاصة بنا نقولها؛ لأننا كما أسلفنا نختلف في وجهات النظر وفي الأفكار ولسنا قالباً واحداً، هذا في الوضع الطبيعي، فكيف إذا كان الأمر أكثر تعقيداً مما نتصور، حيث هناك معادلة التنافس بين التنظيمات التي تنضوي في إطار منظمة التحرير وأخرى خارجها، وكذلك المنافسة حتى بين تنظيمات هذه المنظمة فمنها المؤيد ومنها المعارض، وكذلك المعارض شكلاً المتفق جوهراً؟! ناهيك عن أن التنظيم الأساسي حركة فتح تحمل وجهتي نظر من هذه الاتفاقية "اتفاقية إعلان المبادئ – أوسلو" حتى وإن كانت انجازاً وثمرة نضال طويل توَّج انتفاضة الحجارة، لكنها أيضاً لم تلبِّ الطموح باستحقاقاتها وانجازاتها وهذا ما لا يختلف عليه اثنان، إضافة لهذا كله لا ننسى أن الاحتلال نفسه غير راضٍ عنها وهو الكيان ذاته الذي اغتال زعيمه ورئيس حكومته إسحاق رابيين على خلفية توقيع هذه الاتفاقية عام ١٩٩٥.

ولا نريد الولوج إلى دوامة الاختلاف حول الأسباب والمسببات؛ لأنها ليست هي مجال التركيز وموضوع الاهتمام الذي نسعى إليه، مع أننا دوماً لا نستطيع سلخ أنفسنا وفصلها عن الواقع وأحداثه، وبالتالي فالإشارات تأتي للتذكير بتساوق الأحداث وتتابعها.

وتتلاحق الأحداث وبسرعة غير مسبوقه لا في سيرها ولا في آليات السير، حيث انتقلت الهبات الجماهيرية العارمة لتعم شوارع ومداخل الوطن وقراه ومجتمعاته، من شماله إلى جنوبه ومن شرقه إلى غربة، وفي الضفة والقطاع بلا انفصال بين شطري الوطن فالكل في السفينة ذاتها، كالجسد الواحد وتبدأ موجات العنف والرد المضاد على هذا العنف والغطرسة، وبالرغم من أنها بدأت

كهبات جماهيرية وشعبية وانتفاضية سلمية، إلا أنها سرعان ما تطورت لتتحول هذه الأنشطة والفعاليات إلى انتفاضة مسلحة، واتخذت منحى أخر ومختلفاً في تاريخ القضية، إذا لم يسبق منذ احتلال فلسطين عام ١٩٤٨ وبعد تلك المعارك التي دارت آنذاك وغيرها من المعارك وبعد حرب الأيام الستة ١٩٦٧ أن تواجه الفلسطيني والصهيوني بالسلاح وبهذه الغزارة من النيران في حرب شعبية جماهرية بهذا الشكل على ارض الوطن الفلسطيني.

إذن نستطيع القول إن الانتفاضة هي فكرة وصناعة فتحاوية، وشرارتها انطلقت مع تلك الزيارة الشارونية المستهترة بحجم الضغط والكبت الذي يعيشه ابناء شعبنا بأسره، جراء ممارسات الاحتلال وإجراءاته التي لم تراعِ المتغيرات السياسية التي اعقبت توقيع اتفاقية السلام، وحجم الاعباء والضغوطات التي كانت السلطة تتحملها للموازنة في المحافظة على حياة الشعب وادارة شؤونه من جهة وعلى اتفاقية سلام لا ترغب أوسلو ومجرى المفاوضات، وبالذات من حركة فتح والذين أطلقوا على أنفسهم بفتح البندقية والمبدأ واتهموا الاخرين بفتح أوسلو أو المتوازرين، وبالتالي جاءت الاحداث بهذا الشكل الذي يطمع إليه أصحاب المبدأ والبندقية الذين لم يتوانوا في ركوب الموجه والشروع بالمواجهة مع قوات الاحتلال وسلوك نهج المقاومة التي بدأت شعبية وسلمية في بدايتها حيث أداروا الأمور من قريب ومن بعيد فيما الغير كان يتحين الفرصة لركوب موجات البحر الجماهيري الهادر واستغلالها تماماً لصالحه كالعادة.

لسنا هنا بصدد الإبحار والحديث عن الانتفاضة وآليات التطور التي أخذت الارتقاء لتطوير الأحداث وموجات العنف التي تقوم بها إدارات الاحتلال وحكوماته المتتالية، وجنده في الميدان، الذين لم يقرأوا عنوان المكتوب جيداً بل في مستنقع الحرب الشعبية التي يصعب كسرها، أو تحقيق نصر فيها، وإنما نحن هنا بصدد الطريقة التي ركبنا فيها موجة النضال أسوة بكل مجموعات

المقاومة في الوطن، ولبسنا ثوب النضال ثانية والذي هو بلا شك ثوبنا وليس غريباً علينا.

لا شك في أن تواجدنا كأصدقاء في الجامعات وفي أماكن عملنا ووظائفنا المختلفة يعني التواصل مع الجماهير والناس، فنحن بحق جنود الميدان اجتماعيون، وسياسيون، وطلبة، ففي كل الزوايا والحقول والميادين تجد لنا حضوراً وبصمة، لكن الأحداث تتلاحق والكل يتطلع لشباب التنظيم الذين اُنتخبوا قبل بضع سنوات، ماذا سيعملون؟! وماذا سيكون دورهم في هذه الأحداث؟ فالأقصى يُدنس بأقدام شارون، وهناك سلطتنا الوطنية تواصل مفاوضتها مع حكومة الاحتلال، وهناك حالة غليان جماهيري وشعبي داخل الجامعات وفي الشارع الفلسطيني عموماً، وهناك من يدفع نحو التصعيد، ومن يميل للتهدئة ومن يدعو للعقلانية، وهناك قطعان المستوطنين الذين يصبون الزيت على النار، فيبطشون، ويضربون، ويخربون الحقول، حالة الحيرة تسيطر على هؤلاء الإخوة، ماذا سيفعلون؟! وما هو الموقف الواجب اتخاذه فليس هم صناع القرار سياسياً أو نضالياً، فهناك من يعلوهم رتبة، لا بل هناك القائد الرمز قائد ثورة الجماهير والقائد الأعلى لقوات العاصفة، الذي كان يحاول المحافظة على مسافة متساوية بين العمل السياسي والتوجه نحو المقاومة، فهل يتمردون على القرار؟!

الأرفع رتباً تنظيماً وعسكرياً يمسكون العصا من وسطها، فهم مع السلطة عساكر وضباط، كيف لا؟! وهي من ترفع لهم رواتبهم ومستحقات وظائفهم، وبها يتدرجون في السلم الوظيفي وعند التنظيم هم المسئولون والقادة ويعود لهم القرار، فهذا المزج الوظيفي لم يكن ولم يأت من فراغ، باعتقادنا بل من خلال ما لمسناه نجد أنه نتاج سياسة مقصودة ومدروسة جيداً، وإن جاءت تتويجاً لمرحلة تنظيمية تتخللها السير خلف الطموحات الفردية في ظل غياب حقيقي لدور المؤسسة التنظيمية وما سينجم عنها من عجز تنظيمي داخلي ترددت

الحركة في معالجته أولا بأول. كما أدى إلى تراكم الأخطاء الإدارية والتنظيمية وتأجيلها، لذا جاءت هذه السياسة كخطوة ذكية من القائد الرمز بهذا الاتجاه، وبخاصة أنه كان يدرك أن هناك معارضة تنظيمية داخلية من التنظيم المحوري الرئيس نفسه في منظمة التحرير لاتفاقية أوسلو، فكيف له الخروج من هذا المأزق بدون خسائر على صعيد الحركة، وهو من يتقن بل يجيد اللعب على التناقضات والأزمات، ويتفنن في السير وسط حقول الألغام، وهذا ما يعرفه عنه الجميع، فهل يترك الأمر للصدفة أو القدر ليخلصه؟ حتماً لا.

إذاً فهمْ مع السلطة ومع المفاوضات إذا وُجِّهت لهم الأوامر بهذا الاتجاه من جهة، وهم مع الحالة النضالية ضد الاحتلال من جهة أخرى، فهم يجيدون الرقص على الحبال، ولكن ما دورنا نحن كمجموعة أصدقاء؟ وأين موقعنا ومكانتنا من كل ذلك؟ نحن بدون شك كبالع مدية إذا حاولنا إخراجها قطعت، وإذا حاولنا بلعها لا نستطيع لأنها أيضاً سَتُقطع، نحن بين خيارين أحلاهما مرّ وحالنا لا يَسر صديقاً. حقيقة لم نمر بهذه التجربة من ذي قبل، ففي الانتفاضة الأولى كانت الأمور مختلفة بشكل تام، حيث كان النضال غاية وهدفاً، والكل يدعو لركوب الموجة، فيما الآن الأمر مختلف، وأي قرار خاطئ قد يحملنا المسؤولية، وقد نُتّهم بتقويض جهود السلام، فنحن في حيرة من أمرنا، وهذا يعني القصور والتهرب أمام جماهيرنا، ويعني أيضاً التخلّي عن المقاومة، والنكوص أمام المشككين والمزايدين، والتأكيد بأن إلغاء منظمة التحرير لبعض بنود ميثاقها الوطني يعني تخلي الحركة وأعضائها عن النضال وعن نهج المقاومة كأسلوب لتحرير فلسطين، وهذا يعني أننا أصبحنا لا نختلف عن غيرنا من الباحثين عن الذات في الحركة، وذلك بقبولنا الانتخابات، كونها مرحلة حصار وطني، وأن دورنا بات ينحصر في خدمة الجماهير اجتماعياً والقيام بأدوار خدماتية لا أكثر، وهذا لا يحتاج لتفكير كثير، إذ إنَّ المتنافسون كُثر من داخل البيت وخارجه على حد سواء، فهناك التنظيمات الإسلامية والوطنية، والكل يزايد على الكل، ويدعي صوابية رأيه، ولا أحد يدري أين طريق النجاة؟ ولو علمنا الغيب لاخترنا الواقع.

يجتمع الأصدقاء في جلسة تشاور وحوار وتقويم جاد، الكل يبدي ما في جعبته من أفكار وتصورات ومقترحات، ويطرح وجهة نظره منها، يسود الجلسة الصوت المرتفع والجدية في النقاش ثم المقاطعة، المستمعون يتخيلون بأن شجاراً يدور بين الأصدقاء، لا حدود ولا ضوابط للحوار ولا مدير للجلسة، ولا جدول أعمال، ترفع الجلسة، ثم يخرج الجميع، ويذهب كل في طريق ثم يدُعون للجلسة الثانية الثالثة، ويترقبون الأحداث، فهم على تماس بالشارع والناس تكن لهم الاحترام، ولكن ينتظرون منهم فعلاً وموقفاً لا قولاً، فحان وقت الزرع وتقويم الأداء، ووضع الأمور في نصابها وعلى المحك العملي، فهل ينجح أصدقاؤنا في اجتياز الامتحان وضبط الإيقاع وفرض الحضور، وهل يتمكنون من أخذ موقف سليم وجريء، وأي المواقف يعد سليماً، اهو الذي يرضي الجماهير ويدغدغ عواطفها، ويغضب المستوزرين والراقصين على الحبال؟"! أم العكس هو الصحيح؟! هل الانخراط في صف المقاومة وترك الأحداث لتأخذ مجراها بغض النظر عما ستؤول إليه النتائج؟! أم التريث وعدم الاكتراث بموقف الجماهير التي لا زالت تقدر لهم الدور النضالي وتنظر إليهم بالاحترام؟"! أم القفز إلى ملعب الراقصين على الحبال، والرقص على الحبلين ومسك العصا من وسطها تماماً كما هو حال الآخرين، وليقتدوا بهم معللين ذلك بالدبلوماسية والتغريد في السرب.

بالطبع لا نتحدث عن أشخاص ذوي مركز سلطوي أو تنظيمي رفيع المستوى، بل عن كوادر وقادة ميدان ناشئين، وهذا يعني أن الأنظار تتجه صوبهم، كما أن بعدهم عن الجماهير وعن الأحداث يعني قتلهم تنظيماً، تماماً كما هو الحال مع الأسماك عند إخراجها من الماء، فهم ما زالوا يبنون مستقبلهم خطوة خطوة، فهل يضحون بهذا المستقبل والالتفات لحياتهم الأسرية أم العكس؟! كما أننا لا نستذكر أشباه رجال ركبوا موجة المسؤولية لغياب الرجال؟؟ ولا يدور الحديث عن وصوليين تسلقوا على أكتاف غيرهم؟؟ بل عن رجال تسلحوا الرجولة باكراً

وجاءوا لهذه المواقع بالتزامهم وانضباطهم وصدق انتمائهم وأفعالهم، كما أن حديثنا لا يأتي عن أشخاص بلا إحساس أو تفكير أو جهلة، فهم يقرأون المشهد السياسي وطبيعة الصراع جيداً، وشبوا على حب وطنهم فطرياً، وعلموا أن الثورة عطاء وتضحية وفداء واختاروها عن طيب خاطر، أدركوا أَن الشهداء هم الصفوة المصطفاة والإرث النضالي الذي لا بد من الحفاظ عليه والسير على خطاهم ووهج سيرتهم والاهتداء بهديهم، فعليهم تقع المسؤولية وأمانة عظيمة، والأهم من كل هذا أنهم التقوا منذ الصبا، وتعاهدوا على السير في هذا الطريق بغض النظر عما سيواجههم من مصاعب وأَخطار، مؤمنين بأن عظيم الغاية يهون الألم والمصاب، أما أن نعيم الدنيا وزخرفها البراق قد غير من فكرهم وطريقة تفكيرهم، ورغد العيش قد طاب لهم أن كان ذلك ما حدث لهم؟؟ فما هو الفرق بينهم وبين الآخرين؟! ولماذا لم يرفضوا خوض الانتخابات؟! وليتركوها لمن هم أجدر وأقدر على حمل الأمانة أم اعتبروا أن تلك المرحلة كانت لحظة قطف ثمار وغاب فيها الضمير؟؟ أسئلة كثيرة يمكن أن تراود الأذهان، وقد تجد لها إجابة، وقد تقنع البعض بعضاً من الوقت؟؟ لكن "إرضاء الناس غاية لا تدرك".

بلا ادنى شك فإن الارتباك هو سيد الموقف في هذه الأوضاع، فالصراع بين المبادئ والقيم والنخوة من جهة، وبين الشعور بالمسؤولية وعدم الزج بالناس في أتون انتفاضة لا يعلم نتائجها إلا الله، وبين الخوف من القدر وما يخفيه لهم المجهول رغم إيمانهم بما هو حال بهم خيراً أو شراً، وبين خشية الاتهام بتقويض الأمن والإخلال به، فقد كانت الأحاديث كثيرة، والمبررات أكثر، لكن لا بّد من موقف شجاع وجريء، فهذا الشيء الذي يلقى الإجماع، فشارون قد دخل الأَقصى وخرج، فما المشكلة في ذلك؟! وهل هناك فرق بين دخول شارون أو غيره من اليهود الذين يدخلون صباح مساء؟ وبشكل يومي، أو حتى بين الجنود المدججين بالسلاح الذين يجوبون باحات المسجد وهم يطاردون الشبان الفلسطينيين، وحتى لو دخلوا في أي زاوية لحقوا بهم، إذا كان الأمر يتعلق بعدم

خلع حذائه؟! فهذه المشكلة يمكن حلها في المرات القادمة حتى وإن حصل ذلك هذه المّرة؟! ألم يكن من واجب المصلين تنبيهه كي يخلع حذاءه؟! فهو يعلم أن يدخل الكنيس اليهودي بالحذاء، لا فالأمر ليس بهذه الباسطة؟! بل اكبر من ذلك وأبعد! فهذا شارون!! لن يقدم على هذه الفعلة بمحض صدفة، أو عن غباء أو سذاجة؟! بل عن حكمة كاملة ودهاء ووعي وتخطيط مسبق، فهو يريد استفزاز مشاعر الأمتين العربية والإسلامية على حد سواء لكي يرى ما هي ردة الفعل والجاهزية لديهم؟! فيما لو أقدموا على هدم الأقصى، أو فيما لو انهار المسجد أثناء الحفريات الجارية من تحته، وحتى دخوله ألم يكن حرق الأقصى عام ١٩٦٩ أخطر؟ فلماذا إذا ردَّة الفعل بهذا الحجم؟ بالله عليكم كفوا عن هذا التفكير وهذه الأساطير والخرافات؟! فكل يهود العالم لا يتجاوز عددهم خمسة عشر مليون يهودي، والمسلمون أمة المليار والربع مليار.. ؟ أجننتم وأنتم تفكرون بهذا الأسلوب السطحي؟! حتى لو كان هذا هو الاعتقاد الصحيح والافتراض الحقيقي الذي جال في خلده، فهو يعرف ردة الفعل مسبقاً،

منذ عام ١٩٦٩م وبعد حرق الأقصى وكذلك بعد مجزرة الحرم الإبراهيمي في الخليل بتاريخ ٢٥/ ٢/ ١٩٩٤م حتى لو أعاد الكرة وللتأكد مما سيحدث فبدلاً من الزيارة كان بإمكانه أن يرسل أحد مستوطنيه!! إلى أحد المساجد أو الأسواق المزدحمة، أو... الخ، ويرتكب مجزرة؟! أو حتى داخل الأقصى نفسه، وبهذا يحقق الغاية وإذا ما شعر بأن هناك فعلاً إحساس ومشاعر غضب من المسلمين!! فمن السهل عليه التنصل من كل ذلك ولربما كي لا يسجل تاريخه التسبب في انتفاضة دامية؟! لا زالت في أول طريقها فقط لأجل زيارة، إلا أذا وصل لنتيجة أن الدماء لا تحرك مشاعر العرب والمسلمين!! ولا بّد من الانتقال للمقدسات والمساس بها وتدنيسها، وهذا هو التفكير الساذج بعينه؟! فشارون لا يهمة ماذا سيكتب التاريخ عنه، سفاح.. مجرم.. دموي.. ؟! ما يهمه فقط أن لا يكتب عنه انه

تنازل عما يسمى بحلم دولة إسرائيل.. أو تقسيم العاصمة الأبدية لهذا الحلم "القدس"، هذا هو الخط الأحمر أمامه، إضافة إلى أنه ينوي المنافسة على رئاسة الوزراء والدم الفلسطيني هو خير دعاية أو أجود زيت لإسراج قناديل وصولهم لذلك الكرسي، إذاً لماذا لا يريق المزيد من هذه الدماء كي ينيبر دربه نحو رئاسة الحكومة القادمة، ويجعل من هذه الدماء نبراس هداية للناخب الصهيوني.

الأحداث تتسارع ويزداد عنفوانها ويتصاعد تعداد الإصابات ويرتفع عدد الشهداء والجماهير تخرج للشارع، وأصدقاؤنا يذهبون مع جماهيرهم لحظات المواجهة، يرقبون الوضع عن كثب وعن قرب يشاركونهم الحالة النضالية بحياء وبلا موقف واضح، تبدأ حالات الاستعدادية لديهم، لكنها ليست بقرار أو موقف، فكل شيء يأتي بعفوية تامة وبدون تخطيط، يحاولون مدّ جسور ثقة بين الجماهير الغاضبة والحاقدة على المحتل، وبين مقرات السلطة وأفراد العساكر المتواجدين فيها داخل المدينة علّهم يستطيعون قراءة الموقف بشكل أكثر وضوحاً، وذلك كي يعرفوا قرار السلطة الأخير والنوايا الحقيقية للقيادة الفلسطينية العليا، التي هي المسؤول الأول والأخير عن أخوتنا، فهم لا يريدوا الذهاب مع رغبة الجماهير العاطفية، ويندمون على قرار قد يكون خاطئا، إذاً لا بدّ من استخدام العقل والمنطق والمزج بين مجمل الأفكار والمواقف التي استَشَفّوها من قبل الأطراف كافة على الساحة الفلسطينية، الحالة التنظيمية الداخلية.. السلطة الوطنية وأجهزتها.. الجماهير ورغباتها... الموقف التنظيمي للقوى الشريكة.. ، لهذا فلا مندوحة من قراءة هذه المواقف كلها بشكل دقيق، وأخذ قرار مسؤول وحاسم.

يمر الأسبوع تلو الآخر، ولكن الأحداث تشتد ضراوتها ويحمي وطيسها، والقائد الرمز يصرخ أننا ذاهبون للقدس شهداء بالملايين، فكيف سنذهب للقدس؟ فهل سنذهب مع الأجهزة الامنية المنقسمة على ذاتها في حينه؟! فكل جهاز يتبع

المسؤول ويمثل إِقطاعية خاصة، أم مع مسؤولي التنظيم الذين التحقوا بالسلطة ويمثلوا التنظيم بالمراسلة؟! أم مع الجماهير المضللة برأيها الذي اختلط فيه الحابل بالنابل في ظل تعدد مشارب استقاء القرار، فالأمر محير!! التنظيمات الإسلامية تتلكأ وتترقب الأحداث وتقيس الأمور من زاويتها، فهي التي كانت منذ قدوم السلطة، قد ركبت موجه النضال لأنها ترفض أوسلو وتكيل الاتهامات لحركة فتح "بأنها تخلت عن المقاومة"، بعد شطب بنود الميثاق الوطني الفلسطيني الذي يدعوا لمقاومة المحتل، وحينما حان دور المقاومة نجدهم قد توقفوا؟! فلا ندري ما هي الغاية من هذا التوقف؟! وإن برروا ذلك بموقف الخشية من لعبة جديدة وخدعة عسكرية وشرك من السلطة عنوانه الانتفاضة للالتفاف عليهم والتخلص منهم، لكن هذا لا يعدو كونه عذراً اقبح من ذنب، فكيف يكون ذلك؟! فهم لم يخشوا السلطة؟ منذ عام ١٩٩٣ وحتى العام ٢٠٠٠ أي قبيل اندلاع انتفاضة الأقصى، حيث كانت موجة عملياتهم في أوجها، وإن ادّعوا أنها كانت رداً على مجزرة الحرم، لكن لماذا لم يكن لهم نصيب منها في انتفاضة النفق عام ١٩٩٧ وكذلك في الأشهر الستة الأولى من عمر الانتفاضة أم أن هناك هدفاً واضحاً ومباشراً وأهدافاً مستورة وغير مباشرة؟!

وتنقشع الغيوم وتصفو السماء وتنجلي الصورة شيئا ما، وتتبلور المواقف الأولية المسترشدة بتصريحات القائد الرمز وخطاباته، وتشرع لجان المواقع بالقيام ببعض المبادرات الايجابية وذات الإيحاءات الصحيحة التي من شأنها تلطيف الأجواء والحفاظ على شعرة معاويه، حيث يتم الإعلان عن فتح دورات إسعاف أولي لمجموعة من الشبان تحت إشراف جمعية الهلال الأحمر الفلسطيني وأخوة متطوعين فيها، وذلك لتأهيل طواقم مساعدة لنقل المصابين في ساحات المواجهة اليومية، فمن الجدير بنا عدم ترك المصابين بالغاز أو الرصاص المطاطي الذي كان يُستعمل بكثرة مع بدء اندلاع هذه الانتفاضة في الميدان، والأهم من ذلك هو طريقة حمل ونقل المصاب فلا بّد أن تكون طريقة سليمة كي

لا نزيد من تأثير الإصابة أو نتسبب بأضرار نحن في غنى عنها لإخواننا وأبناء شعبنا المناضلين، لكن من الواجب أن تكون هناك خطوات أكثر وضوحا وشجاعة وجرأة، ولا ندعي أن هذه الخطوات كانت تأتي كقرارات عليا وإنما هي استخراج واستقراء لحالة سياسية وتنظيمية عامة واجتهادات داخل لجان المواقع تنتقل مع عدوى المنافسة من منطقة إلى أخرى، ثم تتلو ذلك خطوة أخرى تقتضي تشكيل وتفعيل دوريات المناوبة التنظيمية الليلية والسهر داخل المدينة وعلى مداخلها كمسانده لدوريات السلطة الوطنية التي لا تكفي أصلا من حيث العدد والعدة ولا تفي بمتطلبات المدينة، وقد أصبح الحضور التنظيمي يفرض ذاته فعلياً ليلاً ونهاراً، وبات الناس شبه راضين عن دور اللجان التنظيمية على الأقل في هذه المرحلة.

وراء كل خطوة وأخرى يجلس إخواننا جلسات تقويم لأدائهم ويستمعون لأراء الشارع فيتدارسونها، وإن كانوا يسيرون خلف العواطف الجياشة أحياناً، فحالهم حال جماهيرهم الثائرة، لا سيما في حال ارتكاب قوات الاحتلال المجازر بحق ابناء شعبنا، فالدم واحد ولن يصبح ماءً مهما حاولوا التخفيف من المصاب، والجريمة واحدة بصرف النظر عمَّن ارتكبها سواءً كان جنديا أم مستوطناً، مريضاً نفسياً أو بكامل قواه العقلية والجسدية، فكلهم ((أمام القضاء مرضى ومجانين)) ، لآن القاضي والشرطي هما الصورة طبق الأصل، فهم جاءوا جميعاً لأرضنا بلا حق لهم، وبلا رغبة منّا، احتلوا الأرض واستباحوا المقدسات ونهبوا الخيرات، ولكن هل يكتفي فرساننا يتوقفون عند هذا القدر من العطاء أم يتراجعون ليعطوا الدور لغيرهم؟! وإِنْ سلموا الراية للغير، فماذا سيكون دورهم؟ هل يتخلفون ويسلمون الأمر في هذه المرحلة الحاسمة أم أنهم سيصطفون أمام الجماهير ويصبح حالهم كحالها وهي تتطلع لمن يعلق لها الجرس ويشفي غليلها وينقذها من خطر داهم.

كل ذلك حدث وأكثر لأننا حافظنا على خيط التواصل دون تخبط، وإن كانت الخشية والريبة من الفشل هما الهاجس الذي يعنون تفكيرنا وحساباتنا لتلك المرحلة، إلا أن استمرارنا وثباتنا يسجل لنا كنجاح، وبالرغم من عدم اكتفائنا بما قدمناه، فقد شرعنا بخطوات ومبادرات واجتهادات جديدة هدفها تطوير آليات العمل وتفعيلها، من بينها على سبيل المثال للحصر التفكير بترتيب ورديات المناوبة والسهر وآليات تحركها وإمكانية تسليحها ببعض الأسلحة الخفيفة، إذا لا بدّ من مناقشة هذا الموضوع بشكل جدي وموضوعي، ولكن كيف سنحمل أسلحة؟! وهناك سلطة شرعية وهي المخولة بالحراسة والمناوبة وحماية البلد، وهل ستطلع السلطة على سلاحنا؟! أم سيبقى ذلك في إطار السرية والتستر وطي الكتمان؟! وماذا سيكون موقف السلطة الرافض أصلاً لعسكرة الإنتفاضة؟! فهل ستقوم باعتقال من يحمل السلاح بدون أذنها، مهما كان أمر حامله وأيا كان، ومصادرة سلاحه هل فعلاً الفصائل الإسلامية، وبخاصة حماس تنتظر هذه اللحظة، لمعرفة ما سيرسو عليه الحال على الأقل بهذا الشأن ((أي حمل السلاح والعسكرة به)) أم أن لديها حسابات أخرى خاصة بها؟! من أين سيأتي بالسلاح؟ وكيف؟ . ومتى؟ وفيمَ سيستخدم؟ هل سيستخدم في المقاومة؟! أم فقط سيحمل من باب الحيطة والبرستيج، وبخاصة أن الحديث ما يزال عن انتفاضة شعبية في شكلها، ((انتفاضة حجارة وتظاهرات سليمة)) .

جدير بنا الإشارة إلى الفهم العام حول سرية سلاح المقاومة وعدم الاستعراض به؛ لأنه أيضا وبعد قدوم السلطة الوطنية وانتشارها في مدننا وقرانا ساد اعتقاد لدى المناضلين وأبناء الشعب، أن من حق الشرفاء والمناضلين إسناد السلطة والوقوف بجانبها في الأزمات وفي مرحلة بناء أجهزتها الأمنية، وعملية الإسناد هذه تستدعي أحيانا من كان يحمل سلاحاً شخصياً أن يبرز سلاحه، خاصة وأن الحديث عن سلطة ما زالت في طور الإنشاء وعديدها وعتادها لا يغطيان مستلزمات حماية البلدات والمدن التي انتشرت بها، لا بل لا يمكنها

تلبية متطلبات التدخل الأمني داخل تلك المدن والقرى، وبالتالي استندت على مناضلي ومواطني البلدات الذين تعاطفوا مع أفراد السلطة ورغم غياب الثقة المطلقة لدى بعض المواطنين الذين يملكون سلاحاً شخصياً ولأسباب كثيرة، ومعرفة في مجتمعنا الفلسطيني ذي الطابع العشائري، بين بعض أفراد الأجهزة الأمنية الذين انتهزوا فرصة ظهور السلاح لتحديد كمياته وأماكن تواجده انطلاقاً من طبيعة التربية الأمنية والاحترازية التي يتلقونها.

طرح الأمر للنقاش، واتخذوا قراراً بذلك، وتبدأ حالات نقل السلاح بشكل فردي، لكنه سلاح شخصي وغيرموحد، ومما يجود به الحال وبنوعية خجولة حيث كلما نقلنا السلاح سرعان ما نخفيه لسببين، الأول هو إجراء حاله استخراج وفحص للظاهرة أمام الرأي العام من جهة والسلطة الوطنية من جهة أخرى، وثانياً لأننا لم نعتد نقل السلاح بالعلن وتعتبر أن هناك خصوصية لهذا السلاح ورغم انه شخصياً، إلا أنه منعوت بالمقاومة وبالتالي فهو ليس للاستعراض، هذا ناهيك على أننا أردنا تثبيت موقف متفق عليه ولو ضمنياً مع السلطة الوطنية لتجنب التصادم والوقوع في إشكالات نحن في غنى عنها في حال حدوث عمل أو تم متابعة بعض الخلايا المسلحة أثناء تجوالها في ورديات المناوبة أو في أي مهمة خاصة.

بين التعقل والتهور، والارتباك والخشية، والحياء من الظهور بمظهر العساكر والجرأة على كسر حاجر الخجل؛ ومواقف الأجهزة الأمنية غير الواضحة لنا بالأصل فهم بحاجة لنا ولكل مواطن شريف كسند وحصن تماماً كما نحن بحاجة لهم كحامٍ وساهر على الأمن.. وبين الضرورة لحمل السلاح في العلن أو الاستغناء عنهٍ بسبب الافتقار إليه، مرت بضعة أسابيع على سير الانتفاضة الشعبية الأخذة بالالتحام والتحدي للمحتل والمتصاعدة بوتائر المقاومة والمواجهة اليومية، أعداد المصابين تتلاحق وتزداد، ودور فرساننا لا يتعدَّى

عن موقف المتابعة والتضامن والمؤازرة الوجدانية والإشراف من بعيد ومشاركة الناس رأيهم وأفكارهم إضافة إلى ورديات المناوبة والسهر الليلي التي يقومون بها، هذا إضافة للإشراف على بعض الدورات التنظيمية ودوريات الإسعاف الأولي التي قمنا بعقدها تحت إشراف كادر الهلال الأحمر وأيام العمل الطبي المجاني التي تمت بإشراف الكوادر الطبية من أطباء وصيادلة أبناء المدينة وأصدقائهم العاملين فيها آنذاك الذين لم يبخلوا على بلدهم لا بالجهد ولا بالأدوية التي جادت بها صيدلياتهم، ويبقى هؤلاء جنوداً مجهولين بعظيم أفعالهم. وكما أسلفنا فالتطورات في هذا المجال "العسكرة" تأتي عفوية، وبلا سابق إنذار، وبلا تخطيط مسبق، وهذا هو الشيء الجميل في مثل هذه المواقف، فالأمور تفرض نفسها فرضاً، وإن كانت تحمل في طياتها المجازفة والمخاطرة لكنها فعلاً تجنبنا خطر التفكير الطويل الذي قد يوصلنا إلى مرحلة الجبن والتراجع أو الاختلاف في بعض الأحيان. تطور جريء وغير مسبوق يكسر حاجز الرهبة ويزيل الجليد، بالرغم من علامات الاستفهام التي أحاطت في البداية وكثرة التساؤلات التي ترددت، لا سيما أنه قد جاء بعد حدث مماثل حدث قبل ذلك بأيام حينما قام و. أ. س بإطلاق طلقة من بندقية صيد مصنوعة محلياً من وسط الجماهير ولاحقاً تبين أنه مرتبط مع مخابرات العدو، بعد إلقاء القبض عليه في أحدى محافظات الوطن بتهمة المشاركة في تصفية أحد قيادات الانتفاضة، وصدر بحقه حكم بالسجن ١٥ عاما، ولذلك فإن التطور اللاحق أخذ بالحسبان هذه الفرضية في البداية وتم التحري والتمحيص لاحقاً ثم تبنى الحادث، الذي تمثل بقيام أحد الأخوة بإطلاق بضع طلقات من بندقية أوتوماتيكية أثناء هبّة جماهيريه، الأمر الذي أثار التخوف من تعرض الجماهير لردة فعل حمقاء من قبل جنود الاحتلال بسبب هذه الفعلة التي بدا الاستياء منها جلياً وتم التحقيق في الموضوع، وتدخلت السلطة محاولة مصادرة قطعة السلاح، لكن بعد اتضاح الصورة واحتضان المناضل الذي أطلق النار بنوبة عاطفية وتبين أنه يعمل في

أحد الأجهزة الأمنية، حيث نقل بعدها إلى محافظة أخرى لتغطية الحدث أمنيا وخشية عليه، إلا أننا نعتبر أن هذا الحادث تسجيل لأول عملية إطلاق نار على صعيد المدينة باتجاه قوات الاحتلال في هذه الانتفاضة.

وللحقيقة نقول أن هذه الطلقات وبالرغم مما أحدثته، من ارتباك واستياء في بعض المواقف وبما إثارته من مخاوف وتساؤلات إلا أنها كسرت حاجز الصمت والرهبة، وبالتالي بات الناس يدركون أن هناك سلاحاً يمكن إن يصوب ضد العدو في لحظة ما هذا من ناحية فيما بات نوع من الجرأة للتحرك وفرض موقف واضح على أفراد الأجهزة الأمنية بأننا قد نلجأ لحمل السلاح والظهور بالعلن وربما لاستخدامه، ولا بدّ من حمايته وغض البصر والاعتياد على هذا الواقع الجديد، مع تأكيدنا على انه لا يمثل بدلا للسلطة ولا بأي شكل من الإشكال، وفرضنا القاطع لأن يكون استعراضياً وقاطع طريق ولغرض البلطجة.

بدأت الأفكار تجول وتعصف في أذهان أبناء التنظيم داخل المواقع، الذي بات أفراده يتهيأون ويتأقلمون مع الوضع الجديد والبحث عن آليات مقبولة ومرنة لترسيخه على الأرض بطريقة سلسة وهادئة بعيداً عن خلق التوترات، حيث جال في عقول البعض الخروج بمسيرة تنظيمية تواكب حدثاً تنظيميا بارزاً أو مناسبة وطنية مهمة كذكرى انطلاق حركة التحرير الوطني الفلسطيني فتح "ألثورة المعاصرة " ودار نقاش حول هذه المسيرة التي ستجوب شوارع المدينة بعد حشد الجماهير في إحدى المدارس وللانطلاق بها معلنين خلالها بدء مرحلة جديدة من العمل النضالي والتحرك التنظيمي لأبناء العاصفة، وخلال النقاش وتداول الأفكار، ومضت فكرة الخروج بمسيرة مسلحة، وكان وقعها كوقع حبات المطر للأرض العطشى، الأمر الذي لفت انتباه بعض الإخوة، خاصة أولئك الذين يتعطشون لمواجهة المحتل.. الفكرة أثارت الغرابة والتساؤلات حول بعض

النقاط المحورية لكنها لم تترك لتمر دون تمحيص ودراسة وتحليل وتدقيق واستنتاج للوصول إلى قرار حكيم بهذا الشأن.

لم تكن الغرابة في طرح الفكرة بذاتها بل في الموافقة على ذلك من قِبل أعضاء التنظيم الذين لم يكن لديهم موقف تنظيمي رسمي لعسكرة الانتفاضة والخروج بالسلاح إلى هذا الحين، أما الموقف من خروج ورديات السهر المسلحة فهو حالة مختلفة تماماً لأن لها ضروراتها ودواعيها وضوابطها الخاصة بها، بينما الحديث عن المسيرة المسلحة فهو أمر مختلف كليا، إذ أَن ظهوراً ليس بمستوى التحضير قد يضر بواقع الحركة وأبنائها في تلك المدينة الذين سيتخذون قراراً، ويقومون بهذه الخطوط المهمة لا سيما إن أي مسيرة ستظهر بعرض عسكري ستحتاج للسلاح والسلاح لا يأتي حجمه مناسبا فهذا يعني عجزا تنظيمياً أمام قرار السلطة الرافض للعسكرة والظهور المسلح أصلا، وثانيا من أين سنأتي بالسلاح والكمية المطلوبة؟ والواقع هنا يضعنا أمام أزمات وتحديات حقيقية وفعلية فالتنظيم الفتحاوي لم يكن لديه في ذلك الوقت أية قطعة سلاح تنظيمية على الأقل في الإقليم والذي نحن جزء منه، والمسؤولون التنظيميون في الإقليم اعجز من أن يدعمونا أو يمدونا بالسلاح سواء مادياً أو لوجيستياً، لسببين اثنين، عدم القدرة من جهة، ومن جهة ثانية خوفا من خروج الأمور من أيديهم وتخوفاً. مما سيترتب على ذلك مستقبلا، إذا من سيتحرك لنا على هذا الصعيد ونحن أعضاء لجان المواقع القادة الميدانيون والناس تطالبنا نحن وليس المسؤولين عنّا، فكيف بنا سنتخذ قراراً بهذا الشأن دون الرجوع لأحد منهم، وكيف سيكون عليه حالنا إذا فشلنا أما المسؤولين وأمام السلطة الرافضة للموقف والخجولة في مواجهتها وكذلك أمام جماهيرنا التي تعلق علينا آمالاً كبيرة فهل نتراجع، أم نعقد العزم ونتوكل على الله سبحانه وتعالى ونسير مع القرار الأصعب.

بالرغم من جل الصعوبات التي تواجهنا والاختلاف في وجهات النظر حول كثير من المسائل، فإن فكرة المسيرة لاقت الإعجاب لدى السواد الأعظم منّا، ولذلك شرعنا في عملية حسابات طويلة ودقيقة لكل ما توقعنا أن يعترضنا، وكدنا نصل إلى طريق مسدود ونتراجع فيما جالت أفكار واجتهادات كان أحدها الخروج بالأسلحة البيضاء ((بلطا ت سكاكين... الخ)) لكن كما يقول رب العزة ﴿**من يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدراً**﴾ صدق الله العظيم (الطلاق ٣) .

حري بالإشارة إلى أنا مجتمعنا مجتمع قبلي ومعظم الروابط فيه عشائرية، وهذا يعني أن هناك أسلحة شخصية لدى كثير من الأسر، وحال مدينتنا غير مستثنى من هذا الحال وربما الأمر أيسر مما نتوقع خاصة وأن الرابط العشائري أقوى من التنظيم بسبب حالات الدم والثأر، وهذا قد يسهل علينا المهمة وكما يقول المثل الشعبي ((بيت السبع لا يخلو من العظام)) لذلك لن نَعدم الوسيلة وهناك كثيرون ممّن لم يضنوا علينا ولم يخيبوا ظننا فيهم، لكنهم اشترطوا شروطاً، وكانوا فيها محقين فأخذنا بها كمسلمات، حيث قال البعض: - يا أبناءنا السلاح ليس بأغلى من أرواحكم وهو للأزمات، ولكن اعلموا إننا دفعنا دم قلوبنا فيه، ويحتاج للمحافظة والحماية السرية، وقال آخر يا أبناءنا السلاح لا يعار ولكن إذا لم نخرجه في هذه المرحلة فإلى متى سيبقى مخبأ وأخر قال هذه القطعة ورثتها عن رحمة والدي الذي حارب فيها الانجليز فشرطي الوحيد أن تحافظوا عليها كما حافظت عليها أنا طوال هذه السنين، وقصص وحكايات سمعناها أثلجت صدورنا، وقصص نادرة ومؤثرة سنأتي إليها حين الوصول لموقعها الصحيح من هذه الحكاية لكنها، حفرت في ذاكرتنا أن شعباً فيه أمثال هؤلاء الناس لن يهزم ولن تزيدنا مواقفهم إلا إصراراً وتصميماً على المضي قدما ولن يمدونا إلا بالصبر والتأكيد على المواصلة، وهذه تأكيد على صدق قول

رسولنا المصطفى عليه السلام ((الخير فيّ وفي أمتي إلى يوم القيامة)) وتصديقا لقول الشاعر الذي قال:

إذا الشعب يوماً أراد الحياة   فلا بد أن يستجيب القدر

تلقينا وعوداً صادقة وإيجابية مفعمة بالاستعداد والرضا، وتفاءلنا خيراً بدءا بالبحث والعمل والتحضير، فيوم الانطلاقة ليس ببعيد لكنه يوم له وضع خاص، ولا بد من الاستعداد له جيدا، ثم الإعلان عن الوعد وإخبار الأعضاء المناصرين بضرورة الحضور والتجمهر وحشد الناس الذين سيخرجوا مع المسيرة.

أمام هذا التطور الذي جرى الإعداد له طرأ تطور أخر لم نلقِ له بالاً، ولم نورده في حساباتنا قبل ذلك، حيث وصلتنا دعوة لعقد الاجتماع بين أعضاء المواقع التنظيمية ومسؤولي بعض أجهزة السلطة في المدينة لتدارس الوضع بشكل عام، وقد اجمع الحضور على ضرورة التنسيق بين مواقع التنظيم وأجهزة السلطة، وعلى أهمية الاستعداد للدفاع عن الأهالي ومواجهة قوات الاحتلال ومستوطنيه، وإعداد الناس لأي طارئ، ومثلت هذه الدعوة بادره ايجابية وفاتحة خير من قبل أجهزة السلطة الوطنية، وتركت انطباعاً جيداً وإشارة طمأنة إضافية لاقت الإعجاب لدى أعضاء التنظيم لا سيما بعد أن أبدى مسؤولو الأجهزة استعدادهم لفرز بعض كوادرهم لتدريب عناصر التنظيم في دورة عسكرية مكثفة لا تتجاوز بضعة أيام، وما كان أمامنا إلا القبول وتقديم الشكر لهم على هذا الجهد وهذه المبادرة المسؤولة. وأما الأمر الملفت فهو قيام أحد مديري الأجهزة الأمنية وهو عسكري بالطبع وذو ماضٍ نضالي في الحركة، وأثناء جلسة أعضاء المواقع التنظيمية معه وتباحث الأوضاع حيث أوعز لأحد أفراد جهازه بإحضار مادتي البنزين والكلكل وعدد من الزجاجات الفارغة، وشرع بإلقاء محاضرة عن كيفية

إعداد الزجاجات الحارقة ((الميليتوف)) سخرنا واستغربنا منه واستهجنا من الفكرة في أنفسنا دون إشعاره، فنحن جيل انتفاضة الحجارة والميليتوف وهذا قائد عسكري يطلب منا تعبئة زجاجات ميليتوف وتخزينها للحظات الطوارئ، فيما كنا نتوقع أن يمدنا بالسلاح والبنادق لكن معرفتنا للإمكانات المتوافرة بين يديه ولشخصية الرجل وطيبة وسعة صدره ودماثة خلقه وبساطته وروح الدعابة لديه التمسنا له عذرا وقدرنا له هذا الموقف الذي اعتقدنا للوهلة انه يسخر منا فيه.

انفض الاجتماع وخرج أعضاء التنظيم وسمّة التفاؤل تعلو محياهم، لماذا لا يتفاءلوا وهم لم يتوقعوا أن تأتي الأمور على هذا النحو وبهذا اليسر، تدارسوا موضوع اللقاء وناقشوه بتمعن فوجدوا أن أمر دورات التدريب حيوي، ولا مناص من الشروع فيه، سارعوا بالتسجيل لتلك الدورات فليس لديهم ما يخسرونه، بل على العكس فهم تواقون لكل جديد، ولكل فكرة إبداعية من شأنها أن تغير وتطور وتنتج، توقعوا أن لا يسجل أحد خشية تسرب الأسماء ووقوع بعضها بين أيدي استخبارات الاحتلال، لكن المفاجأة كانت عند تزاحم الأعداد المقبلة على التسجيل في هذه الدورات فالكل يريد أن يتدرب ويلتحق بركب التنظيم، هذه بشرى خير لكنا أيضاً لا نستطيع تدريب الجميع، كما لا يفوتنا العلم بأن هناك كثير من القادمين هم على دراية تامة بالاستخدام الأولي للأسلحة إضافة إلى عشقهم الفطري لهذه الوسيلة ولمحاربة المحتل ومقارعة مستوطنيه، ربما سهل ذلك من تخريج الدورة بسرعة وخفض عنا عبء الرماية الحقيقية لما يترتب عليها من مخاطر أمنية وأعباء مادية.

فرغنا من مرحلة التدريب العسكري الأولي للدورة التنظيمية التي كنا نقوم بنقل أفرادها من مكان لآخر وبشكل يومي وبدون سابق إنذار. حيث استخدمنا بعض السكاكين والمحلات غير المسكونة والبعيدة عن أماكن السكن وتنقلنا

عبر مركباتنا الخاصة وبصورة لا تثير الانتباه أو الفضول، وذلك كإجراء وقائي ولداعي الحيطة الأمنية حان الوقت لتخريج الدورة الذي سيحتاج إلى عملية الرماية الحية وهذا يستدعي حضور بعض الشخصيات التنظيمية والعسكرية، أثار الأمر لدينا بعض المخاوف الأمنية التي قد يشكلها الاحتلال وذلك بإمكانية قصف أي تجمع يتم رصده خاصة إذا ما تبين أن لديهم أسلحة، وحينها لا يمكننا درء الخطر الداهم وليس لدينا أي مضادات جوية أو وسائل دفاعية ثقيلة حيث أن ما يتوافر لدينا من وسائل لا يتعدى بضع بنادق في يد أفراد السلطة وعددهم في المدينة ليس بالعدد الكبير بل إذا ما اجتمعوا جميعا فلا يتجاوز عدد أفراد جميع الأجهزة الأمنية في المدينة بضع عشرات، لذلك تم تأجيل الأمر إلى ظروف أكثر أماناً وترك المجال لكل مجموعة صغيرة أن تتدبر أمرها بنفسها وتتولى جانب الرماية العملي إذا ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً؟!

لقد شعرنا بأننا حققنا بعض الانجازات من خلال الانتهاء من هذه الدورات التدريبية، هذا إضافة إلى تطور العلاقات وانفتاحها بين التنظيم ومديري وأفراد الأجهزة الأمنية في المدينة حيث بدأ هناك تزاور بين مقرات التنظيم والسلطة وعلاقات التشاور والتنسيق وتبادل المعلومات بشأن التطورات والاهتمام بأمن بعضنا بعضاً، انطلاقا من إننا جسدٌ واحدٌ يسهر لراحة الجماهير، فيما بقي يوم التخرج الفعلي للدورات إلى أجل غير مسمى.

وتسير الحياة برتابة ويسر دون أن يؤثر تفكير وتخطيط بين البشر، لكنهم أيضا يستعدون لمواجهة كل طارئ، وان جاء ذلك أحياناً في غير التوقعات فالواجب يدعوهم للاستعداد والتوكل على الله، وهو يقضي بما يريد، فهم يعملون بنص الحديث القائل (اعقل وتوكل) والتحضير يجري على قدم وساق ليوم الاحتفال والمسيرة الموعودة، هو هذا القرار بات على سلم أولوياتها، وقد أخذ من الحسابات كثير ولا داعي للنكوص أو التراجع، فالكل يأخذ دوره

في الحشد الجماهيري أو الجمع المعتاد ليسجلوا نجاحاً يليق بانطلاق هذه المسيرة التي ستذكرهم بماضٍ عزيز على قلوب أبناء الحركة الفتحاوية، أنه يوم انطلاقة شعلة الكفاح المسلح (يوم العاصفة) وما حملته من تغير، فهل تنجح مسيرتنا، وتكون بداية مرحلة نضالية جديدة في ظل الظروف المستجدة، وفيها من التعقيدات والمصاعب الشيء الكثير.

إلى جانب ذلك تتواصل التظاهرات اليومية، ورشق سيارات المستوطنين وقوات الاحتلال بالحجارة، يستمر كلما سمحت الفرصة بذلك وكلما تمر سياراتهم ودورياتهم من الطرق الالتفافية المحاذية للمدينة والمارة من أراضيها كما هو الحال في باقي المدن وقرى مخيمات الوطن، أعضاء التنظيم يتابعون كل ما يجري على الأرض من أحداث عن كُثب يقوم بعيادة المصابين والوقوف إلى جانبهم والى جانب المناضلين والأهالي فهم جزء منهم وهمهّم ذات الهم، لكن لا احد يعلم الغيب وما يخفيه القدر ولو كنا كذلك لاخترناه قال تعالى: ﴿**لو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء**﴾ (الأعراف ١٨٨).

تزداد الأمور توتراً ويرتفع عدد المصابين في المدينة ليزيد عن ثمانين جريحا ما بين الإصابة بالرصاص الحي والمطاطي مع الأيام الأولى، هذا عدا عن حالات الاختناق بالغاز المسيل للدموع وتنهمر الجماهير إلى التظاهرات في كل يوم وكأن هناك مباراة لكرة القدم والحشود تتدفق إليها للمشاهدة والاستمتاع ويرى العديد من الشبان كمن يمتهن مسألة الذهاب لساحة المواجهة ورشق الحجارة كمهنة رسمية فلا يتغيب عنها وتلقى بعض البيانات الإرشادية الصادرة عن التنظيم إلى الشارع وتتداولها الجماهير، يتخللها الإعلان عن أنشطة وفعاليات جماهيرية كالإضرابات التجارية والتضامنية لبضع أيام في الشهر، وذلك كنوع من المشاركة الوجدانية والشعور بهموم الشعب والقضية والتفاعل معها.

الأصدقاء في سباق مع الزمن، فالمسيرة بات موعدها على الأبواب، ولا بّد من الانطلاق بها، لكن لا نريد أن تخرج عن السياق المألوف وتسيء للناس أو تتسبب في مخاطر نحن لسنا بصددها، أو تزيد الأمور تعقيدا. هذه التخوفات وغيرها كانت تراود أذهان الجميع فهي واقعية وحقيقية فالمسؤولية ليست سهلة، فأي خطأ أو تصادم قد يؤدي إلى أخطار وصعوبات وإشكاليات ليس من السهل إيقافها والسيطرة عليها إذا ما اندلعت.

حسمت الأمور ولم يبق أمامنا مجال للتراجع، فغدا يوم الانطلاقة، وموعد الاجتماع الساعة العاشرة ومكانه مدرسة الأمين الأساسية، وهكذا فالكل بات على علم، وكل الأشياء حسبت، ولم يتبقَّ إلا معرفة النتيجة لهذا العمل وهذا الإعداد فكما يقول المثل الشعبي ((نريد العنب لا الناطور)) وما نريده هو حجم المسيرة وزخمها وآلية سيرها وترتيبها والموقف الذي ستعكسه، وكل هذا سنعرفه لا حقاً، بعد الانطلاق ومراقبة الرأي العام والانطباع الذي ستتركه على أرض الواقع.

أطلت علينا غزالة ذلك اليوم الموعود بقرونها الذهبية مبددة ظلمة ليل طويل انتظرنا زواله على أمل أن يحمل لنا بشائر النجاح وكأنها تأذن لنا بالمسير، فيومنا قد بدا بنوره واشراقه ولم يبق لأحد مبرر لغياب أو تأخير، تجمع أعضاء المواقع التنظيمية كل في موقعه، استكملوا استعدادهم، أعادوا النظر بخطة الانطلاق ودققوها مرّة أخرى، لربما قد سقط منهم شيئ سهواً أو تناسو أمراً ما، وجدوا الأمور على خير حال، أحتشد مناصرو التنظيم وتجمهرت الجماهير التي ستنطلق بالمسيرة في مدرسة الأمين للبنين، المعلن عنها مسبقاً كمكان للتلاقي، تمر لحظات أشبه ما تكون بلحظات الترقب والانتظار لما سيحدث، أو لكأنها لحظات استعداد أخيرة، وفجأة يجوب بحر الجماهير الراكد عشرات الملثمين، يحملون على أكتافهم نوعيات مختلفة من البنادق، منها القديم

ومنها الحديث، هذا ما جاد به أهل المدينة لدعم مسيرة ذكرى انطلاق ثورتهم، عيون أعضاء التنظيم تعد البنادق أكثر مما تعد الناس، غير مصدقين ما يحدث أمامهم؟! أمر الحشد الجماهيري بالنسبة لهم كان مسألة سهلة المثال ويمكن تدبرها، إذ بإمكانهم الاعتماد على أعضاء التنظيم ومناصري الحركة وتحريض طلبة المدارس أو الانتظار وتأخير وقت الانطلاق ليتزامن مع نهاية ساعات الدوام الدراسي إذا استدعى الأمر ذلك، فيما موضوع السلاح لا يمكن جمعه بهذه البساطة ولا نريد الفشل من البداية؟! يشاهدون أحدهم يحمل بندقية حديثة، وأخر بندقية أكثر طولاً وأخر أقصر، تلك أكثر حداثة، ويزداد العدد وهم ينظرون في عيون بعضهم تارة وتارة أخرى في البنادق المعلقة على عواتق الملثمين، وكأن لسان حالهم يقول في حسرة وتمني؟! آه لو أن تلك البندقية هي ملك لي، لأفعلن كذا وكذا؟! وآخر يقول ما شاء الله بندقية الرجل ذو المواصفات كذا جميلة جداً ولطيفة--- وآخر يقول هذه من نوعية كذا – آخر قصة ((موديل)) وهكذا تحولت الأحاديث بالعيون لا بالأفواه، لحظات سادها صمت مطبق وتجهم في ظل حراك وتجول المسلحين لكن أصوات الجماهير المتزاحمة تتعالى وتتداخل وتكسر حاجز الصمت، ينتهي التجمهر والكل ينتظر إِذناً بالتحرك والانطلاق.

وتنساب الجماهير من بوابة المدرسة كما ينساب نهر جارٍ بين السهول والوديان، وكلما امتد سيره رفدته الجداول والسهول المنحدرة من قمم الجبال وأحضان الطبيعة، فهذا حال مسيرتنا التي انطلقت تجوب شوارع المدينة بخطى وئيدة وهامات مرفوعة والسواد الأعظم فيها ملثم بقناع أو كوفية كي لا يعرف للجميع، وكلما سارت زاد حشدها، وتعالت فيها الأهازيج والأناشيد الوطنية والشعارات الحماسية المنددة بالاحتّلال، واصلت السير إلى نصب صرح الشهيد الذي يتوسط المدينة وبدأت خطوة أخرى تكملة لما بدأوا به، إنها مرحلة إلقاء الكلمات والبيانات لكن يرافقها زخات إطلاق النار في الهواء أزيز الرصاص يعلو كل الاصوات، حالة همس وغمز على نوعيات السلاح وقوتها وقوة صوتها وسرعة

طلقاتها وكأنها حالة غزل بالبنادق، نعم فكل من لديه خبرة في هذا المجال ويعرف نوعية بعينها يقوم بالشرح لأصدقائه عن نوعية تلك البندقية التي كان يحملها س أو ص من الملثمين، ربما أن الفضول وحب المعرفة والاستطلاع أو العشق للسلاح هما سبب إثارة كل هذه الأسئلة لا ضير في ذلك؟! يستمر الشرح والتعليق فلان توقفت بندقيته وفلان صاحب القناع الأسود أطلق العنان لبندقيته كي تزغرد بالعالي، وفلان يخشى على إضاعة حبات الذخيرة معه حق يا رجل، إذا لم يطلق النار اليوم وفي مثل هذه المناسبة فإلى متى يدخرها؟! ربما للأعراس!! أو نسيت اننا من مدينة.. !! آخر يغضب وماذا يعني ذلك.. يا رجل هؤلاء مناضلون؟! وأي عرس أغلى من هذا العرس!! يا أخي لم نقل شيئاً يغضب؟! كلا.. بل قلت أكثر.. ! يتدخل أخر ماذا يا أخوة؟! هيا لنكمل سير مسيرتنا، تأخذ الجماهير خط سيرها، نهايته وتشرع بالتفرق كما خطط لها يذهب كل شخص إلى حال سبيله حال كوكبة الأصدقاء وأعضاء التنظيم جميعاً هو نفس الحال، فهم من سيقوم بتقويم المسيرة ومعرفة ردود الفعل ورأي الشارع والناس والسلطة من كل ذلك، كذلك موقف المسؤولين التنظيميين في المدينة، بالتأكيد في جلسات المواقع الرسمية سيوضع كل شيء على طاولة النقاش والتباحث للتعرف على الاخفاقات والنجاحات، وحجم التأييد والرضا أو الاستياء وكل ما يتعلق بالمسيرة من أداء ووجهات نظر.

مرحلة التقويم وقراءة النتائج واستخلاص الدروس منها بدأت في أجواء ودية، لكنها جاءت خلال جلسة من جلسات الأصدقاء المعهودة وغير الرسمية، التي غالباً ما يطرحون فيها مواضيعهم كافة على بساط البحث والنقاش بلا تحفظ، لا سيما أن مجموع أعضاء موقع الشهيد كمال الصريع.. هم من كوكبة الأصدقاء الذين يدور الحديث عنهم إضافة إلى مجموعة أصدقائهم ومناصريهم الذين أصبحوا من بين هذه الكوكبة، وإن كانوا لا يحضرون جميع الاجتماعات لا لشيء إنما بحكم فارق السن الذي يصنفنا ويقسمنا إلى جماعتين لكل منهما

جلساته الشبابية الخاصة به في أغلب الأحيان، لكن لا يرافق انضمام الجميع في مجلس معين أو حضور أفراد من هذه المجموعة إلى جلسة المجموعة الأخرى أي استياء أو رفض، فلا فرق في التفكير أو الأحاديث إلا ما أخفته الصداقة في مواضيع اجتماعية أو ذكريات وأسرار صبا، وان كنّا دوما ومن باب المزاح نقول لا أسرار بعد اوسلو، ونكملها فيما بيننا ((والمخبأة بصندوق)) إلا أننا نؤمن بأن هناك خصوصيات بين بعض الإخوة ولا داعي للبحث عنها إذا ما خرجت عن أطار العمل الجماعي.

إذا لا داعي لاجتماعات رسمية، فالجلسات شبه يومية فلا يتغيب عنها أحد ولا تحتاج إلى جهد كبير لترتيبها، إذا ما دعت الضرورة لذلك، فإبريق شاي أو دعوة لوجبة عشاء أو قطايف ((حلويات رمضانية أو ما شابه ذلك)) ، والكل يلبي ولكن في أغلب الأحيان يكون الحضور بلا دعوة فإبريق شاي أو قهوة، أو على رأي أحد الأصدقاء إبريق عصير فكك ((أي عصير يمزج ويحلل بالماء)) وجميعها تحصيل حاصل في حالة الحضور ويمثل الدعوة.

يدور النقاش والكل يبدي رأيه وسط حالة من الصخب والضجيج والرفض والتأييد والمعارضة والمقاطعة أو الخروج من الجلسة متفقين وأحيانا يسود الامتعاض، لكنه سرعان ما يتبدد وينتهي كل التوتر، ولا ينعكس على أجواء العلاقة بشيء وكأن هناك سراً ما يوحد الأصدقاء، كما لا نجد هناك جدول أعمال لجلساتهم ففي جلسة واحدة يناقشون أمور الكون بأسره، من شرقه إلى غربة من شماله لجنوبه وفي المجالات كافة فلا يتركون لا شاردة ولا وارد ة إلا ويناقشونها، لقد كنت أتمنى لو أن واحداً فينا سجل ما يدور في جلساتنا عبر شريط تسجيل فيديو مصور من دون علم وحينها فعلا سنلمس مدى الترابط الذي يوحدهم جميعا، ومدى الاهتمام والقلق ليس على مصالح شخصية أو خاصة، بل على أهداف عامة وقضايا تهم الوطن والمواطن كما أن تسجيلا كهذا

سينقلنا للعيش لحظات جميلة من الدراما والضحك على جلساتنا التي كانت تعج بالضحك وأجواء المرح، لدرجة أن شقيقي الذي كان واحدا من بين أفراد الكوكبة في كثير من الأحيان انه كان يقول لنا إننا سنموت ونحن نضحك بسبب ما كان يجدنا فيه من حالات الدعابة والسخرية والهزار وخلط الجد بالهزل والمرح بالترح، حيث النكت والطرفات والنوادر لا سيما في أوقات الشدة، فكلما قال واحد للآخر الله يعلم ماذا سيكون عليه مصيرك صاروخ أو خبر عاجل؟! يرد عليه آخر بأعصاب باردة لا بأس سنعمل له جنازة مهيبة وذلك كناية عن جنائز الشهداء، لأنها كانت تبهجهم ويعتبرونها حشدَ خيرٍ وعرساً ملائكياً ووطنياً يشارك فيه الجميع وشرف لمن يصطفى ويحظى بالشهادة.

فرغنا من مرحلة التقويم وبدت النتائج مقروءة وواضحة للعيان حيث كانت علامات الغيظة جلية وبارزة على محيا كل من لم يتوقع لهذه المسيرة بالخروج إلى التنفيذ تماماً كما لم يخطر في باله أَن حشوداً بهذا العدد والعدة ستشارك فيها بغض النظر عن مصادر تلك العدة، فيما هناك من كان سروره لحجم الحشد الجماهيري الذي لاقته المسيرة ومنهم من شعر بالارتياح لاتفاق لجان المواقع جميعها للخروج في مسيرة واحده وموحده.. ومنهم.. ومنهم، إذا المحصلة النهائية مسيرة إلى حد ما ناجحة وفاتحة خير لعلاقات طيبة وتنسيق كامل وواسع بين المواقع التنظيمية وأجهزة ومكاتب السلطة الوطنية في المدينة، واحترام متبادل ورضا وقبول وتعاطف من الناس والشارع عموماً.

وتنقضي الأيام وتتوالى الليالي والانتفاضة، والتظاهرات على أَوجها ومصطلح التنظيم بات يدق أسماع الناس وآذانهم، والاحتلال يردده في وسائل إعلامه، فقط أصبح تعريفاً وصفة ينعت بها كل النشطاء المنضوين في إطار (حركة التحرير الوطني الفلسطيني - "فتح") الذين يمارسون مقاومة المحتل ومقارعته، وأصبحت هذه الكلمة حديث الساعة، ففي ساعات المواجهة وعند

قدوم السيارات التابعة لمكاتب التنظيم إلى مكان التظاهرات ترى نظرات الإعجاب والتقدير والاحترام، وتبدأ الهمسات جاء التنظيم وذهب التنظيم وهكذا فالعيون إلى التنظيم باستمرار في ذهابه وإيابه، حضوره وغيابه وكل سكناته وفي حال حدوث إشكالية أو تجاوز، فالتوجه بات واضحاً باتجاه التنظيم، إذا فالتنظيم فرض حضوره بالفعل لا بالقول، ولاقى الاحترام والبشاشة بين الناس وسكن قلوبهم، وبات الناس يميزون بين ادوار التنظيم وأدائهم وسلوكهم وينتقدونهم على إخفاقاتهم وسلوك وأخلاق بعض الأفراد منهم، لقد باتوا يرون فيهم القدوة الحسنة ويريدونهم بأحسن صورة، كيف لا وهم يعلمون أن التنظيم مرآه الشعب، ومن قواعد المسلكية الثورية التي تعلمها أبناء التنظيم حب الجماهير واحترامها ومشاركتها همومها هذا في الوضع الطبيعي فما بالنا إذا كانت الانتفاضة شعبية والجماهير هي التي تتظاهر وتمدنا بالعزم.

أمست تلك المسيرة التي أشغلت الجميع بعض الوقت حتى أنجزناها وفق ما نطمح خلف ظهورها، وانهينا كذلك الدورة التدريبية لأفراد التنظيم ومناصريه وبعض المتطوعين، حيث دُرِّبوا على أيدي أفراد من جهاز امن الرئاسة، لقد فتحت علينا هذه الدورة نافذة جديدة لم تكن في الحسبان بل لم تخطر لنا على بال، فكل ما جال في عقولنا آنذاك أنه سيأتي لنا بعدها دفعة أخرى من الأشبال والشبان الراغبين بالتدريب، لكي نقوم بإعدادهم سواء في المجال العسكرية أم الإسعاف الأولي أو أَي مجال من مجالات الحياة التنظيمية والاجتماعية، لكن ما لم نتوقعه أن يتوافد علينا أعداد من الإخوة الذين تلقوا التدريب بطلب السلاح، للخروج لمحاربة الاحتلال، فالكل اعتقد أن لدينا مخازن سلاح وما ينقصنا سوى المناضلين، فهم لا يعلمون إننا لم نستطع تدبر أمرنا لتسليح المسيرة إلا بشق الأنفس، وذلك باستعارة بضع عشرات من البنادق وقطع السلاح المختلفة والمتنوعة كان منها القديم والقديم جدا الذي عاصر الحرب العالمية، ومنها بضع قطع حديثة، جُمعت لإنجاح خروج مسيرتنا لساعات معدودة.

الطامة الكبرى.. ماذا سنقول لهؤلاء الإخوة المتحمسين الذين يظنون في التنظيم خيرا، هل نصدهم ونرفض طلبهم دون توضيح السبب!! ما هو السبب؟! فهم يقدمون أرو احم رخيصة ولا يطلبون أكثر من قطعة سلاح للخروج بها لمواجهة قوات الاحتلال!! أم نداريهم ونتماشى مع مطالبهم بالتسويف والمماطلة ونسير معهم رويداً رويداً، حتى لا نخسرهم، ولكي لا يذهبوا إلى التنظيمات الأخرى التي قد يتوافر لديها المال، ومن يملك المال بإمكانه إن يحصل على ما يريد، مع عدم إغفال المنافسة التنظيمية وحالة التسابق على استقطاب الجماهير، أم هل نحاول أَن نزج بهم في أتون المظاهرات، وقد تجرهم عاطفتهم وجرأة الشباب لأن يلتحموا بالجيش بصدورهم العارية ويستشهدوا ونتحمل نحن مسؤولياتهم أمام الأهل لأننا نحن من بعث بهم، وخزات الضمير؛ لأننا أرسلناهم بلا إعداد ولا عدة أو على الأقل لم نمنعهم، كل هذه التساؤلات جالت في أذهاننا، ولكن كانت الإجابات لدينا كثيرة وليست واحده على كل سؤال وأخر من هذه الأسئلة.

تتلاحق الإحداث وتشتد وتقفز قفزات نوعية وغير معهودة في مثل هذه المواجهات، ونحن في مدينتنا لسنا بمعزل عن كل هذه التطورات، التي أصبحت تخرج عن طور التظاهرات وإلقاء الحجارة والزجاجات الفارغة أو الحارقة على حد سواء، فقد اقتصرت كل هذه الأنشطة والفعاليات على المواجهات الجماهيرية اليومية، فيما بات شق آخر للمقاومة مكمل يحدث ليلاً وبعيداً عن أعين الجماهير آخذا طابع السرية، ولا نستغرب في مثل هذه الأَحداث على شعبنا وعلى أعضاء هذه التنظيم الذين عشقوا السلاح، أن يقوموا ببعض الأدوار والفعاليات المميزة، فها هو السلاح بين أيديهم، ويجوبون بما توافر منه ليلاً شوارع المدينة ويسهرون على تخومها التابعة لسيطرة وإدارة السلطة الوطنية سيطرة كاملة وتصنف بالمناطق (أ) لذلك لم يستطيعوا إن يبقوا السلاح للوجاهة والاستعراض، وبلا شك فإن عدم استخدامه سيعرض السلاح ومن يحمله للانتقاض والاستيلاء العام من قبل الجماهير، إذا فلا بد من التقدم خطوة للأمام والرقي بدرجة

التفكير والعمل لا سيما وان الاحتلال قد رفع من وتيرة التصعيد، ولم يكن معنياً بالهدوء، ولو كان هذا هو الصحيح لما قام السفاح شارون بتدنيس عتبات أولى القبلتين وثالث الحرمين، ولما أمر قواته باطلاق النار ومواجهة المصلين في باحات الحرم القدسي الشريف، حيث قتلوا من قتل وجرحوا من جرح، ولو أراد باراك الذي كان حين ذاك رئيسا للوزراء وحكومته التهدئة لتداركوا الأمر، بمنع شارون بدلا من السماح له بالدخول، أو التنصل من الموقف بعد حدوثه مباشرة، إلا أنهم ضربوا بعرض الحائط نداءات السلطة الوطنية المحذرة والمجتمع الدولي وأصموا أذانهم واستكبروا استكبارا، لأن هذه هو ديدنهم على الدوام.

حقيقة الواقع لو أدركت القيادة الإسرائيلية بدءا من براك ومن بعده شارون وكل من توالوا على رئاسة الوزراء أن الأمور ستتطور وتؤول إلى هذا الدرك من الانحدار والسوء ربما لم يقدموا على ما أقدموا عليه، لكن توقعاتهم كانت تقودهم إلى أن الوضع سيبقى تحت السيطرة وأَنهم بهذا سيشكلون ضغطا إِضافيا على السلطة الوطنية، لثنيها عن المطالبة باستحقاقات المرحلة النهائية لاتفاقية إعلان المبادئ، وذلك من خلال إشغال السلطة في مواجهة الجماهير وحرفها عن مركز السير وبهذا ستجبر للقبول بالأمر الواقع خوفا على مكانته من ناحية، وصبراً عليها إلى حين تغيير الظروف للأفضل يبدو أن الرياح لم تأتِ بما لا تشتهيه السفن باراك وشارون وان الرسالة لم تفهم كما يجب، وان التوقعات لم تأتِ وفق حساباتها، وبالتالي خرجت الأمور من أيديهم، خاصة ان الشعب الفلسطيني لم يثرْ على سلطته كما ظنوا بل ثار على المحتل وحاول التفريغ من حالة الكبت والغليان التي اكتنزها وعاشها المواطنون جراء ضغط حكومة الاحتلال وممارسات جيشه على الشعب الفلسطيني ومحاولة إعاقة حركته، والتدخل في شؤونه الحياتية، كما أن القيادة الفلسطينية استطاعت قراءة الواقع آنذاك جيدا وأرخت العنان للشعب للتنفيس والترفيه عن نفسه لكنها لم تستطع إيقاف سيل الجماهير الجارف وفلتت زمام الأوضاع من الإِحكام رغم

أنها كانت تريد من الانتفاضة أن تشكل ورقة ضغط لصالح السياسة والمفاوض انطلاقا من فهم أن السياسة والمقاومة تسيران في خطين متوازيين ففي حين يزرع المواطن الرعب والخوف في نفوس الأعداء ويضغط بقوة الفعل والعمل ويفرض نفسه، حينها فقط يستطيع أن يفاوض السياسي وأن يحقق المطالب ويحصد النتائج الايجابية بل ينتزع حقه انتزاعا، لأنه لا سلام مع الضعف، وكما يقول المثل الشعبي ((الحق غير المسنود بقوة حق ضائع))؟! كما أن أحد قادة الكيان الصهيوني قال نحن لا نستجيب إلا إذا وضع المسدس في رؤوسنا، فيما يقول رب العزة ﴿**وأعدوا لهم ماستطعمتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم..**﴾ (الأنفال ٦٠).

لهذا نجد أن كل طرف من أطراف الصراع يحاول تسخير الانتفاضة لخدمة مصالحه، بل أنها جاءت لتستجيب لمصالح الجميع، فالحكومة الإسرائيلية أرادت إشغال الجانب الفلسطيني وخلق حالة من الإرباك والحرب الأهلية الداخلية لكي تستريح وتضمن آلية التنصل من الاستحقاقات الموعودة، فيما السلطة الفلسطينية تنوي إحالتها إلى ورقة ضغط ضد الاحتلال لتحقيق مكسب سياسي من خلال التلويح بإرادة الجماهير الغاضبة والحانقة جراء سياسة المماطلة والتسويف والضغط الإسرائيلي، أَما الجماهير الساخطة فقد استغلت ذلك للخروج من حالة كبت لم تعتدها من ذي قبل سيما ان شعبنا كله يتحكم بنفسه دون حسيب أو رقيب، وقدوم السلطة وضعه تحت طائلة قانون لم يعتده، كما أن جزءاً من هذا القانون كان يسوده بعض الخلل وفيه ثغرات تحتاج إلى تعديل والمشرف على تطبيقه لا يحتمل النقد لذلك وجد أن الخروج للشارع والتعبير عن غضبه ضد الاحتلال خير له من التصادم الداخلي، لأنه كان يدرك أن الدم الفلسطيني خط احمر، وله حرمته ولا يجب الاستهانة أو الاستهتار به أو تجاوز هذا الخط.

رحلة صداقة

من المهد إلى اللحد

للأسير / خليل محمود يوسف أبو عرام

الفصل الخامس

رحلة صداقة

من المهد إلى اللحد

للأسير / خليل محمود يوسف أبو عرام

الفصل الخامس:

مرحلة جديدة من النضال الشعبي الفلسطيني تبدأ إلا أنها الأكثر عنفاً وإيلاماً ودموية لكلا الشعبين على حد سواء، في تاريخ القضية والصراع الفلسطيني الصهيوني، تلك المرحلة التي لم يبقَ أمام الجماهير المناضلة "إلا ركوب الأسنة مركباً" فهي إذاً مرحلة إِثبات الذات وكيل الصاع صاعين للمحتل، وإفهام هذا العدو الغاشم إن إرادة الشعوب لن تكسرها قوة غاضب مهما تجبر وتغطرس، ولن يفت جبروته في عضد الشعب ولن تثنيه عن مواصلة درب النضال والمقاومة، حتى تحرير أرضه وإقامة دولته المستقلة وعاصمتها القدس الشريف.

لم يكن هذا الرد هو ردنا نحن، بل هو رد الشعب بأسره في سائر مدن وقرى وخيمات الوطن وبجميع فصائله المقاومة وأطيافه السياسية، هذا خياره وقراره الذي لا رجعة عنه ولا حياد، فهو صاحب المبادرة والمتحكم بإطلاق شرارة الكفاح المسلح، ولقد أدرك الشعب أن الاحتلال لم يعد يفهم لغة الحوار والسياسة والدبلوماسية، وان لغة الحجر لاقت رداً عنيفاً وبطشاً همجياً من قبل جيش شمشون الجبار، ولم يبقَ أمام هذا الشعب الأعزل إلا الدفاع عن ذاته، والذود عن كرامته، أو البحث عن نبوخذ نصر للقرن الحادي والعشرين، عله يخلصه من شر بني صهيون، كل هذا التطور كان بعد مرور بضعة أشهر على الانتفاضة الشعبية التي اندلعت لترد على عنجهية وحلف السفاح شارون، ولتعلمه إن إرادة الشعوب لا تقهر، هذا التحول جاء للرد على هذا القاتل المجرم بعد فوزه في الانتخابات وترؤسه حكومة إجرامية وتهديده بوقف لانتفاضة في بضعة أسابيع أو خلال مائة يوم كحد أقصى.

إذن كان هذا قرار الشعب في كل إرجاء الوطن وإذا كان رأيه بضرورة الثأر لدماء أبنائه التي أُريقت على عتبات الحرم القدسي فما بالنا نحن هل ننتظر

أن يمر الوقت وتلفنا الجماهير؟ أم تسير مع هذا السيل الجماهيري الجارف دون حسابات وهل لدينا الإمكانات؟ وهل سننطلق بشكل جماعي؟ أم نأخذ بعض الإجراءات والتدابير الأمنية الوقائية ونحاول توزيع الأدوار وعدم حرق ما نملك من أوراق وخيارات كافة، هل ستقف التنظيمات الأخرى إلى جانبنا أم أنها ستبقى حيادية، خاصة تلك التي تأخرت عن الانخراط مع بداية هذه الانتفاضة لأسباب وحسابات خاصة بهم وهل ستتعاون الأجهزة الأمنية معنا؟ والتي تحتكم لقرار السلطة الوطنية الرافضة لعسكرة الانتفاضة، وهل ستتوحد الأجهزة الأمنية مع بعضها؟ هل سنوحد مواقع التنظيم كافة وتتفق على وضع خطة استراتيجية واحدة موحدة للمقاومة هل ستتواجه مع قوات الاحتلال مباشرة، ونكون المبادرين أم إننا سنبقى في حالة الدفاع عن النفس وتلقي الضربات.. هل سنقابل الجيش أم المستوطنين.. وهل.. وهل..؟! أسئلة عديدة ومختلفة كانت تطرح نفسها، منها ما يلقى الإجابة لكن الغالبية العظمى لا تجد إجابة شافية وتبقينا في حال حيرة وارتباك. وذلك لأسباب عدة، منها عجز الإمكانيات المادية واللوجستيه وخاصة لدى تنظيم حركة فتح، وذلك لأسباب قد يكون لها مبرراتها التي لا نعلمها؟ وكذلك عدم التكافؤ في القوى بيننا وبين العدو، حتى في حالة اجتماع كافة التنظيمات والأجهزة الأمنية فليس هناك تكافؤ وتساوٍ في القوى، فهذه دولة الكيان الصهيوني دولة إسرائيل القوة الأولى في الشرق الأوسط عسكريا وهي التي هزمت عدة دول عربية مجتمعة في حربي عام ١٩٤٨، ١٩٦٧. فما بالنا نحن الشعب الأعزل الذي لا يملك من الإمكانات إلا الإرادة والعزيمة والأيمان بعدالة القضية وحتمية الانتصار.

كل ذلك لم يرهقنا ولم يثنينا عن المواجهة، وان كانت تعترضنا بعض التحديات الداخلية، لا سيما ممن عاصروا هذا المحتل قديماً وعرفوا بطشه، فهم يدركون أن اللعب مع الجيش ليس بالأمر السهل وربما أن جزءاً من هؤلاء كان محقاً في بعض الجوانب، خاصة أولئك الكبار والمسنين الذين اكتسبوا التجربة أثناء مشاركتهم مع جيش التحرير بعد عامي ١٩٤٨، و١٩٦٧ وعاصروا الحروب

مع هذا العدو فباتوا يحذروننا ويوجهوننا بإرشاداتهم وأقوالهم في هذا الجانب كثيرة نذكر منها للتدليل ((هذه الدولة دولة ما لها صاحب أحفظوا رؤوسكم عند مخالفة الدول.. الخ من هذه الأمثلة، ، هل يسمع الشباب ويتراجعون.. فهم على رأي الكبار طائشون أو مندفعون أو دمهم حامٍ)).

ومن رأى نفسه من الشباب يحمل بندقية أعتقد أن إسرائيل لن تستطيع الصمود أمامه بل هي مهزومة لا محالة، وتوقع أن كل الدنيا لا يمكنها الوقوف في وجهّه، هكذا هي العناد والإصرار أو التهور أو الشجاعة، فكلها مصطلحات لكن بين معنى وأخر شعرة، فقد يكون النقيض، ومن يحدث الشباب وهو منهم بلغة العقل يتحول في نظرهم من حالة الشجاعة إلى الجبن ومن حالة التحدي إلى التطبيع والانحناء للعاصفة، والكل حتما سيرى الأمور من زاويته/ هو، لا من زاوية الآخرين.

حوادث إطلاق النار تتكرر في مناطق عدة من الوطن، والرد عليها كان مؤلماً وقاسياً، إلا أنهم لغاية الأن لم يطرأ إي تغيير على استراتيجيتنا من الناحية الفعلية فالأمور ما زالت تحت السيطرة، لكن إلى متى سيبقى الوضع على هذه الشاكلة، حالة التململ بلا شك باتت تطفو وتشكل ظاهرة بين الشباب، خاصة عندما قسمنا الأصدقاء وأعضاء التنظيم إلى مجموعات وورديات سهر للتناوب والحراسة، وكما أسلفنا فجزء من عناصر هذه الورديات هم من الإخوة الذين تتوسط أعمارهم منتصف العقد الثالث والكل منهم قد عشق السلاح لكن حالة التفكير بالتأكيد تختلف بين من يكون في موقع المسؤولية ويعلم أن عليه اللائمة في حالة حدوث أَي خلل أو إخفاق ومن يبحث عن العمل دون اكتراث أو تحمل لأعباء المسؤولية ونتائج العمل هذا ناهيك عن أن العمل سيأخذ أكثر من اتجاه وأكثر من شكل، وهناك محاربة قوات الاحتلال التي ستواجه بحزم وصرامة كل من يعترض طريقها لكنه خيار لا بديل عنه، وأمر لابد منه، وهناك محاربة أعوان الاحتلال وعملائه الذين باتوا يشكلون خطراً، يجب الحذر منهم فيما المساس بهم أيضاً سيفتح علينا أبواباً جديدة آخذين بعين الاعتبار

أن مجتمعنا عشائري بطبعه، ومن السهولة، بمكان أن يتعاطف أهل العميل معه ويتضامنوا للدفاع عنه في حالة تعرضه للخطر، هذا ناهيكم عن محاربة الظواهر الاجتماعية الطارئة والغريبة كعدم الالتزام بالقرارات أيام الإضرابات ومظاهر أخرى لا تليق بالموقف الوطني والشعبي العام وتسيء لحالة النضال الوطني برمته.

إذا ما العمل؟ وكيف سنواجه هذه الأمور كلها حال إقدام إي من شباب التنظيم بالقيام بعمل سواء ضد الجيش أو ضد العملاء أو في إثناء تأديتهم واجب العمل واعتراضهم أحد المواطنين المعرضين بسوء أو العكس، فكيف سيكون عليه الحال؟ هل نقف ونواجه الأمر بوعي وحكمه أم نتخلى ونترك الحال للعشائر لتأخذ دورها وتحل محلنا؟ أم نستسلم للعجز ونطلب تدخل السلطة وبالتالي العودة إلى المربع الأول.

لم تنقص شبابنا الجرأة والشجاعة والحماس، كما أن طيب القلوب وصدق الانتماء وحب التضحية والفداء كانت السمات الأبرز والشمائل المميزة لهم جميعاً، وان سادها التفاوت بسبب تباين التفكير والعاطفة الجياشة وعبء المسؤولية والتجربة، ولكننا ولله الحمد لم نجد بيننا من ضحى بأخيه لينجو بنفسه هذا شرف عظيم ووسام نختاره لنا جميعاً، وإمام محاولات البعض للخروج للعمل بخلايا منفردة، فهي دلالة واضحة على حرية التعبير وسبل التجربة القيادية الديمقراطية الفعلية، وحق خاص لكل من يرغب بالسير مع مجموعة أصدقاء من جيله لتلبية طموحاته مدركين أن الأشخاص وإن تحابوا جميعاً وانسجموا، فإن مجال التحابب والثقة يختلف ويتباين بين إنسان وأخر، وبالتالي فليس من الغرابة أن نجد أن لكل خلية أسرارها وروابطها الاجتماعية الخاصة، وهذا إِن كان له بعض السلبيات، فإن له كثيراً من الإيجابيات، ما لم يخرج عن إطار الالتزام والتوحد ووصل إلى حالة العبثية والتخريب وهذا الحال بفضل الله لم نصل إليه، وان وقفنا في بعض الأحيان على شفير الانزلاق إلى حدوده، إلا أن حالة المنافسة والتسابق في الزرع

بقيت الظاهرة العامة والأبرز لكن كما قيل: لم تأتِ الرياح بما تشتهي السفن والأصدق قولاً في ذلك هو رب العزة حيث يقول تعالى: ﴿فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى﴾ (الأنفال ١٧).

ومن اللافت للانتباه أن نجد حتى من أَفراد المجموعة من كان يزاوج عمله مع أكثر من خلية، وله أسرار مع هذه الخلية وأسرار وحكايات مع الأخرى، وان كان يفرحنا حسن العلاقة وطيب الصداقة، إلا أن ما حدث كان ينم عن قلة التجربة الأمنية بالذات ويدلل على صفاء القلوب والرغبة بالعمل ليس إلاّ، ويؤكد لنا على الأصالة والبساطة، وان كان ذلك المزج سبباً لبعض الاختلاف في وجهات النظر، ولكنها ربما ميزة خاصة بأبناء مدينتنا، حيث يستطيع كل شخص منا أن يدعي بأنه على علاقة مع الجميع ويعرف أفراداً من جميع الخلايا العاملة في المدينة.

لم تقتصر عمليات إطلاق النار على قوات الاحتلال ومستوطنيه في تخوم المدينة دون غيرها، أو فرد دون أخر، ممن اختاروا هذا الطريق من مناضلي المدينة، بل الكل فيهم اجتهد وبادر وحاول وعمل وفق إمكاناته، وبقدر استطاعته لا بل هناك كثيرون ممن شاركوا في النضال، ولكنهم كانوا يعملون في الخفاء كجنود مجهولين، أو اقتصر ظهوره على أفراد بعينهم ممن يثقون بهم، ويعتقدون أنهم يمتلكون التجربة، ويحفظون السرَّ، ولهذا نجد أنهم لم يقعوا في الأسر وبقي سرهم محفوظ وهذا فخر لهم ولمن عملوا معهم وللشعب الذي أنجب مثل هؤلاء القادة الحاضرين في الوجدان غائبون عن دائرة الذكر والتفاخر العلني.

أما المقصرون عن أداء الواجب وعن القيام بهذا الدور النضالي، فمنهم وللأسف من هو أعجز من غراب، إذ كانوا يشككون بقدرة وشجاعة أبنائهم، ويستخفون بأفعالهم وأدوارهم، بل هناك من كان يشكك بأن يكون أبناء هذه المدينة على قدر تلك العمليات التي حدثت فيها، ونستغرب منهم هذا الطعن والتشكيك إن كان من باب السخرية والاستخفاف، وهؤلاء من نشير بدورهم

الهدام، فيما هناك البسطاء، الذين ربما كثيراً ما كانوا يثيرون هذه الشكوك ليس من باب الغرابة والازدراء، وإنما من باب الفضول وحب المعرفة والتيقن، وهؤلاء لا نقيم لدهشتهم واستغرابهم كبير اهتمام.

كثيراً ما كانت تثار بعض الحساسيات بين الفينة والأخرى لدى أعضاء الخلايا والأصدقاء، لا سيما إذا ما شعروا أن هناك بعض الأسرار تدور بين أحد أفراد الكوكبة والآخرين العاملين خارجها، معتبرين أن ذلك هو انعدام للثقة وخروج عن الإطار، وهذا حق لهم في الأمور الحياتية الطبيعية والمألوفة، أما في مواضيع النضال والمقاومة فعليهم الاعتياد على السلوكيات المستجدة كالاحتفاظ ببعض أسرار العمل الخاصة بين أفراد الخلية، على سبيل المثال ليس من باب الثقة وعدمها، إنما من باب الضرورات الأمنية وسبل الحيطة التي لا تلغي الحذر.

ويستحضرنا بعض الشواهد الحية على نوعية وشكل تلك المناكفات التي كانت تدور في بداية المشوار، لكنها سرعان ما تبددت وتلاشت مع الزمن ومع توالي هذه الحوادث والتذكير بضرورة توخيها، واكتساب التجربة وإدراك الجميع بأهمية السرية.

ذات يوم همّ ثلة من الأخوة بالخروج إلى منطقة ما للقيام بعملية إطلاق النار على إي هدف يتمكنون من وصوله، وقد كانت أغلب الأهداف، إما نقطة عسكرية أو باتجاه مستوطنة أو سيارة إسرائيلية مارة على إحدى الطرق الالتفافية، وربما تعتبر هذه المحاولة أولى العمليات، حيث خرج الأخوة من الجهة الجنوبية الشرقية من المدينة، وقد أخبروا بذلك أحد الأخوة في التنظيم، وثقوا به، وأخذوا منه عدداً من الطلقات لإحدى البنادق التي استعاروها من أحد الأجهزة الأمنية التي يعملون فيها، وما أن حل الليل وخيم الظلام وحان موعد الانطلاق، كان على هذا الأخ الذين استأمنوا به أن يحاول الخروج إلى منطقة قريبة من مكان الهدف، لكي يوفر بعض التغطية اللازمة والمساعدة إذا لزم الأمر

أو واجه الأخوة إي طارئ، لكنه ليس بصدد فضح الموضوع وإشعار الآخرين بأنه يعلم بخروجهم، وذلك انطلاقا من قواعد السرية المطلوبة التي تعلمها، وهذا يستدعي خطة محكمة لا تثير شبهة أمام مجموعة الأصدقاء الذين ينوي أخذهم معه، حتى لا يلفت انتباههم أو يشعرهم بعلمه بما سيجري، إلا إذا أضطر في النهاية لذلك، وكما تمت الإشارة في أكثر من مكان، فإن الأصدقاء كانوا يتحركون ليلا في ورديات سهر تجوب شوارع المدينة، ويكونون على تماس مع تخومها ومداخلها والمحاذية للشوارع الالتفافية، وهذا سهل المهمة كبداية، خرج أخونا ومعه كوكبة من أصدقائه الذين لا يعلمون بشيء سوى أنهم يسيرون في وردية حراسة اعتيادية وان وجهتهم إلى تلك المنطقة جاءت بدون تخطيط، لكنهم أيضاً ليسوا بهذه السذاجة ولا ينقصهم الذكاء أو القدرة على التحليل خصوصاً بعد أن حدثت عملية، إطلاق النار وذاع الخبر وتم التوجه والاقتراب والتوجه من النقطة الأدنى من الفرسان والالتقاء بهم والاطمئنان عليهم فثارت الحساسية والعصبية والطعن بعدم الثقة بهم بسبب عدم وضعهم بالصورة مسبقاً، لكي يأخذوا استعدادهم، لكن كما أسلفنا تخطينا هذه المسائل مع مرور الأيام وتكرار الأحاديث وتبيان مخاطر المعرفة الزائدة عن الحاجة، وأصبحت الأمور تسير بشكل سليم وتفاهم تام، وان كانوا يسودها بين الفترة والأخرى المشادات الآتية والطبيعية من هذا القبيل.

عاد الفرسان من غزوتهم بسلام، تأكدنا من عودتهم سالمين، لم يحققوا نتائج ملموسة إلا أنهم حاولوا واجتهدوا وان اعترى مهمتهم بعض الهفوات، فكل عمل فيه أخطاؤه وله ايجابياته وسلبياته، لقد كانت الثرثرة هي الخطأ والخطر الأبرز كما أن حالات التقاطر والتباهي أحيانا كانت تبدو بنسبة معينة خاصة لدى العنصر الشبابي والمستجد على العمل، والذي يفتقر للتجربة الأمنية السليمة حيث كان بسذاجته يعتقد أن الاحتلال لن يستطيع الوصول إليه في مناطق سيطرة السلطة الوطنية.

حوادث إطلاق النار أصبحت تشكل ظاهرة وتمثل نهجاً، فقد بات لا يخلو أسبوع بلا اشتباك هنا أو مناوشة هناك في مختلف أنحاء المدينة وتخومها، وكلما حدث اشتباك أو عملية إطلاق نار في جهة ما، سرعان ما يستعد الأخوة وأعضاء التنظيم وينطلقون صوب المكان، وقد يظن الناس أن تحركهم هذا سيرد الغزاة على أعقابهم ويحرر البلد فيما يعتقد آخرون أنها جولات من الاستعراض والبرستيج، ونحن نقول أن من حق كل شخص أن يحلل كما يرتئي ويشاء، فإرضاء الناس غاية لا تدرك والتنظيم يعمل من الفهم الخاص به سواء كان ذلك من التواجد من باب المؤازرة أو الجاهزية، تحسبا لأي طارئ، أو من باب إثبات الحضور، لأن من يقوم بالعمل إن لم يكونوا من أعضاء التنظيم فهم بالتأكيد من المناصرين له، ولا بدّ من تبينهم والدفاع عنهم وتسهيل مهمتهم قدر الإمكان، لأن أي تأخير أو إعاقة ليس في صالحهم، وهذه هي إحدى الواجبات التنظيمية وآليات استقطاب الجماهير، وهذا ناهيك عن أن وقفتهم واندفاعهم باتجاه المواقع الساخنة وحضورهم بين الناس يعزز اليقين في نفوس الأهالي، ويبعث على الثقة بأن من يقومون بهذه الأعمال ليسوا من العابثين، وإنما هم من أفراد التنظيم وأتباعه، وبالتالي لهم مرجعية يمكن الرجوع إليها في حال حدوث أي خلل أو إشكالية، كما أن ذلك يزيد من طمأنه الجماهير ويوفر الأمن والأمان لهم بأن التنظيم حاضر وعلى دراية وعلم بكل ما يحصل.

قد يساور الكثيرين الظن بأن التنظيم وبتلك الطلقات قد حرر الوطن ودمر المحتل، وامتلك القوة وزمام المبادرة فيما يرى آخرون أن هذه الطلقات لا تعدو كونها فرقعات أعراس، وجلبت الدمار للوطن والمواطن وأضرّت بالمصالح العامة، فالجيش قد اقتلع الأشجار المحاذية للشوارع والطرقات الالتفافية ومواقع الاحتكاك الساخنة، ووضع الحواجز ونقاط التمركز الإستراتيجية بين المدن والقرى وقطع أوصال المناطق والقادم أعظم فيما نرى أن لكل شخص فلسفته ووجهة نظره الخاصة بهذا الشأن، لكننا أيضا نرد بهذا المنطق الذي لا بّد أيضا من فهمه وترسيخه في الأذهان والعقول، وهو قول الله سبحانه وتعالى

حيث يقول ﴿قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما في السوء إن أنا إلا نذير وبشير لقوم مؤمنون﴾ صدق الله العظيم الأعراف ١٨٨.

(ونقول كذلك أن السكوت والقبول بالواقع دليل على الرضا، والموافقة على إجراءات المحتل وعدم الرفض يعني الرضوخ والاستسلام، ولو صمت شعبنا منذ بدء الاحتلال لأرضه، ولم يتحرك ويثر لما كان لنا هوية ولما أقمنا سلطتنا الوطنية كعنوان ورمزية لهذا الشعب ونضاله، وكذلك فإننا نؤكد المثل القائل "الطلقة التي لا تصيب تحدث دوشة".

ومن هذا الفهم يكون النضال لنذكر المحتل أننا موجودون وان سياسة الإملاءات وفرض الوقائع بالقوة لن تفيد، ولن تمسح من ذاكرتنا أن يوم رحيله قادم لا محالة قادم، عاجلا، أم آجلاً فالأرض لنا والدهر لا يغير الواقع ولا يسقط الحق بالتقادم.

لا نود الإبحار في الخيال والتصور بان التنظيم جيش عرمرم ويمتلك من القدرة والقوة الكثير، وانتقل إلى مرحلة الهجوم والعمل المسلح ليصل إلى مرحلة الحرب الكلاسيكية وتحقيق النصر القادم، فهذا شيء مبالغ فيه وأكبر منّا، فالتنظيم هو مجموعة من الناس يتجددون باستمرار لأنهم انبثقوا من رحم الشعب وامنوا بعدالة قضيتهم وبحتمية النصر، فهان عليهم تقديم أرواحهم ثمناَ لحرية شعبهم، والشعب هو الحضن الحامي والحصن المنيع ومصنع الإمداد بالرجال، وعملنا يندرج في إطار حرب التحرير الشعبية الطويلة الأمد والعمل الفدائي المتواضع والدائم هو الأسلوب الأنجع في استنزاف قوى العدو وأخذه على حين غّرة في هذا الموقع أو ذاك بعملية فدائية قد تصيب العدو، وتوقع في صفوفه خسائر مادية أو في الأرواح، وقد تؤدي باستشهاد أو إصابة أو اعتقال فدائيينا، وهكذا دواليك تسير الحياة التنظيمية الممزوجة بالعمل النضالي العسكري أحيانا وبالنضال الاجتماعي والسياسي والتطوعي في أحيان كثيرة، فالنضال من وجهة نظرنا كل متكامل فهو بندقية ثأر، وريشة فنان وقلم كاتب

ومبضع طبيب ومعول فلاح... الخ، والوطن للجميع والمواطنة الصالحة هي بمقدار خدمة الوطن والمواطن والصمود وعدم الوقوع في شرك المحتل، فالخلق عيال على الله أحبهم إليه أنفعهم لعياله "صحيح مسلم".

تتفاعل الأحداث ويشتد وطيس الانتفاضة أكثر فأكثر، وتضغط إسرائيل سياسياً، وتلقي بثقلها عسكرياً، وتطالب السلطة بوضع حد لحالة النضال المتصاعد، فيما السلطة تطالب إسرائيل بالإيفاء باستحقاقات السلام واتفاقية إعلان المبادئ والاستجابة للمطالب والحقوق الفلسطينية، الأيام تمر مرّ السحاب وشارون الذي قطع وعدا لشعبه بوقف الانتفاضة خلال مئة يوم كحد أقصى لم يستطع الوفاء بوعده رغم البطش والجبروت والعنجهية التي مارسها جيشه، إحصائية الشهداء والجرحى في ارتفاع وتعداد الأسرى في تعاظم وازدياد، مصطلح الحرب على الإرهاب يطلّ علينا ويصبح هدفا عالمياً ومبرراً لرفع وتيرة البطش والقتل والتدمير الصهيوني اللامتناهي أصلاً، خاصة بعد تلك الهزة التي تعرضت لها الأبراج التجارية في نيويورك ومبنى وزارة الدفاع الأمريكية في الحادي عشر من سبتمبر " أيلول ٢٠٠١ " لندخل بعدها في نفق مظلم آخر وازداد الوضع سوءا إبان الحرب الثانية على العراق التي حرفت المسار ووجهت الأنظار عن القضية الفلسطينية إلى تلك الوجهة، تتجول أمريكا راعية الديمقراطية ورأس نظام الحكم في العالم المنحازة أصلا لإسرائيل لتصبح طرفاً بل رأس حربة في محاربة الدول والشعوب المضطهدة والمطالبة بالاستقلال والحرية بحجة رعاية هذه الدول لبؤر الإرهاب حسب زعمها، وهذا يعني على رأي المثل القائل "إذا كان غريمك القاضي فلمن تشتكي" وبالتالي بقي علينا الصبر والصمود والدفاع عن كرامتنا وحقوقنا، ربما يحل الله علينا بعهد يكون أفضل حالاً من هذا العهد الذي بات العالم بأسره يقف مع الجلاد ضد الضحية أو حتى يأتينا (تشامبرلن ثانٍ علّه ينصفنا من حالة الظلم وازدواجية المكاييل) تشامبرلن: ضابط بريطاني كان يطالب بحل أزمة فلسطين ويعتبر الصهاينة هم أساس البلاء) .

ومع توالي الأيام وانقضاء الأسابيع، واستعارت نيران الانتفاضة، بات الدم هو العنوان والعنف هو الظاهرة الطاغية، فحوادث إطلاق النار والقتل والجرح في ذروتها والعواطف جياشة وسلطة تناشد العالم لوضع حد لسياسة التطرف الصهيوني والرئيس الرمز يمسك العصا من وسطها فتارة يلوح بالمقاومة وأخرى بالسياسة وشارون يواصل عناده وعنجهيته، وعالم غارق في الحروب وعرب متورطون في وقفتهم إلى جانب منظومة التحالف الأمريكي في الحرب على العراق وأفغانستان والأبراج التجارية دمرت وتنظيم القاعدة بات يستحوذ على شاشات الإعلام المرئي والمسموع ويأخذ زخماً مجلجلاً غطى على لغة العقل والمطالبة بإيجاد حل للصراع العربي الفلسطيني الإسرائيلي والكل جائز فما العمل؟! إسرائيل لم تعد توافق على مطلب السلطة، بل تضغط بكل جبروتها لتجبرها على التراجع، والسلطة ليس بيدها أي حل أو انجاز فعلي تقدمه للشعب سوى التمسك بالثوابت وخيار المقاومة يمثل لها طوق النجاة، الانتفاضة تتصاعد لكن وبحوادث إطلاق النار في هذه المدينة أو تلك وان لم تصب إلا أنها ترعب المستوطنين الذين يتنقلون بين مستوطنات وفي الشوارع الالتفافية المارة بين المدن والقرى الفلسطينية وهذا استدعى الجيش لبذل جهد إضافي لتوفير الأمن، وبات الرد الإسرائيلي أكثر عنجهية ووحشية وأصبح يستخدم الدبابات والمدفعية والاباتشي والصواريخ، وتعداها ذلك إلى القصف بطائرات "F16" كما حدث في سجن نابلس، وللشهيد مروان زلوم وأبو علي مصطفى وصلاح شحاده وقائمة طويلة من الشهداء الذين سقطوا بالقصف الإسرائيلي إلى أن وصل الأمر إلى الشهيد الرمز أبو عمار والرنتيسي والشيخ احمد ياسين وأبو شنب، وكل هؤلاء وقد استخدمت كل وسائل القوة لإجهاض الانتفاضة وإنهائها، ولكن بلا جدوى، ألا أن سيلاً من الأسئلة يبقى بحاجة إلى الإجابة، فهل يستسلم الشعب؟!

وهل يرفع صاحب الكوفية الراية البيضاء وعيونه ترنو دوماً للقدس والشهادة؟ وهل يتراجع عن قراراته؟ هذه أسئلة بلا شك راودت أذهان وعقول الصغير والكبير الأمي والمتعلم على حد سواء تماماً كما راودت ألباب وبصائر القادة الذين قرأوا الواقع والخارطة فوجدوا أن الاستسلام معناه التنازل عن كل شيء بل والنهاية لمستقبل القضية برمتها، إذا ليس أمامنا من خيار سوى الاستمرار في المقاومة الشعبية بوسائلها وأشكالها المختلفة لنرى ما يمكن أن يصنعه هذا المحتل في ثورة شعب قارع المحتل على مدار أكثر من ستين عاماً ولا زال.

أبو عمار كعادته عودنا على المفاجات والتصريحات النارية التي تحمل مضامين وتحليلات عديدة ومختلفة، فهو القائد السياسي الذي ينادي بالسلام والعسكري الشرس الذي يجيد حمل البندقية والمفاوض البارع الذي يحمل غصن الزيتون والجماهيري الشعبي الذي يمشي أمام الجماهير ويستعطف عقولها وقلوبها، وتطير تصفيقاً له واعجاباً بكلماته، والتي كثيرا ما يرددها ذاتها إلا أن جماهيره تجد لخطابه حلاوة ورونقاً خاصاً كلما رددها فهو يعرف جيدا دغدغة عواطف الجماهير وما يريده الشعب الرازح تحت نير الاحتلال والطامح للحرية والاستقلال ويعرف طبيعة عدوه جيداً ويدرك ما يدور في خلد القيادات الشعبية والسياسية من حوله، وكذلك أيضاً ما تريده التنظيمات والفصائل الوطنية المقاومة، فهو له لغته وأسلوبه الخاصة به والتي يسحر به مستمعيه وأنا هنا لست بصدد الخوض في تحليل شخصية هذا القائد الرمز وصاحب الكارزمة الغريبة في أطوارها ومكوناتها والذي يختلف معه الناس، ولم يختلفوا عليه بقدر ما أردت التوضيح والإشارة وفق ما استدعته ضرورة الكتابة.

وتمضي الشهور الستة الأولى من عمر الانتفاضة بين المد والجزر والحيرة والارتباك والتوقع باستمرارها أو وقفها، والقائد الرمز يناور بما يمتلكه من أوراق فتحاوية سياسية وعسكرية، بل يلوح باسم الشعب بأسره حتى وان كان

التأخر وعدم الانخراط في صف المقاومة هو حال جزء لا يستهان به من الشعب، إلا انه لا يوجد منازع بان الرئيس هو الأمر الناهي وصاحب السلطان والكلمة الفصل بما يمتلكه من رمزية ومكانة قيادية واعتبارية سياسية وشعبية.

يتململ الشعب وتبدأ المنافسة الفصائلية وتنخرط قوى المقاومة الأخرى والحركات الإسلامية التي التزمت الحيادية والتريث مع بدء الانتفاضة لتتسربل موجة المقاومة وتسلك درب النضال وليبدأ مشوار أكثر ضراوة وعنفاً وبسالة، ومما يستدعي قدراً كبير من الحكمة وضبط النفس والتحلي بالسرية أكثر من السابق لا سيما أن الرد الصهيوني في هذا الفصل بدا يحمل وجهة جديدة ومعادلة لا بد أيضاً من تحمل نتائجها، والتي قد تكون بدون شك قاسية كيف لا وهي ستحمل في طياتها طابع القتل الذي لم يعتده الاحتلال من ذي قبل؟؟ إنه طابع العمليات الفدائية والاستشهادية، والتي لم تقتصر على تنظيم دون الأخر بل الكل شرع ينافس ليتبوأ الصدارة في إيلام العدو وإيقاع أقصى الضربات إذا الكل صار يعد العدة ويتحين الفرص السانحة ليغرس غرسه فهل سيكون لأصدقائنا أيضا زرع أو حصاد؟ أم أنهم سيخشون سطوة الأعداء ويلتزمون جانب الأمان وينجون بأنفسهم مكتفين بالصمت والبرستيج بأنهم أعضاء تنظيم؟ ! أم يخوضون غمار البحر الهائج بلا خشية من أمواجه وغير آبهين بما سيحمله القدر.

وتسير الأسابيع والأشهر سريعاً، فصل أخر من فصول السنة يهل علينا، قوس قزح يطوق السماء، ورياح موسم جديد تبشر بخير قادم وتحط رحالها، غيوم الشتاء تدنو من الأرض، وما على الفلاح الذي انتظر هطول المطر، إلا الاستعداد لرمي بذار أرضه وحبوب زرعه، هكذا هي نجوم هدايتنا لليل يحمل المجهول أو في صحاري ربعنا الخالي، بصرف النظر إن جاءنا فيها البشير أو النذير، فالاستعداد لكليهما معاً هو الأساس، حتى وان خرج لنا القدر من بين

ثنايا الواقع المعلوم، وصدفة وبلا تحذيرات أو مقدمات تنسحب قوات الأمن الوطني من احد الحواجز الواقعة على المدخل الجنوبي الشرقي للمدينة وبالذات في قرية الكرمل ليتراجع عن مكانه الأصلي لمسافة تزيد عن الكيلومترات للوراء، وبدون أي مبرر من وجهة نظرنا وبمعرفتنا الأولية للخبر، لم نصدق بداية الأمر، طرنا إلى المنطقة لرصد الخبر وتأكيده، وقبل وصول المكان المسبق بمسافة تقل أو تزيد عن الكيلومترين وجدنا حاجز الأمن الوطني يعترضنا، أدركنا الحقيقة ولم يبق مجال للشك، طرحنا التحية، واردفناها بأسئلة الاستفسار والاستيضاح، تاركين لأنفسنا التحليل والاستنتاج، لم نولِ الأمر كثير اهتمام، معللين ذلك بإمكانية إن يكون خطة عسكرية وإجراء حيطة وحذر لمعرفة العساكر أكثر منا خبرة بهذا الشأن، عدنا إدراجنا إلى حيث انطلقنا، حيث هناك بقية الأصدقاء وأعضاء التنظيم.

حقيقة لقد أثار هذا التراجع تساؤلاً كبيراً، وأشعل شمعة حمراء، وبخاصة أن المنطقة التي كان فيها هذا الحاجز يقطنها احد أعضاء الحركة والمطارد بتهمة قتل احد المستوطنين عام ١٩٩٧، وهو الأخ عيسى الدبابسة "أبو العنبية"، كما ان القرية ذاتها باتت موبوءة ببعض الأشخاص الذين انخرطوا للعمل في صفوف الطابور الخامس بعد أَن أسقطوا في شباك رجال المخابرات العدو لمساعدتهم في الوصول إلى هذا المناضل إلا إن عين الله ورعايته حالت دون وصولهم إليه في الأعوام التي سبقت الانتفاضة لكن نحن لسنا بيدنا شيء نفعله سوى الصمود والحذر والرضا بالواقع.

لم تمضِ إلا أيام معدودة على انسحاب أَفراد الحاجز المذكور، ولتلك الخطوة المشؤومة، التي لم نرتح لها أساسا حيث جاء الخبر الذي كنا نخشاه ووقع المحظور وبات لا ينفع الندم، إذْ اقتحمت القرية قوة من الوحدات الخاصة "المستعربين" معززة بقوات الجيش وتمكنت من الوصول إلى المناضل عيسى

الدبابسة في وضح النهار لترديه برصاصات حقدها وترتقي روحه الطاهرة إلى بارئها، ويعلن خبر استشهاده فيما أصيب نجله الأخر برصاصة بترت على أثرها ساقه.

ما العمل؟! لقد أدركنا أَن تراجع قوات الأمن من المكان لم يكن لعبث بل كان بمثابة إنذار دق خلاله ناقوس الخطر، لكن هل ياترى كانت قوات الأمن متورطة في مؤامرة؟! لا ننسى أَن الاحتلال يتربص بنا ويستغل كل ما من شأَنه أَن يزرع الشك والخلاف بين صفوف شعبنا، لذلك حري بنا توخي الحذر من كل ما يحيط بنا، إذا هل نقبل بمبررات وأعذار؟! هل نفهم ونؤكد الشك باليقين لا سيما بعد هذه الفعلة الإجرامية، هذا حقاً أمر ليس سهلاً، فهل يعقل أَن يكون التراجع جاء بلا تخطيط؟! أو بدون تنسيق أَمني بين السلطة وقوات الاحتلال فمن المعروف أصلا أن الدخول إلى المنطقة المصنفة يكون بعد تنسيق مسبق، فهل كان دخولها لتنفيذ هذه الجريمة بهذه السهولة بعلمهم؟! وهل فعلاً السلطة شاركت في تصفية هذا المناضل، وغداً ستكون شريكة في التنسيق لتصفية آخرين؟! بدون شك فان هذه الأسئلة وغيرها تراود أذهان كل من قام بالمتابعة للحدث للوهلة الأولى؟! وبالتالي ادخل الحدث الخشية في النفوس وحرك مشاعر القلق لكنه سيكون دافعاً للبحث عن الحقيقة.

ما العمل إذا؟! فحالة عدم اليقين تثير التوتر والتساؤل، فهل نختفي عن أنظار السلطة وننزع الثقة بهم؟! بالتأكيد لا، فالحقيقة لا تكون كذلك، والمتهم يرى حتى تثبت إدانته، كما أن السلطة هي من تولت عملية حماية المناضل أثناء سنوات مطاردته إلى حين استشهاده، وقد انخرط عدد من أَفراد هذه الأجهزة في خلايا عسكرية من التنظيم، فيما الآخرون على تعاون وثيق واحترام متبادل مع أَفراد التنظيم، لا داعي للتسرع والجزم بأحكامه مسبقاً؟! فربما كانت هناك أسباب غامضة، وأَن خفايش الظلام عملوا على رصده بأمر مخابراتي كي يوقعوا

الشك والريبه بين الاجهزه الأمنية والتنظيم من ناحية وبين الأجهزة الأمنية والجماهير من ناحية أخرى لخلق الفتن وتقسيم الناس إلى شعوب وقبائل انطلاقاً من قاعة فرق تسد.

لنضع الآن إصدار الإحكام والخشية وإشغال العقل في التحري جانباً، فلقد حدث ما حدث، فروح الشهيد صعدت إلى بارئها، ولا بد من عمل شيء ما لأجلها هناك أفراد التنظيم لهم ترتيبهم الخاص بهم، كيف لا وهو الشهيد الأول خلال هذه الانتفاضة في المدينة ولا بد من عمل حفل تأبين يليق به وبدوره النضالي، فقد أمر بقتل المستوطن الذي سلب أرضه ورعي زرعه عنوه، لم يستطع الصبر على ظلم وعدوانية هذا المستوطن الطارئ على أرضه، حيث قام بقتله وعلى مرأى إخوته واخذ سلاحه، إذا فهو بلا شك بطل من أَبطال هذه المدينة لقد كان بإمكانه إن يترك المستوطنين ويرضى بالأمر الواقع، وكما يقول المثل "إن يضع رأسه بين الرؤوس........"، لكنه أبى ذلك وضحى بحياته ومستقبله مقابل عيش كريم لأهله وشعبه، فهو صاحب الحق، وليس ذاك المستوطن الطارئ القادم من أصقاعِ المعمورة ليأخذها وينعم بها، إلا انه تصدى له وظل له بالمرصد ووضع حداً له.

اجتمع الأصدقاء كالعادة في مكتب التنظيم وكما اشرنا سابقاً فالمدينة مقسمه إلى أربعة مواقع تنظيمه، وكل موقع له مكتبه وأعضاؤه ولجانه الخاصة به، تداول الأمر بجديه فالشهيد هو ابن المدينة جميعاً، لكنه أيضا يقطن في منطقة جغرافية تأتي في إطار مسئولية موقع الشهيد كمال الصريع، لذلك فحضور مجموعة الأصدقاء مهم كأهمية حضور هذا الموقع تماماً، وكأعضاء التنظيم في المواقع الأخرى فواجب التنظيم الحضور والقيام بالدور المنوط به، وإبداء الأهمية والمسئولية حيال الشهيد وأهله، فهذا هو دور المنافسة الخدماتية والاجتماعية والمؤازرة.

قد حان، ولذلك لن يمر على الحادث مرور الكرام، ولا بد من القيام بحفل

تأبين يرقى بمستوى مقام الشهيد، وترتيب عرس الشهيد ترتيباً منافساً من أَلفه إلي يائه، يظهر مدى الاهتمام والانسجام والحفاوة في التنظيم لهذا العرس، من حيث مراسم تشييع رفات الشهيد ونصب خيمة الاستقبال واستقبال الضيوف والوفود التي تؤم الخيمة الآتية من المدن والقرى المجاورة، وتحضير مستلزمات الضيافة المتعارف عليها في أعراس الشهادة من صور وبسترات وكل ما يتطلبه ذلك من أمور مادية وكذلك من ترتيب حفل التأبين، وعرافة هذا الحفل وكلمات التأبين وكل ذلك، لكن في المقابل بات أمامنا أمر أكثر أهمية وتعقيداً واخذ وقتاً كبيراًمن النقاش والجدل، أَلا وهو مكان التشيع والدفن ومكان التأبين، الذي يجب إن يستمر التواجد فيه للحد الأَدنى لثلاثة أيام متتالية؟! وتنبع الأَهمية هنا في الخشية من قيام قوات الاحتلال باقتحام مكان الاحتفال؟! فانسحاب حاجز الأَمن الوطني..... ، وسقوط الشهيد بعدها بأيام معدودة لازالا ماثلين أَمام أنظارهم؟؟ وأَثار الخشية لم تفارق أذهانهم، ويستدعيانهم لاستخلاص العبر واخذ بأسباب الحيطة والحذر، لا سيما في القرية التي يقيم فيها الشهيد وهي أحد قرى المدينة المتاخمة للطريق الالتفافي ولا يفصلها عن المستوطنات سوى مسافة لا تتجاوز ثلاث دقائق سفر بالسيارة، علاوة على أَن بعض الدبابات تتخندق على مشارف القرية وقد تصل إلى خيمة العزاء في غضون دقيقتين إذا ما قصدت ذلك.

إذاً الوضع ليس بهذه البساطة واليسر، ولا بد من اخذ كافة المعوقات والصعوبات بالحسبان، وذلك بعد النقاش والتحليل والوصول إلى النتائج والمواقف، قد يعرب كل شخص عن رأيه لكن من الواجب مراعاة مسائل أخرى لا يمكن الاستهانة بها أو تهميشها، فبيت الشهيد في تلك المنطقة وكذلك أبناء أسرته وعشيرته، فمن غير اللائق أن يطلب منهم عدم إجراء مراسم التشييع والدفن والتأبين في تلك المنطقة خوفاً على أَفراد التنظيم الذين سيحضرون، كما أن المنطقة يقطنها عدد من أَفراد الطابور الخامس الذين أسقطوا وجندوا لصالح مخابرات العدو في أَثناء مطاردة الشهيد أو قبل ذلك فيما عدد منهم

التجأ للإقامة داخل دولة الاحتلال وهذا ما سهل وصول المستعربين أو قوات الاحتلال إلى الشهيد، كما أَن مجازفة أَفراد التنظيم في الذهاب إلى تلك المنطقة دون اكتراث أو حساب برأي الآخرين، يضعهم في دائرة التهور، لأن ذهابهم قد يجعلهم في دائرة الأستهداف والخطر.

لذلك فالضرورة تقتضي الجلوس معاً وتدارس الأمر بشكل دقيق وجدي، والخلوص إلى موقف جماعي، لقد اجتمعوا وساد الحديث الشد والرخي، وطرح وجهات النظر تخللها بعض الاختلافات والآراء، لكن خلص الجميع إلى قرار أن يكون مكان سكن الشهيد ومسقط رأسه هو مكان التأبين بغض النظر عما ستؤول إليه الأوضاع، ولكن سنعمل على رفع جهوزيتنا واستعدادنا لمواجهة أي طارئ، أي سنأخذ بنص الحديث القائل "اعقل وتوكل" فالأخذ بالأسباب أمر ضروري شريطة أَلا يوصلنا ذلك إلى حد التقاعس والجبن، ولاسيما أن جميع إمكانات شعبنا لا تقاس بمعشار العشيرة من قوة الاحتلال فهل يعني ذلك أَن لا نثور عليه أما مكان التشيع والدفن فهو أيضا المكان نفسه وهذا ليس خياراً وإنما قرار ذوي الشهيد أنفسهم، وليس لنا فيه حق المناقش أو طرح وجهات النظر.

لقد زف الشهيد بعرسٍ جنائزي مهيب ولائق، حيث كان له أكبر عرس وطني في المدينة، ووري جثمانه التراب وشيع إلى مثواه الأخير، وانتهت مسيرة التشيع بسلام وخير، وبدأت مراسم التأبين داخل خيمة أقيمت خصيصاً لهذا الغرض في مدرسة القرية، وأمت الوفود بيت العزاء لتأدية واجب العزاء، لم ينقطع أفراد التنظيم ومناصروه عن المكان حيث توافدوا بشكل منظم ووفق ترتيبات خاصة به حافظوا فيها على حضور سياسي استمر طيلة ثلاثة أيام، وقد كان هناك بعض التدابير والاحتياطات التي اتخذوها تحسباً للمفاجآت، فجعلوا حضورهم نشطاً وواضحاُ أمام الناس كما أن حضور أفراد الأجهزة الأمنية، أيضا بدا جلياً

وملموساً، ولا ننسى دور بعض الإخوة التنظيمين من أبناء المدينة العاملين في الأجهزة الأمنية، وهذا التضافر والتكامل كان له ايجابياته، وقد مثل أعضاء التنظيم وكل الذين ناصروهم من أفراد الأجهزة الأمنية وشرفاء المدينة الذين أصروا على الذهاب إلى القرية وإقامة حفل التأبين فيها تحدياً للطابور الخامس واثبات الذات أَمامهم هذا من ناحية، وإجلالاً وإكباراً وتقديراً للشهيد الذي ولد واستشهد على تراب قرية الكرمل من ناحية ثانية.

وتمضي اللحظات الأولى من تشيع جثمان الشهيد، ويوارى جسده الطاهر الثرى وينفضُ المشيعون الذين شاركوا عرس الشهادة إلى خيمة العزاء، وما إن مرت ساعات على الشروع بمراسم التأبين والبدء بإلقاء الخطابات وكلمات الرثاء من الوفود التي أمت الخيمة حيث جاءت تلك السويعات التالية لتحمل في ثناياها النذير مما كنا قد توقعنا وخشينا حدوثه، لقد تفاجأنا بسيارة عسكرية صهيونية تقترب من المكان، ولا تبعد عن مدرسة القرية إلا بضع عشرات من الأمتار، فهي دخلت من البوابة الشمالية الشرقية لقرية الكرمل مسقط رأس الشهيد، لكنها لم تكن بالقوة التي تهدد حياتنا أو تخيفنا، إلا انه سادنا شعور ما هو إلا الطعم الأول للصيد، وان القادم هو خلفها وأعظم من ذلك، أخذت المركبة العسكرية مسارها في الطريق الرئيس للقرية، انتظرنا قليلاً لنحدد وجهتها بالضبط، كانت تتجه صوب منزل الشهيد وليس منزل العزاء، هذا الأمر بدد مشاعر الخوف التي حاول الحضور إثارتها حرصاً وخشيًة على الإخوة أعضاء التنظيم الذين آثروا البقاء في مكان التأبين إكراما وإجلالاً للشهيد وتقديراً لدوره النضالي ولذويه.

الأسباب الكامنة وراء دخول هذه الدورية لا زالت حتى هذه اللحظة مبهمة وغير معروفة، وكل التقديرات تذهب باتجاه محاولة جيش الاحتلال اقتحام خيمة العزاء، هذا أول ما يتبادر للأذهان في مثل هذه الحالات، وهذا ما كان أفراد

التنظيم والجميع توقعوه واخذوا بعض إجراءات الحيطة والاستعداد لمواجهة خطر من هذا القبيل، لكن يجب التأكيد والتيقن من صحة الخبر، ويجب متابعة السيارة العسكرية عن كثب لمعرفة ما يدور حولنا، فالمكان موبوء بالفيروسات وخفافيش الليل والجيش بإمكانه الوصول بدقائق محدودة، أفراد التنظيم وهم مطلوبون لقوات الاحتلال ومتواجدون في المكان، إذاً هذه فرصة ثمينة للجيش، ويوجد ما يبرر الاقتحام إذا ما علم بوجودهم ونوى ذلك اقتربت دورية الجيش من منزل الشهيد، أمامها نساء وأطفال يتجمهرون، توقفت ثم رجعت للوراء قليلاً واستدارة وإعادة وجهتها إلى حيث أتت، في طريق عودتها دنت ثانية من مكان المدرسة، لكنها مضت راجعة أدراجها.

هَم الناس من خيمة العزاء ليشاهدوا تلك السيارة... أنها الفضولية وحب الاستطلاع، اقتربوا من الشارع الذي تمر فيه، لم يكن بداخلها سوى ثلاثة جنود لا غير، بدأت محاولة لاعتراضها، وقد كانت هنالك رغبة جادة لذلك، إذا إن دخول دورية بهذا الشكل غير المحصن وبعدد قليل من الجنود إلى منطقة واقعة تحت سيطرة السلطة الوطنية كاملة، فهذا يعد فرصة سائحة للانقضاض عليها إذا ما كان هناك الاستعداد والجهوزية والنية لمهاجمتها النوايا كانت متوفرة والاستعداد بلا شك أخذ حسابها في بادئ الأمر، نعم في بادئ الأمر!! لكن المفاجأه التي لم تكن في الحسبان هي سبب الإعاقة في اعتراض الدورية ومهاجمتها، لقد كان لدينا بعض البنادق التي أحضرت معنا في إحدى مركبات التنظيم المتواجدة بجانب خيمة العزاء، وذلك لاستخدامها في حال الضرورة، وفي مثل هذا الحادث الطارئ حيث وجدنا أخوين من أفراد التنظيم قد استغلوا ساعات الهدوء الأولى ولحظات الدفن واخذوا ما كان موجوداً في السيارة دون إشعار أصدقائهم وانطلقوا بسيارة ثانية صوب احد الشوارع الالتفافيه للقيام بعملية ثار وانتقام لروح الشهيد قبل دفنه، كل ذلك حدث دون علم الآخرين، إنما تجلى ذلك من خلال الاستيضاح والاستقرار لحالة دخول دورية جيش التي

وصلت المنطقة ناهيك عن دورية أخرى من مركبتين عسكريتين تبين إنهما كانتا على تنسيق مع هذه الدورية، لكنهما سلكتا طريقاً آخر ووجهة ثانية علهما يلحقان بالفرسان الذين قاموا فعلاً بإطلاق النار على سيارة مستوطن صهيوني لكن إرادة الله لم تشأ لزرعهم ا ن يأتي بنتائج ملموسة مع أَن الدلائل أشارت بإصابة السيارة، وأحداث العملية جرأة وقصد الإخوة الذين لم يأخذوا وقتاً للتفكير والتخطيط بل ذهبوا للتنفيذ حالاً.

لحظات عصبية قد مرت، وحاله من الرعب والحذر لمعرفة حقيقة الأمر والوجهة التي سلكتها تلك المركبات العسكرية وان كان هناك دوريات غيرها في المكان، خاصة من قبل الإخوة المتواجدين في خيمة العزاء والذين باتوا بلا تغطية وبلا عتاد، وما هي إلا دقائق معدودة حيث بدا يسمع زخات الرصاص، أعاد ذلك للأذهان بعض الحسابات وأَثار الخشية والفضولية لمعرفة ما يحدث، والجهة التي يدور فيها إطلاق النار والسبب ذلك، وإمكانية تطور الإحداث، وفصل القرية عن المدينة، هذه الأسئلة دارت سريعاً في عقول الإخوة الذين بقوا بين جماهير المعزين، أخذنا مكاناً جانباً لاستطلاع الأمر واستراق السمع لأزيز الرصاص، ومن خلال التحري والمراقبة السريعة لوحظ أن عملية إطلاق النار تدور في منطقة حاجز الأمن الوطني، التي استقر فيها بعد انسحابه من المكان السابق.

حددنا المكان لكن بقي السبب والنتيجة، وإمكانية النجدة، لم يأخذ ذلك منّا كثير حساب، ولا بّد من التحرك، هرع الناس المتواجدون في الخيمة باتجاه الحاجز دون تخطيط أو استعداد، فالعاطفة هي التي تجرهم إلى حيث مكان إطلاق النار، هناك فقط سيعرفون السبب، الفاصل بيننا وبين الحاجز قرابة كيلومترين أو أكثر بقليل، قد يحتاج وصول الناس على الأقل خمس دقائق، لان الجميع يسيرون مشياً على الإقدام، طلائع الناس وصلت المكان، الأَخبار بدأت

تتوارد، وكل واحد منهم يحدث بأسلوبه وطريقته الخاصة به..... ، تقهقروا... تراجعوا.... نكصوا على إعقابهم... انتصروا... الشباب ما شاء الله عليهم... الرد على النار بالنار... الخ!! وصلنا المكان تأكدنا من الخبر!! الحقيقة إن الدورية الإسرائيلية الثانية والمكونة من عربتي جيب عسكريتين وأثناء ملاحقتها للفرسان، اقترب من حاجز الأمن الوطني، فقام أفراد الحاجز بالاشتباك معهما، وقد تزامن ذلك مع عودة أحد دوريات جهاز أمن الرئاسة "القوة ١٧" العائدة من بيت العزاء باتجاه مقر الأمن في المدينة، فكان وصولها المصادف عامل تنبيه ومساندةً لأفراد الأمن المتواجدين على الحاجز، وبدأت المواجهة، فأجبرت دوريات العدو للعودة أَدراجها بعد اشتباك لم يكن مخططاً له، إلا انه اظهر جانب الحيطة واليقظة والإصرار والتعاون، وتجلت الشجاعة التي تحلى بها أَفراد الأجهزة الأمنية والتنظيم وأهالي المدينة، فقد كان هذا الحادث الأول والأخير الذي تخَلل أيام حفل التشيع والتأبين وبالتالي مّر عرس الشهادة وانتهى على خير وبدون أي إعاقات تذكر.

الفصل السادس

رحلة صداقة

من المهد إلى اللحد

للأسير / خليل محمود يوسف أبو عرام

الفصل السادس:

أعباء جديدة تلقي بنفسها على مجموعة الأصدقاء، فهل يثبتون ويبدون القدرة على التحدي والمواصلة والتصدي في وجه الأعاصير والأشراك التي تحيط بهم، أم ينحنون للعاصفة حتى تمر وتنتهي، أم يعلنون الانصياع ويرفعون الراية البيضاء، فالشهيد الأول في المدينة خلال هذه الانتفاضة قد ارتقى إلى العلى، وأسباب الشهادة جلية وواضحة، واليد التي امتدت إليها كانت بيّنة وماثلة، فالمستعربون الذين وصلوا إليه قد يصلون في أية لحظة لأي شخص من أفراد التنظيم، لكن غير مؤكد ولم يُحسم بعد هو من هو الذي زود قوات الاحتلال بالمعلومات عن مكان وجود الشهيد والزمان الذي تواجد فيه، وكافة التفاصيل الأخرى، فهذا ما زال يكتنفه الغموض والمعروف فقط أن هناك أفراداً من الطابور الخامس قد اشتغلوا شغلهم، واستطاعوا تحقيق خرقٍ ما ونجحوا في الوصول إلى للشهيد، ولكن للوقوف عند الحقيقة بعينها ومعرفة الجناة والوصول إليهم تحتاج إلى كثير جهدٍ وتمحيص، حيث هناك العملاء المكشوفون الذين يمكن التخمين بدورهم ومعرفة مدى خطورتهم وحجمهم وحجم تأثيرهم، إلا أن الخطر الأكبر يكمن فيمن لم يعرفوا بعد ولا زالوا ينتقلون بين ظهرانينا بحرية وسهولة صباح مساء، فالوصول إليهم بدون شك تحتاج إلى وقت وصبر وحكمة ومتابعة وتحرٍ وتمحيص ودقة وخبرة وطول نفس وعدم الوقوع في معوقات قد يضعها جهاز الاستخبارات لإرباكنا وخلط أوراقنا والتغطية على عملائه.

إذاً فمتغيرات جديدة قد حدثت، فالشهيد الأول قد رحل عن عالم الدنيا إلى الرفيق الأعلى وابنه الذي أصيب برصاصة بترت ساقه، حاجز الأمن الوطني تراجع عن مكانه ليأخذ مكاناً آخر، وبالتالي سهّل ذلك على أفراد الطابور الخامس الفارين من تلك القرية إلى داخل دولة الكيان بالعودة والتنقل بحرية ويسر، أفراد الأمن الوطني ومسئولوهم المتواجدون في القرية أصبحوا أمام

الأهالي متهمين بالتواطؤ إلى حين إثبات عكس ذلك؟! فهل نستطيع الوصول للحقيقة؟ وهل هذه غاية أفراد التنظيم؟ وهل فعلاً يمكن الثأر للشهيد أم أنها مجرد لحظات الغليان وثورة الدم وبعدها تعود المياه إلى مجاريها وتسير الحياة وكأن شيئاً لم يحصل؟! هل يصبح دور التنظيم والذي بلا شك ينتهج الخط العسكري وإن كان ذلك في إطار خلايا العمل السري كواحد من أساليب النضال، فهل يقتصر على إحياء حفلات التأبين وحسب؟! .

لم يتوقف أفراد التنظيم في المدينة عامة، ومجموعة الأصدقاء خاصة عن تأدية واجباتهم التنظيمية، في شتى الميادين إلى جانب وقفتهم وعدم تأخرهم عن أخذ دورهم في إحياء حفل التأبين والقيام بعرس الشهيد وواجب العزاء، فكانوا يواصلون جهدهم في مناحي العمل الأخرى شعبياً وتنظيمياً واجتماعياً ونضالياً بلا كلل، ولكن هذا لا يعني أن يتنصلوا من مسؤولياتهم لمعرفة ما حدث ومواطن الخلل والثغرات التي أخذوا منها، وأوصلت المستعربين إلى الشهيد والنيل منه، كي لا يتكرر الحدث ثانية، حتى وإن كان البعض لا يولي هذا الجانب كبير اهتمام، ناهيك عن مسألة الثأر للشهيد.

بدون شك فإن العمل التنظيمي يبقى جهداً جماعياً تراكمياً والأداء فرض كفاية لا فرض عين، خاصة في مجال المقاومة، فإذا قام به فرد تسقط المسؤولية عن الآخرين، لكن لا خير في إجراء المحاسبة التنظيمية داخل الأطر الحركية، وتعرية المقصرين وتثمين الجهد الإيجابي ومن قام به.

تراجع من الأصل قائمة ومحافظة على وتيرتها، إضافة لمحاولات التناوش والاشتباك بين أفراد التنظيم ومناصريه مع قوات الاحتلال ومستوطنيه كلما سنحت لهم الفرصة، وكل جانب يحاول التربص بالأخر وإيقاع الخسائر في صفوفه، وذلك حسب الإمكانيات والجهود المتواضعة المتوافرة بين أيدي أفراد التنظيم لمواجهة المحتل وآلة بطشه وعتاده الحربي المتفوق.

أوار الانتفاضة يستعر ويأخذ بالغليان، وأحداثها تتجه إلى التوتر والتصعيد، ولا بوادر للتوقف أو التراجع أو الحل من قبل قوات الاحتلال وقيادتها في المستويين السياسي والعسكري على حد سواء، وأما شعبنا الفلسطيني فليس لديه خيار سوى الصمود والاستمرار، لأن خيوط الحل بيد حكومة الاحتلال التي تستبيح الأرض والسماء وتملك موازين القوى المادية والعسكرية، فها هي الانتفاضة تدخل عامها الثاني وشباب التنظيم على نفس العزم وبنفس الهمة والإِصرار، لكن ما طرأ من تطورات هو معرفة المخابرات الصهيونية لأسماء بعض المناضلين، فأصبحوا في أعداد المطلوبين لقوات الاحتلال، وبالتالي صار المطلوب منهم يتوخى الحيطة والحذر في أثناء تنقله وتحركاته وتحركهم فجيش الاحتلال لن يتورع عن قصف وتصفية أي مطلوب أو اعتقاله إذا ما حدد مكان تواجده.

قوات الاحتلال باتت تعسكر على مشارف المدن والقرى وتضرب عليها حصاراً جائراً، وتقطع أوصال التواصل بين كل مدينة وقراها وبين المدينة والمدن الأخرى وتستعد لاجتياحها واحدة تلو الأخرى، ولم يكن حال مدينتنا بأحسن حالاً أو بمنأى عن الاجتياح وعما يحدث حولها من أحداث، ففيها عدد من المطلوبين البارزين.

وقد توجهت حكومة الاحتلال بطلب للسلطة الوطنية كي تقوم بتسليمها المطلوبين أو احتجازهم في سجون السلطة الوطنية، نحن نعلم أن السلطة الوطنية محكومة باتفاقية إعلان المبادئ ومن ضمن بنودها ما يجيز للطرف الآخر بالتوجه بطلب احتجاز بعض المناضلين إذا ما شعرت أنهم يشكلون خطراً على الجيش والمستوطنين وكذلك القيام بالمطاردة الساخنة لبعض الحالات النضالية في تلك القرى أو المناطق التي تخضع للولاية الجغرافية التامة للسلطة، لكن ليس في مثل هذه الظروف الحرجة التي يتخذ فيها كل طرف تدابير

الوقاية والحذر فالطرف الآخر هو من اخترق الاتفاقية، بل المستوى السياسي نفسه من بادر بخرقها، فهل تلتزم السلطة بالمطلوب منها بهذا الشأن؟! أم أنها ستغض الطرف وتمرر الأمر، مع الإشارة إلى هؤلاء المناضلين لأخذ حذرهم؟! أو تخيرهم إذا ما رغبوا بتسليم أنفسهم للأجهزة الأمنية أم لا، لكن فيما لو أقدمت السلطة على وضعهم في احد مقراتها، فهل تضمن السلطة سلامتهم وعدم قيام إسرائيل باجتياح المكان واعتقالهم أو قصفهم بالطائرات؟! ألم تقصف سجن نابلس بطائرات "F16" للتخلص من مطلوبين كانوا محتجزين فيه، واقتحمت سجن أريحا واعتقلت المناضل فؤاد الشوبكي والقائد سعدات ومن معهم من كوادر ومناضلين، رغم وجود ضمانات دولية؟! وهل تستطيع السلطة حماية أفرادها لو قررت إسرائيل اجتياح المنطقة؟!

الأمر خطير وحساس وبحاجة لأخذ قرار مصيري من قبل هؤلاء الأخوة، فهم أصحاب الشأن، فهل يقبلون تسليم أنفسهم للسلطة؟! فهم يعلمون الوضع جيداً وما سيترتب عليه، أم أَنهم يفضلون العيش كالنسور فوق قمم الجبال؟! إلى حين ينظر الله في حالهم، وهل يأمنون مكر الاحتلال الصهيوني وغدره، وبالتالي يقعون بين تأنيب الضمير من ناحية، واتهام السلطة من ناحية ثانية، أم يتولون أمرهم بأنفسهم ويرضون بما يحمله القدر من خير أوشر؟! ويكون حالهم بذلك حال من استشهدوا أو وقعوا في الأسر، لكنهم يبقوا رهن الحرية ما شاء الله لهم ذلك.

أوقات الشدة تظهر معادن الرجال، وتتجلى الشجاعة ويصدر القرار المسؤول، ففرساننا أصحاب تجربة نضالية واعتقالية، ويعرفون طبيعة المحتل ويعلمون أن مطالبه لن تتوقف عند حد احتجازهم لدى السلطة الوطنية، ولا يريدون الدخول في دوامة إلقاء اللوم أو الندم لذلك كان الموقف الجلي لن نستسلم ولن نسلم أنفسنا، ولسنا بأفضل ممن استشهدوا فغايتنا الشهادة أو النصر، ولن

نحيد عن طريق اخترناه طوعاً وبمحض إرادتنا، هكذا كان الرد، سنبقى على درب الشهداء ماضون ولعهدهم حافظون ويهديهم ومسيرتهم مقتدون إلى أن ينظر الله في حالنا، ولن نكل أو نلين، هذا ليس حال الأصدقاء وحدهم بل حال كل الذين ساروا على ذات الدرب في هذه المدينة وغيرها، فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً...

نعم هناك من ارتقى شهيداً ومن وقع في الأسر، لكن لم يغير ذلك من أفكارهم ولم يؤثر على قرارهم، بل زادهم إصراراً على إصرار، فلم يسلم أحدٌ منهم نفسه للسلطة كما أن أفراد الأجهزة الأمنية وللإنصاف لم يدخروا جهداً في تحذيرهم ومساندتهم بقدر الاستطاعة وحسب الإمكانيات المتوفرة سيما وأن أغلب أفراد الأجهزة هم على علاقة صداقة وتعاون مع أفراد التنظيم، علاوة على أنهم ابناءٌ للوطن والشعب ومناصرون للتنظيم.

وتسير الأيام، وحالة المنافسة التنظيمية على أشدها، فالكل يريد أن، يكون السباق، ويحاول الاجتهاد من طرفه ويعمل، لكن النتائج مرهونة بيد الله، نحن علينا الزرع وإنما نماؤه وثمره بيد الله سبحانه وتعالى، ولكن أيضاً لا بد من الأخذ بالأسباب قدر الإمكان انطلاقا من قوله تعالى: ﴿**وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون**﴾ (التوبة ١٠٥)، وكذلك الحديث القائل: "من عمل منكم عملاً فليتقنه".

ونشهد حالة من التقارب في وجهات النظر بين مجموعة من أفراد التنظيم، وتُشكل بعض خلايا ومجموعات التنظيم، حيث بدأوا التفكير بطريقة أكثر جدوى علّها تؤتي ثمارها، شرعوا بالترتيب لبعض العمليات الفدائية، الشهيد ارتاح في ضريحه تحت الثرى، وروحه تعلق في عنان السماء، لكن من بقي حياً عليه مسؤوليات الوفاة لروح الشهيد ودماء من سبقوه على الدرب، فهل يقفون عند هذا الوعد أم يتركون الأمر ويصموا آذانهم ويغضوا أبصارهم، يمضي الشهر الأول

ويحل الثاني على غياب الشهيد، لكن وعد الحر دين عليه، فهل يبقى الإصرار بدينهم؟! مهمات كثيرة وضعها الفرسان نصب عيونهم وتنتظر التنفيذ، ولا بد من الوفاء بها أو بالنزر اليسير منها، فهل يحدث هذا؟!

مجموعة الأصدقاء كما أسلفنا منقسمة إلى جماعتين، وذلك حسب الجيل ليس إلا الجيل الأول هو صاحب القرار التنظيمي في الميدان، ويعود ذلك إلى كون أفراده يمثلون أعضاء ولجان المواقع التنظيمية والكادر صاحب التجربة لذلك أخذوا هذا الدور، دون الانتقاص من أدوار الآخرين، فيما الجيل الثاني ليس أقل أهمية فهو العنصر الفني والذراع الضارب والوريث التنظيمي المستقبلي الذي سيحمل لواء المسؤولية والقيادة، ومن هنا نجد أن لديه حالة من الفضولية وحب الاستطلاع، لمعرفة ما يدور في الجلسات التنظيمية المغلقة من قرارات ناهيك عن امتلاكه لعزيمة شبابية عالية وانفعالية كانت توصل النقاش إلى حالة من الجدية والمناكفة في بعض الأحيان، ولاسيما وأن الأكثر شبابية يعرف العمل التنظيمي بالعمل العسكري وليس دونه، وهذا سبب بعض الخلاف في وجهات النظر في كثير من الأوقات، والحل الملائم لهذا هو إيجاد وسيط يمسك العصا من وسطها ويحافظ على شعرة التواصل بين الجيلين، بحيث لا نخسر عناصر القيادة التنظيمية الميدانية، الذين يميلون للعقلانية والتوازن وتحمل أعباء المسؤولية والإدارة ولا نفقد العنصر الشبابي النشط والفاعل في الميدان العسكري لكنه يميل للانفعالية والتسرع والتعامل بردات الفعل بعيداً عن عمق التفكير أحياناً، كل ذلك كان سبباً للقاء بين كادر وأعضاء أكثر من موقع تنظيمي داخل المدينة، ممن تلاقت بينهم الأفكار وتوحدت المواقف والغايات.

وبدون شك فإن حالة التنافس والتعدد في وجهات النظر والاجتهادات قد فتح مجالاً لتداول الآراء وتلاحمها، وبخاصة في مجال النضال والعمل العسكري، الذي كثيراً ما كان يفتح، لكنه لا يرقى إلى ذروة أخذ القرار الفعلي

بالقيام بعملية هجومية بقدر ما يرتكز على حالة الدفاع والتصدي لأي خرق من قبل قوات الاحتلال، إذا ما حاولت التوغل داخل المدينة، وذلك بالمواجهة والاشتباك معها، وكثيراً ما كان يحدث ذلك، لا سيما أن قوات الجيش قد حاولت التوغل مرات عديدة من أكثر من مدخل والمناورة وجس النبض ومعرفة نقاط الضعف.

لم يتوان شباب التنظيم من القيام بواجب الدفاع والمقاومة، حيث كانوا على جاهزية واستعداد تامين ودائمين، كما هب أهالي المدينة ولم يتأخروا ولم يبخلوا في المساندة والمساهمة في مواجهة القوات الغازية، وللحقيقة نقول إن مشاركة الأهالي والتي كانت تأتي غالباً بلا تخطيط إلا أنها كانت ذات مغزى وفائدة عظيمة في نفوس شباب التنظيم ومناراً للعز والفخار، ويستحضرنا بعض الأمثلة العظيمة بعظم أصحابها، وليس ذلك للحصر بقدر ما أننا نستشهد بما شاهدناه ولمسناه بأنفسنا في أثناء مشاركتنا في تسطير هذه الأحداث، وما حملته تلك الأمثلة من تضحية وفداء وشجاعة وافرة وشهامة، وللتعريف سنورد أسماء لهؤلاء العظماء بالحرف الأول توخياً للحيطة والضرورة الأمنية على الرغم من أنهم معروفون بين مناضلينا وأهالي مدينتنا ويكن الجميع لهم التقدير والاحترام.

أما الحدث الأول فهو لأحد رجال المدينة وكبارها ويحظى بسمعة طيبة وذي ماض نضالي واسمه أ. م. أ. ق ففي إحدى الليالي وفي ساعة متأخرة من الليل، سمع صوت إطلاق نار وأزيز رصاص كثيف في الاتجاه الغربي للمدينة، جاءت اتصالات النفير والتحذير، والتي لم يتوان كل من يشاهد أو يعلم بدخول قوات الجيش المدينة، أو يسمع باشتباكات أو صوت أعيرة نارية من القيام بالاتصال مباشرة مع شباب التنظيم محذراً ومستفسراً وهذا طبعاً أسلوب اعتاد عليه المواطنون كمشاركة وجدانية وحالة من التعاطف الجماهيري مع شباب

التنظيم الذين يهتمون بذلك ويستقبلون الأمر برحابة صدر وبتقدير لهذا الدور المهم، وكالعادة يسارع كل منهم بالوصول للمكان الذي تدور فيه الأحداث، وحال ما وصلوا المكان بسياراتهم وأخذوا أماكنهم وجدوا هذا المناضل المسن قد سبق كثيراً من الشباب في تأدية الواجب وتواجده معهم في المكان حيث كان يحمل على كتفه بندقية كارلو بور سعيد ويتوسط الشباب ويطمئن عليهم ويسأل عن الأوضاع، هذا عدا عن مواقف أخرى يكن له عليها الاحترام والتقدير إذ كانت له إسهامات جلية في الدفاع عن مواقف التنظيم وحل بعض الإشكالات العشائرية في المدينة.

أما القصة الثانية فهي مختلفة وتحمل الغرابة لندرتها ولما تحمله من أثر وتحمل لأعباء التضحية، فهي قصة رجل كان قد تجاوز الثمانين من عمره آنذاك ثم انتقل بعد أعوام إلى رحمة الله تعالى، واسمه الحاج "ع. أ. ر"، وهو رجل مستور الحال وفي إحدى المرات التي اقتحم فيها الجيش أحد مداخل المدينة الشمالية، واشتبك مع شباب التنظيم، فشاهد هذا الرجل المشهد فعز الأمر في نفسه وخدش كبرياءه فهو كبير السن ولا يملك بندقية، كما لا يتوافر لديه المال لشرائها، والناس تقارع المحتل، وهو يقف عاجزاً عن فعل شيء، تذكر بذلك أيام شبابه ناسياً أنه شيخ هرم. وفي اليوم الثاني ذهب إلى صديق له من أبناء جيله يبث له أحزانه ويشكو له همومه وما حل به ويبحث عن بندقية عله يستعيرها أو يشتريها إذا ناسبه الأمر وتمكن من دفع الثمن، ولحسن حظه وجد أحد شباب التنظيم حاضراً عند صديقه، وقد أثر ذلك الموقف في نفسه فوعد بمساعدته للحصول على بندقية حتى وإن كانت من نوع قديم، وفعلاً بعد مرور عدة أيام أحضروا له بندقية متواضعة الحال والجودة وكان إصراره أن يدفع ثمنها من ماله الخاص، حيث قام بتقسيط ثمنها الذي كان متواضعاً فدفع بدلاً من النقود كمية من الرصاص كان يجمعها أبناؤه من خلف معسكرات الجيش ومن مكب النفايات في المدينة، تأتي إليه سيارة الجيش لرمي نفاياتهم حيث

كان له أبناء فتية من زوجة ثانية كان قد تزوجها في سن متأخرة، فيعملون على جمع المعادن والخردة وبيعها ليعتاشوا منها، وعند سؤال هذا العجوز عن سبب طلبه للبندقية أجاب قائلاً يا عم أترضى لي أن أرى الجيش يدخل بلدنا ويدنس أرضنا ويدوس كراماتنا ويقتل أبناءنا أمام أعيننا وأنا أقف بين النساء عاجزاً عن مقاومته.

أما الحكاية الثالثة فهي حالة مغايرة تماماً عن سابقتها، وقد تثير الغرابة بسبب جرأة أبناء التنظيم وقدرتهم على حبكها والموافقة على القبول بحدوثها وضبطها إذ يدور الحديث فيها عن رجلين في الخمسينيات من عمريهما وهم اثنان من عائلتين لا تربطهما روابط قرابة بل على العكس من ذلك توجد بينهم عداوة وثأر، وذلك لمقتل قريب لأحدهما على أيدي أقارب الآخر، وهذا معناه في القانون العشائري أن من يقع في طريق الآخر فهو هدف للثأر منه، لكن لدى الاثنين رغبة جامحة للقيام بواجب الدفاع عن وطنهما والسير مع أبناء التنظيم، كما هو حال الكثيرين من أبناء المدينة، وقد أعربوا عن رغبتهم بذلك وأخبروا بها مجموعة الأصدقاء الذين استجابوا لطلبهم وقبلوا انضمامهم، خاصة أن كل واحد منهما له علاقة صداقة مع بعض من أفراد التنظيم، هذا ناهيك عن امتلاك كل منهم لبندقية وهذه فرصة مواتية لمجموعة الأصدقاء للموافقة، قبل الأصدقاء انضمام الرجلين لورديات السهر الليلي لكنهم رتبوا لذلك ترتيباً خاصاً إذ جعلوا الاثنين منفردين فكل منهم سيكون في سيارة من سيارات التنظيم ومعه مجموعة من الأصدقاء كما أن الكل منهم سيكون ملثماً بقناع أو كوفية، وينادى باسم حركي ما عدا بعض الأخوة الذين يوكل لهم دور التنسيق، وحالما يتم التقاء السيارتين، يكون كل منهم مع جماعته وفي سيارته وعلى جهة منعزلة ومحوطة بأعضاء التنظيم دون علمه، هكذا كانوا يلتقون في خدمة الوطن وهم لا يعلمون عن بعضهم مع أنهم يجوبون الأرض بحثاً عن بعضهم بعضاً، للثأر من بعضها فيما لا يدرون أنهم يتجولون في الوردية نفسها.

وهناك العديد من المواقف والقصص، التي كانت مَضْرباً للروعة والفخار، وبث العزيمة في نفوس أبناء التنظيم لدرجة أننا كنا نقف عاجزين عن تقديم الشكر والثناء لهم على ما مدونا به من عزم ومعنويات، وبسبب وقفات الشهامة الرائعة التي وقفوها، لكن أيضاً كان هناك بلا شك النقيض، وهذا ليس غريباً عن واقع مدينة يزيد عدد سكانها عن المائة ألف نسمة، ولا سيما أن وجود النقيض ونقيضه هو من سمات الخلق في الأشياء لكنها حالات فريدة، ولا نبحث عنها كونها ليست عنوان حكايتنا.

ولا ننسى حكاية ذلك الوالد المسن، والد أحد أفراد التنظيم وكوكبة الأصدقاء، والذي كان عمره ينوف عن الثمانين عاماً، فحينما كان يجتمع شباب التنظيم ومجموعة الأصدقاء أمام منزله ليلاً، وكثيراً ما كان يحدث ذلك، فكان يقول لهم اذهبوا لأخذ قسط من الراحة والنوم، وأنا علي السهر هذه الليلة ولا تخافوا، حيث كان يأخذ بإحدى البنادق وغالباً تكون من النوعيات القديمة لرغبته في هذه النوع من السلاح الألماني، ويبدو كأنه عاد شاباً من جديد، فتبدأ عملية المزاح وإلقاء النكات عليه وعلى كلماته الطيبة وروحه الشبابي وسعة صدره رغم كبر سنه.

كل هذا حدث وأكثر ناهيك عن الأدوار التي كانت تأخذها بعض الأسر المستورة الحال، والتي كنا نختلف معها على السخاء والكرم الذي كنا نرفضه رأفة بحالتهم المادية، إلا أنهم كانوا ينزعجون ويغضبون بل يصرون ويرفضون الاستجابة لرجائنا لهم قائلين: يا بني حضور الضيوف من نصيب الضعوف "أو العيال" أي الأبناء وهذا من واجبكم، وكل بيت من البيوت التي كنا ندخلها له حكاية وحكاية، وكان الناس يتنافسون لتوفير مكان لنوم أفراد التنظيم المطاردين وإكرامهم، وكأنهم فعلاً ضيوف أعزاء، هذه أمثلة حية كنا نلمسها في

مدينة الكرم وبلد الشهداء، ولا يمكننا أن ننسى هذا الطيب والحفاوة والمعروف التي أحاطنا بها أهلنا في مدينة يطا.

وكما أسلفنا بالذكر فإن حالة التنافس بين الفريقين، قد ولدت مجالاً أوسع للحديث ونقاش الخيار العسكري كخيار مساند للعمل التنظيمي، بحيث يحمل في طياته التناوش ومهاجمة قوات الاحتلال والمستوطنين ومحاولة إيقاع الخسائر في صفوفهم، من خلال عمليات أي نتيجة ملموسة، لا في الأرواح والاحتكاكات مع العدو هنا وهناك، حالما كان يتوغل الجيش فالشباب أكثر مغامرة من غيرهم ويريدوا الخروج دون التفكير بعواقب الأمور، سيل من الأفكار انهمر، وبدأت تطرح الخطط وتقي الأحاديث للنقاش بهذا الشأن، ولكنها تثير الرغبة والحمية والنخوة نحو هذا التوجه، كأن يقول أحدهم أنا مستعد أن أصل النقطة كذا فقط أعطوني بندقية.. وآخر يقول أنا أستطيع عمل كذا وكذا وما أريده هو وسيلة نقل وبعض الوسائل القتالية.. وآخر.. وآخر، هذه منافسة بانت جلية وبدا فيها من روحيه التحدي والمغامرة والإصرار والجود بالروح الكثير وقد جاءت أحداث تفرض بنفسها على شباب التنظيم وتستدعي منهم القيام برد مناسب، ومنها على سبيل المثال ما أسلفنا به استشهاد المناضل الدبابسة، ولم يأخذ بثأره بعد، إضافة للعديد من الشبان الذين أصيبوا أثناء المواجهات ولم توقع لغاية الآن أي خسارة في صفوف الجيش ومستوطنيه على الأقل كرد من أبناء حركة فتح.. التنظيم في هذه المدينة.

التنافس في العمل قائم على أشده والكل يسعى لأن يكون غرسه أفضل، لكن يبدو أن إرادة الله لم تشأ بعد، وبين زحمة الأفكار ولجة التنافس، يأتينا اتصال من إحدى المجموعات العاملة في محافظة أخرى من محافظات الوطن تدعونا للعمل معاً، وتطلب منا القيام بعملية خلال أربع وعشرين ساعة كحد أقصى، اعتبرنا ذلك بداية تنسيق جيد، ويمكن أن يسهم بتعزيز الجبهات، ويشكل

فاتحة خير للانفتاح على المجموعات العاملة الأخرى، لكننا لا ندري ماذا يحمل لنا القدر بهذا الانفتاح، وإن كنا على ثقة عالية بالشخص الذي أجرى الاتصال معنا، اتفقنا معه على ذلك، وأخذنا الأمر على محمل الجد، وبدأنا التحرك في هذا الإطار، وانهمكنا بالبحث عن الوسائل التي سنحتاجها لإنجاز المهمة المطلوبة، لا سيما أنه ليس لدينا ما يكفي في ظل الإمكانات المادية وندرة الوسائل.

كل ذلك كان يمكن تخطيه وتحصيل ما نريد، إلا أن ما وقع كان خارج الحسابات والتوقعات، بل وضعنا على المحك من البداية لنمتحن صبرنا وقدرة تحملنا وردة فعلنا ومدى تعاطف الناس معنا مع بدء الطريق، حاولنا الخروج من مأزق شح الإمكانات، ببيع بندقية أحد أفراد المجموعة وهي من نوعية ثمينة واستبدالها ببندقتين من نوعية أخرى أقل ثمناً، وبهذا نتمكن من تسليح أخوين لكن ذلك كان يتطلب بضعة أيام، والسعي للحصول على الوسائل في ظل مرور الساعات التي حددت بعضنا أمام تحدٍ، ويزج بنا في إطار العمل غير المحسوب، وفي هذه الأثناء الحرجة حاولنا الحصول على مسدس من أحد المواطنين، أردنا تنفيذ مهمتنا به، إلا أن العجلة حملت لنا الألم والندامة، حيث انطلقت رصاصة خطأً لتخترق جسد أحد أفراد مجموعة الأصدقاء، لقد شكل لنا هذا الموقف عقدة ذنب ومثل أصعب أدق اللحظات التي وقفها الأصدقاء أمام المشهد الذي بدون شك سيبقى ماثلاً أمام الأخوين الذين وقعا في هذا الخطأ سواء المصاب أو الذي انطلقت من يديه الرصاصة، سيما وأن الرابطة التي تربط الأخوين هي علاقة الصداقة ورابطة الدم والقرابة من الدرجة الأولى، وهذان ضاعفا الألم وعمقا الجرح، ناهيك عن الموقف الرجولي الذي أبداه المصاب مسجلاً موقف عز وفخار عز نظيره ثم أسعف المصاب لإجراء العمليات الجراحية اللازمة لإنقاذ حياته، وكذلك إبلاغ الجهات الأمنية التي قامت بالتنسيق بما حدث والجهات التنظيمية المسئولة، وأجل العمل إلى أجل غير مسمى.

ويأتي شهر شباط من عام ٢٠٠٢ ذو الأجواء المتقلبة ليحمل لنا في سحبه المائلة للدفء بشائر أمل جديدة علها تحيي بداخل نفوس الأصدقاء الشعور بالراحة والنصر، وذلك حينما قامت إحدى مجموعات العمل بتنفيذ عملية إطلاق نار أثناء تجاوز سيارة إسرائيلية على الشارع الالتفافي المؤدي لإحدى المستوطنات التي أقيمت على أراضي المدينة، لكن هذه المرة كانت النتائج مختلفة عن سابقتها، إذ جادت باكورة العمل المشترك بإصابة اثنين من المستوطنين، حيث حدثت هذه العملية بتاريخ ٢٢ شباط- ٢٠٠٢ حين قامت مجموعة من الأخوة مقسمة إلى ثلاث خلايا وكل خلية تستقل سيارة، السيارة الأولى يستقلها أحد الأخوة غير المطلوب في حينه ومهمته السير على الطريق الالتفافي لاستطلاع واستكشاف الطريق والمنطقة ورصد الهدف، والإيعاز للفريق في السيارة الثانية والتي يتكون طاقمها من أخوين اثنين حيث سيكون دورهم التجاوز عن الهدف وإطلاق النار عليه من نقطة التجاوز، فيما الفريق الثالث كان مكوناً من أربعة أخوة، يكونون على مسافة للمتابعة والنجدة في حالة حدوث أي طارئ، وقد كانت هذه العملية الأولى من نوعها في المدينة وبداية تنسيق مثمر بين خلايا العمل الميداني.

تحركت السيارة الأولى كما حدد لها تماماً، مروراً بنقطة الانطلاق والعودة على الطريق الالتفافي، لكنها لما تلق شيئاً يعوق الحركة على الطريق، ولم تلقها أي سيارة، إلا أن فريق التنفيذ في المركبة الثانية أبى العودة دون القيام بواجبهم وعلى أكمل وجه فانتظروا سيارة كانت تلحق بهم من الخلف شاهدوها عبر مرآة سيارتهم، خففوا السرعة إلى أن لحقت بهم وتجاوزت عنهم، تأكدوا من هويتها فقاموا بإطلاق النار عليها من خلفها لأنها أصبحت تسير أمامهم وهم من خلفها في عملية مطاردة أصابوا اثنين من ركابها بجروح متوسطة، حيث إن إرادة الله ثم نوعية السلاح، التي أعاقت الاستخدام بسبب عدم معرفة أحد الأخوة بالاستخدام الأمثل والمناسب لتلك البندقية، حالا دون إمكانية تحقيق

النتيجة المرجوة والمفضلة لديهم، وعاد الفرسان إلى نقطة الانطلاق بهدوء وسلام ودون إثارة أي شكوك فيما كان سلاحهم في هذه العملية مسدساً وبندقية كارلو بور سعيد قديمة.

ومع أن هذه المرحلة من الانتفاضة قد شهدت غزارة في العمل، لكن النتائج كانت شحيحة ولم ترق للمطلوب، حاول الجيش مراراً التوغل إلى داخل المدينة لكن خطة سيره كانت مقطوعة، ولم تبلغ هدفها بسبب يقظة المواطنين وإصرار شباب التنظيم على التصدي والاشتباك معهم، وقد كانت هناك بعض المحاولات الجادة التي حاول فيها العدو ضاغطاً علّه ينجح في التوغل ويحدث اختراقاً، إلا أنه تفاجأ بمقاومة باسلة وعناد عنيف وثبات على المقاومة وكثافة نيران أجبرته على التراجع وجر أذيال الفشل، وربما يمكننا القول بهذا الصدد ولا نبالغ في ذلك بأن شدة المقاومة وغزارة النيران قد انعكست بذاتها على قرارات العدو واستدعت حكومته ورئيس أركانها آنذاك شاؤول موفاز بأن يعتبر من تلك الحادثة ويدخل بقوات معززة وكبيرة بل ومبالغ فيها يوم الاجتياح في السادس من نسيان ٢٠٠٤، لكي لا يقع في شرك كذاك اليوم الذي واجهت فيه قواته شراسة وتحدي أهالي المدينة، وقد صرح حينها موفاز قائلاً أن مدينة يطا تعد مخزن بارود فيها كميات كبيرة من الأسلحة، ولا بد من التعامل معها بحزم وبصورة مغايرة كما هو معهود في المحافظات والمدن الأخرى.

هكذا كانت عليه الصورة في المعركة الأولى حيث شعرنا أن العدو بات يحشد جل طاقاته ويعد خططه لاقتحام المدينة، وقد تجلى ذلك حينما حاول رتل من الدبابات التوغل داخل المدينة من أحد مداخلها الغربية، وكان ذلك في ساعات الليل الأولى، انتشر الخبر بوجود حشود لقوات الاحتلال واقترابها من ذلك المدخل، فسرعان ما هب سكان المدينة وشباب التنظيم ليواجهوا جيوب تلك الجهة للدفاع والمقاومة، وقد دار اشتباك عنيف، خاصة وأن قوات الجيش كانت

في منطقة مكشوفة منخفضة، فيما أهالي مدينة بين المساكن الكثيفة وعلى منطقة مرتفعة وأكثر تحصناً، وشرعوا بإطلاق النار بغزارة على قوات العدو التي بادلتهم النيران برشاشاتها لكن يبدو أن ساعات الليل فسحت المجال لكن من يملك قطعة سلاح من أهالي المدينة بغض النظر عن دافع امتلاكه سواء كانوا تابعين للتنظيم أم لا، أن يخرجوا سلاحهم ويشتبكوا مع الجيش جنباً لجنب مع كل شباب التنظيم، مما خيل للكثيرين وللبلدان المجاورة أن جبهة حرب فعلية قد فتحت على المدينة، استمر إلى ساعات الفجر حيث اضطرت قوات الاحتلال لاستدعاء مروحيتين لإسناد القوات الأرضية والراجلة لإخراجها من المأزق، لكن توقف الاشتباك بعد اختفاء شباب التنظيم وكل المسلحين وانسحاب الغزاة وعودة قواتهم أَدراجها.

أما المعركة الثانية فقد كان لها وقع خاص وشعرت فيها قوات الجيش بأزمة حقيقية، حيث توغلت الآليات العسكرية من المدخل الشمالي للمدينة، وتجاوزت المسموح به قانونياً، وفق تصنيفات الحدود والولاية على الأرض في اتفاقية إعلان المبادئ، تصدى أحد أفراد الأمن الوطني بطلقات تحذيرية لإيقافها، توقفت ثم تراجعت لكن انضمت إليها المركبات وعاودت من جديد، في هذه الآونة كان أفراد التنظيم قد علموا بالأمر وتوجهوا إلى المكان الذي دخلت منه تلك الآليات، كان المساء قد حل ودار اشتباك عنيف، لدرجة أن تلك المصفحات أرغمت على التراجع والتقهقر أمام ضراوة النيران المنصبة عليها لكن هذه المرة حدث ما لم يحدث في المرة السابقة فقد قام المعسكر الرئيسي على قمة جبل "تل زيف" الواقع على مدخل المدينة والكاشف للمنطقة جميعها بإطلاق ثلاث صورايخ لاوْ على شباب التنظيم المتواجدين في المكان، ويديروا الاشتباك ومعهم بعض أفراد الأمن الوطني، لم يقهم شر ذلك الخطر وتلك الليلة إلا عناية الله ورعايته، التي حمتهم من الإصابة بتلك الصواريخ التي أصابت بعض المنازل والممتلكات، التي كان أصدقاؤنا يتخذونها سواتر ويتخفَّون بجوارها لحظة الاشتباك.

لم تكن هاتان الحادثتان هما الوحيدتان، بل هناك عمليات اشتباك طويلة وعديدة دارت وكان فيها مجموعة من الأصدقاء، وأحيانا دارت مع خلايا العمل الأخرى في المدينة، ومعظمها كانت تظهر بسالة أفراد التنظيم والأجهزة الأمنية المشاركة، ولكن ربما أن العمليتين المذكورتين استدعيتا المشاركة التنظيمية والشعبية معاً، وكان الاحتلال هو من حاول التوغل، وليس شباب التنظيم هم من ذهبوا للاشتباك معه حسب ما هو معهود ومتعارف عليه لدى أفراد التنظيم وخلايا العمل التي تذهب إلى نقاط التماس للتناوش والاشتباك مع قوات الاحتلال.

أصبحت السخونة في المواجهات عنوان المرحلة والسمة المميزة التي تلقي بظلالها وتفرض نفسها على الساحة، وأضحى الأمر بحاجة للدراسة والتخطيط والحكمة، ولم يعد الحال كما كان عليه في البداية، إذ إن الجيش أصبح يأخذ زمام المبادرة في محاولات التوغل، وكأن هناك بوادر أو نوايا جدية، بل أوامر عليا في كافة المناطق الخاضعة للسلطة الوطنية والمصنفة بمناطق (أ) واستباحتها، كما أن عمليات الاستهداف للناشطين والمقاومين في مدن الوطن وقراه كافة أصبحت جلية، لا سيما أن جميع التنظيمات قد انخرطت في النضال، وحالة التنافس فيما بين التنظيمات وقدرتها على إيقاع أكبر الخسائر في صفوف الأعداء صارت على أشدها، وتوجت ذروتها فيما عرف بالعمليات الاستشهادية داخل فلسطين المحتلة عام ١٩٤٨ سواء باستهداف للحافلات أو مواقع الجيش أو التجمعات العامة، والتي جاءت كنتاج لإعادة شيء من توازن الرعب، وكرد على المجازر المرتكبة وعمليات الاستهداف الواضحة في اغتيال وتصفيات أو اعتقال الأفراد والمجموعات شبه اليومية حيث بات لا يخلو يوم إلا ويكون فيه شهيد أو مجزرة إثر القصف الصهيوني لهذه المدينة أو تلك فيما الجرحى والاعتقالات جارية على قدم وساق.

وأمام سخونة الأحداث وحجم الاستهداف المتصاعد للمناضلين، ازداد عدد المطلوبين لقوات الاحتلال، وأصبح من الضرورة بمكان إتباع إستراتيجية وقائية جديدة لتأمين حياتهم وضمان الاستمرارية انطلاقاً من مفهوم أن النجاح ليس فقط في إيقاع الخسائر في صفوف الأعداء، وإنما في ديمومة التواصل النضالي والمد الثوري وإرباك العدو، وعدم تمكينه وإعطائه فرصة تحقيق نجاحات سواء في إلقاء القبض عليهم أو تصفيتهم أو الوصول إلى مرحلة إخماد الانتفاضة.

لا شك في أن ما حمله الواقع من مخاطر جمة وصعوبات استدعى قدراً من الدقة في التحرك والتنقل والاختباء من طائرات العدو حينما تجوب سماء المنطقة، والابتعاد عن عيون الطابور الخامس وأعوانهم واتخاذ وسائل وإجراءات الحيطة الأمنية والحذر التام، كما يتطلب الأمر ضرورة الحفاظ على سيرة وطنية وأخلاقية حميدة كونها تورث حالة من التعاطف معهم والإقتداء بهم من قبل الناس ولتترك أثراً طيباً في نفوس جيل الشباب الذي إن لم يتحرك للمقاومة بروحه الوطنية الأصيلة، فإنه بلا شك سيتحرك بدافع الغيرة والعاطفة الجياشة والعلاقات الشخصية التي هي أقصر الطرق، وسرعان ما تتحول هذه الهبات العاطفية إلى دافعية نضالية ذات انتماء وطني متأصل.

حقيقة الأمر فإن ما ينطبق على كوكبة الأصدقاء ليس بمعزل عن حال الآخرين من المناضلين، فقد أصبح جزء منهم مطلوباً لقوات الاحتلال، ويعيش حياة المطاردة خاصة أولئك الذين كان لهم سوابق أمنية إضافة لنشاطهم الملحوظ الذي شكل نقطة إضافية أخرى لجعل سلطات الاحتلال ومخابراته تسلط الأضواء عليهم فيما البقية الأخرى غير متقنة الاستهدافية أو عدمها إلا أنها تسير في دائرة الخطر، وتحوم عليها شبهات الاستهدافية ولذلك فلا أحد يعلم سوى أن الكل في دائرة المطاردة والملاحقة الأمنية وإن تباينت درجات الأهمية والخطورة، وبالتالي مطلوب منهم غرس ثقافة المقاومة في أذهان الأجيال

الناشئة كما هو الحال لدى الآخرين لحمل لواء النضال والتواصل كونه ممثل التحدي الأصعب للمحتل الذي يعني ذلك جيداً وقد عبر عن ذلك أحد المفكرين الصهاينة (ألون ألموفيتش/ إسرائيل اليوم) قائلاً: "ما لم يسد السلام منطقتنا فسيوجد رجال منظمات دائماً وحتى لو اعتقلنا جزءاً فسينشأ آخرون كالقطر بعد المطر". كما إن اختلاط الدم بات يشكل رسالة وثقافة جديدة ووحدوية، فالدم الفلسطيني واحد بغض النظر عن الانتماءات السياسية أو الجغرافية، ولا يجب التفرقة بين شهيد وآخر بسبب انتمائه أو مكانته الاجتماعية أو القيادية أو الموقع الجغرافي والأصل في الأمر السير على خطى الشهداء متوحدين ما دام الجميع يسير في الطريق ذاته، والهدف جدير بالإشارة أن المدينة شهدت افتتاح فرع جامعة القدس المفتوحة عام ٢٠٠١ مما ساهم بإثراء الحالة الوطنية ورفدها بكوادر ومناضلين، وسهل من عملية التواصل بين الأجيال الناشئة والفتية من أبناء المدينة، والبدء بحملة من التعبئة والتوعية الوطنية وإثارة النقاشات السياسية، التي من شأنها أن تحيي الحس النضالي، وتنميه في عقول جيل الشباب الواعدين ونفوسهم، خاصة وأن عدداً من الأصدقاء هم من طلبة هذه الجامعة، وقاده في الحركة الطلابية ناهيك عن أن مؤسسي الصرح العلمي ومعظم طواقمه الإدارية والتعليمية مصنفون تنظيمياً ويشغلون مواقع قيادية في الحركة وهذا مثَّلَ عامل إسهام إضافياً لترك بصمات جلية وراسخة في المجال النضالي، وسوف ندلل على ذلك بمثال حيَ من وحي الواقع العلمي اليومي لا سيما أننا أسلفنا بالقول أن هناك تقسيماً للأدوار في العمل التنظيمي بين أعضاء اللجان ومجموعة الأصدقاء، فكل شخص له مهمة ودور مكمل لأدوار الآخرين، رغم أن هناك بعض الأدوار تحتاج إلى نوع من المجازفة والمخاطرة، وهذه توكل لمن هم أكثر استهدافاً وباتوا في عداد المطلوبين، أما مثالنا على هذا الصعيد فهي قصة أحد الأصدقاء الذي كان طالباً في الجامعه ويجلس مع الطلاب الجدد داخل حرم الجامعة الوليدة في المدينة ومعه مجموعة من الزملاء الطلبة الذين هم على تواصل معه، ونظراً لضيق الوقت ولإيمانه بضرورة ترك

بصمة لدى الطلبة الجدد، كان يجلس معهم باجتماع طلابي هامشي، ويفتح النقاش في الحياة الطلابية والأكاديمية، وسرعان ما يتحول إلى نقاش سياسي وطني فالجميع من أبناء شعبنا مسيس حيث يجد هذا الصديق مجالاً وضرورة للتعبئة الوطنية الوحدوية الثورية، فيبدأ الحديث: يا إخوتنا الأعزاء لقد اختلط الدم وما عاد هناك فرق بين تنظيم وآخر، فالتنظيم وسيلة وليس غاية، ولا داعي للمغالاة، انظروا كيف أن هناك عمليات فدائية مشتركة لأكثر من فصيل، أليس الهدف هو دحر المحتل، وتحرير الوطن من دنسه، إذا كانت هذه هي الغاية فالوطن أكبر من الجميع وأكبر من كل التنظيمات، لا ضَير من الانتماء للأحزاب والفصائل شريطة أن يكون الأساس انتماء وطنيا، ويتدخل القدر لتأتي المصادفة لتخدم الهدف، خاصة عندما تقع عملية فدائية مشتركة لفصيلين أو أكثر بالتزامن مع هذا الطرح، فإنها تعزز الفهم وتنعش الذاكرة وتحقق المرجو وبالذات إذا ما اشترك في العملية اليسار واليمين وأحدهما مع الوسط أو احد الفصائل الإسلامية مع فصائل منظمة التحرير.

وهكذا تسير الإحداث لتأتي المرحلة الثانية من مراحل التعبئة وفي المكان ذاته- الجامعة- لكن بالتأكيد ليس في اليوم نفسه ولا في الجلسة ذاتها، فيدور الحديث إخواننا انظروا كيف أن ابن فتح يثأر لابن الجبهة أو ابن حماس وابن الجهاد يثأر لابن فتح صحيح، أليسوا جميعهم مناضلين وشهداء قضية واحدة وأبناء شعب واحد، ويطول الحديث ويزداد الشرح والتوضيح وصولا للحظات الحسم والذروة في النوايا التي كانت مستورة، فيكون الطلب واضحاً من خلال القول: يا إخوتنا انظروا كيف ننسى المحتل عندما يقتل من أبناء شعبنا وأبناء مدينتنا وحتى إخوتنا وأبناء عمومتنا، فيما لا ننسى أن بلدنا حينما يقتل شخص من عشيرتنا أو من أقربائنا، لا نبقى مصرين على الثأر له بعد عشرات السنوات، ولا نتنازل عن حقنا في الثأر رغم انه في بعض الأحيان لا يكون المقتول على حق، أو قد تكون الحادثة عرضية وغير مقصودة، أليس هذا هو

الجهل بعينه، والعصبية المقيتة التي نهى عنها رسولنا عليه السلام في قوله دعوها فإنها نتنة... إنها لمفارقه عجيبة؟! لماذا نتقاتل ويَقتلُ بعضنا بعضاً على متر من الأرض فيما الاحتلال يصادر الآلاف من دنومات الأراضي ويستبيح دمنا ونتركه، وكأن الأمور في سياقها الطبيعي وأن شيئا غريبا لم يحدث.

نعم هذه هي الحقيقة وهكذا كان الطريق الأقصر لتعبئة الجيل الناشئ في أوج العمل النضالي، وعدم التمكن من الاجتماع مع هذا القطاع المهم من أبناء شعبنا ومدينتنا لفترة طويلة، وقد ترك هذا النهج آثاراً طيبة، بدأت نتائجها ملموسة حينما نجد أن عدداً ممَّن دخلوا السجن أو التحقوا بركب النضال من أبناء هذه المدينة، ما زال يتلاحق جيلا وراء جيل، كما أن عدد من اعتقلوا من طلبة هذه الجامعة زاد بأضعاف مضاعفة عمن سجنوا من الجامعات الأخرى من أبناء المدينة، ويندرج الحال على بقية المحافظات، ويعود ذلك إلى تأثرهم بمن سبقهم من طلبة كانوا قد تحرروا من الأسر سابقا والتحقوا بمقاعد الدراسة في فترة لاحقة حيث حملوا تجربة نضالية، فوجدوا من الضرورة إيصالها لمن يليهم من أجيال، وقد وجد هذا الكادر ضالته في طلبة هذا الصرح العلمي الوطني الذين التقاهم برغم فارق السن، هذا ناهيك عن الصقل الذاتي الذي صقلوا به والتجربة التي اكتسبها هذا القطاع كغيرهم من الطلبة في أثناء ممارستهم أنشطتهم الطلابية التعبوية والنضالية مع الأطر الطلابية في هذه الجامعة التي كانت تمثل مصنعاً ورافداً نضاليا لحالة النضال الشعبي والوطني خلال الانتفاضات المتلاحقة.

لا يعني ذلك قطعاً أننا ركزنا جهدنا واعتمدنا على طلبة الجامعات دون غيرهم، بل أن كل من كان قريباً من دائرة الثأر بالصداقة أو القرابة وملك قرار نفسه سار معنا أو خلفنا، حتى وإن كان ناشئا في الجيل الذي تلا هؤلاء الأجيال، ومضى على الدرب ذاته بعد وصوله سن الرشد متأثراً بتربية وطنية فطرية

وراثية تجاه المحتل، عززها في ذاكرته وحركها سيرة من سبقه من مناضلي المدينة الذين اعتقلوا أو استشهدوا، لذلك لا غرابة أن نجد أن أبناء المدينة الذين واصلو النضال هم بالأصل ينحدرون من أسر مناضلة كابراً عن كابر، اكتوت بنار الاحتلال على مدار سنوات وطئه لتراب أرضنا ووطننا فلسطين، وبالعودة للأسر المناضلة وإجراء دراسة بحثية، وإحصائية دقيقة لسير هذه الأسر التي استشهد لها أبناء أو اعتقل أحد إفرادها أو أصيب سواء في هذه الانتفاضة أو انتفاضة الحجارة عام ١٩٨٧، سنجد وبما لا يدع مجالاً للشك أن النضال الفلسطيني في سواده الأعظم مصبوغ بالبعد الأسري والوراثي، وإن بدت التربية الوطنية وكره المحتل فطرية، فعلى سبيل المثال لا للحصر عائلة الحسيني بدءاً من الشهيد موسى كاظم الحسيني ثم تلاه ابنه الحاج أمين فعبد القادر الحسيني ثم حفيده شهيد القدس فيصل الحسيني، وعليه يمكن القياس على بقية الأسر المناضلة منذ مطلع القرن التاسع عشر وإلى يومنا هذا، وهكذا نجد أن أحد الأبناء على الأقل من كل أسرة قد خطا درب سلفه وهكذا دواليك.

عظيمة هي المسؤوليات التي كانت تواجه مجموعة الأصدقاء، وتعترض مسيرتهم الساعية للتواصل ومواصلة العمل واستمراريته، وكأن هنا عهد على ضرورة الحفاظ على ما يمتلكونه من شحيح الإمكانيات والوسائل القتالية، فهي عبارة عن بعض البنادق التي امتلكوها بشكل شخصي وشبه تعاوني فيما بينهم، أو ورثها بعضهم عن والده، وبالتالي فإن فقدان واحدة من هذه البنادق التي لا تتجاوز أصابع اليد بكثير، كان سيمثل عبئاً مادياً كبيراً، لعدم القدرة على التعويض مكانها، إذا ما فقدت، وتُسلَّم لقوات الاحتلال في حالة إلقاء القبض على أحد أفراد الخلايا، ولذلك كان الاتفاق والوصية والعهد أن يحاول كل من يقع في الأسر، الصبر والاحتمال قدر الإمكان، وعدم الاعتراف أو البوح على السلاح أو مكانه لمدة زمنية تكفل لبقية الأصدقاء نقل السلاح إلى مكان آخر أكثر أماناً هذا إِن حصل طارئ أو ضعف وانهار في التحقيق، بل كان هناك تفاهم

أكثر صرامة ووضوحاً في حال عدم العثور على السلاح بحوزة المناضل لحظة أسره، وتعرض لضغط التحقيق، ولم يتمكن من الصمود، فليكن الاعتراف بأنه أعطى السلاح لأحد الشهداء الذين استشهدوا في تلك الفترة، أو لأحد المطاردين الذين كانوا يعدّون في عداد الشهداء مع وقف التنفيذ، إلى حين يكون قدره الأخير بالشهادة أو الاعتقال، وحينها سيكون لكل حادثةٍ حديث، وعليه تقع مسؤولية نسج قصة تحاكي الواقع وإجابة تفي بالسؤال الذي سيواجهه حينذاك.

لقد سبق وذكرنا أن حالات المنافسة بين الخلايا من جهة، وحالة الغيرة والطموح في إيقاع الخسائر في صفوف الأعداء، ومرور فترة من عمر الانتفاضة بلا نتائج ملموسة، رغم كثرة الغرس واحتدام النقاش بين خلايا النضال المختلفة، كل ذلك أحدث تقارباً في الأفكار وولَّد الرغبة في التعاون والعمل المشترك فيما بين المجموعات، وبات الحديث يأخذ مجرى الجدية في العمل لدى البعض والتخوف والخشية لدى آخرين، لاسيما أن الوضع أصبح أكثر شراسة وخطورة، وتحول الجيش إلى نازية أكثر من النازية، وأفرط في استخدام البطش والقتل، فلم تتوان مروحياته في قصف واغتيال بعض القادة والمناضلين، بمجرد وصول إخبارية عنهم تحت حجة أنهم يمثلون قنابل موقوتة، أو يخططون لشن عمليات استشهادية، إذاً فهذا يشكل لهم خطورةً أمنية والأمور بالنسبة لهم ليست بالسهلة، ولا يعني ذلك انتقاصاً من دور من باتوا يتخوفون ويخشون ولا فخر لمن هم أكثر تحمساً من غيرهم، فالأمر يعود للتفكير العميق والشعور بالمسؤولية مهما سيؤول إليه مصير هؤلاء، وربما دخل في ذلك- وبدون أدنى شك- بعض الحسابات الخاصة، كعدم الرغبة بالمواصلة أو الوصول إلى نقطة اللارجعة، وهكذا بات العرب منقسمين إلى فريقين في وجهات النظر: العرب المغامرون والعقلانيون، وهذا ما مرّ ذكره، لكن أيضاً- ولكي لا نظلم فريق العقلانيين- فقد حاولوا أن يمسكوا العصا من وسطها، لأنه كما سبق القول في ثنايا السرد لا توجد رغبةً لدى إي طرف في خسارة الآخر أو هجره، فالكل

يحافظ على شعرة معاوية كي لا تنقطع، وعليه جاء الاقتراح باختيار أخوين لمتابعة وإدارة العمل العسكري، كانت هذه بادرة إيجابية ولفتة من البعض يمكن استغلالها بالرغم من اقترانها ببعض الشروط، إلا إنها أثلجت صدور العقلانيين وشكلت مخرجاً مقبولاً من مأزق التمترس خلف المواقف وتأزم العلاقات، وقد كان الشرط الأول ممثلاً بأن لا نستقبل بيننا ثلاثة إخوة من الجيل الثاني وهم من الأخوة الأكثر نشاطاً واستعدادية وجرأة للعمل معنا، وهذا بحد ذاته يمثل وضع العصي في دواليب المغامرين، منذ البداية وللحقيقة والإنصاف أنه تم السير مع إخوتنا المعنيين وبدون علم المعترضين "أصحاب الشرط" وكانت باكورة الزرع على أيديهم، لكن المعترضين لم ينزعجوا ولم يبدوا أي اعتراض أو رفض أو حتى تدخل، وهذا يمكن احتسابه لصالحهم، ونحن نعلم أن هناك بعض التسريبات وصلت للبعض منهم فاحتفظ بالمعلومة لنفسه ولم يبد تعليقا ايجابياً كان أم سلبياً.

الأحداث تسير بشكل متلاحق وبوتيرة متسارعة، فهناك الاجتياحات الجزئية أو الكلية لكثير من مدن الوطن وقراه، تقارب في الأفكار وميل إلى التحابب والتوادد، ورغبة في التعاون والعمل المشترك بين المجموعات وعمليات التصفية والاغتيالات للقادة الميدانيين والنشطاء.

تسير على قدم وساق، وكلما سنحت الفرصة وطالتهم يد الغدر، والشارع الفلسطيني يغلي وبأمس الحاجة إلى من يشفي غليله وينظر إلى عمليات ثأرية، بينما الظروف آخذة بالتعقيد، فغزة هاشم أمست محاصرة، ومخيم جنين دُمر بعد معركة المخيم، ونابلس جبل النار دكَّ سجنها بطائرات "F16"، والرئيس الرمز أبو عمار محاصر في المقاطعة، ورام الله على وشك الاجتياح، وفي بيت لحم الكنيسة حوصرت وأبعد من تحصن فيها، أما خليل الرحمن فتشهد عمليات اجتياح جزئي وحسب بل ليصل تخومها ولعدد من مدنها المجاورة وحالة

الانسجام التنظيمي بين المجموعات والمواقع التنظيمية كافة، سواء داخل التنظيم الواحد أو حالة التعاون بين التنظيمات الأخرى لا تبشر بخير، وتقوم على المناقشة العشوائية غير المضبوطة، وكذلك الصورة الغوغائية بين الأجهزة الأمنية وغير الموحدة، والمنقسمة إلى أجهزة عدة، كل هذه التشابكات لا تسر صديقاً ولا توحي بالتفاؤل، وإن كان عنوانها الإصرار على المقاومة والتصدي، فبينما تبدو ظاهرياً إنها أجهزة موحدة، لكننا نشهد آليةً واضحةً ومنظمةً كتوزيع القوات أو تعزيزها أو مد الحواجز بالعدد والعتاد، وكذلك لم نجد أن هناك خطةً مدروسة لاستنهاض الهمم لا من قبل السلطة ولا من قبل التنظيمات، ولم نلمس أن هناك ترتيب للأدوار بين التنظيم وأجهزة السلطة، فكل الأمور متروكة للعشوائية والبديهية وللاجتهادات والآراء والمواقف الفردية المرتجلة من هذا المسؤول أو ذاك، يتخذها وفق ما يفرضه الطارئ والواجب والضمير، ولا تقويم للنتائج والآراء بأي حال من الأحوال، قد نلتمس غدرا للأجهزة في عدم قدرتها على التحرك والتنقل من محافظة إلى أخرى، بسبب الاحتلال وسيطرته على الممرات لكن لا نستطيع استيعاب عدم توحدها وإستناد بعضها في إستراتيجية دفاعية ذات مغزى في كل محافظة أو مدينة من المحافظات التي تحت سيطرتها الكاملة.

لا شك في أن حال الأصدقاء في مدينتهم ليس بأفضل من حال غيرهم من أبناء التنظيم في الإقليم بأسرة، فهناك حالة التنافس على المسؤولية التنظيمية والعمل يأخذ في بدايته حب الظهور وفرض الأمر الواقع واثبات الوجود هذا على صعيد القادة الميدانيين فلكل منهم موقعه، فيما المسؤولون الرسميون تنظيما أصحاب الكلمة الفصل والمرجعية العليا، قد غابوا أو غيبوا أنفسهم عن الساحة قي ساعات الشدة، وتركوا الأمر، وخلفوا معه عبئا ثقيلاً وإرثاً خلافياً للقادة الميدانيين من لجان المواقع التنظيمية الذين انخرطوا في العمل وركبوا موجة النضال والمقاومة، انطلاقا من دافع الواجب والمسؤولية والغيرة من

ناحية، ومن دافع الانجرار والانزلاق خطوة إثر خطوة في دوامة العمل والمقاومة إلى أن وصلوا نقطة اللاعودة من ناحية ثانية، وبهذا وجدوا أنفسهم منجرّين لإثبات دورهم في تلك المرحلة المعقدة، وفرض حضروهم التنظيمي في الشارع، وستر عيوب القصور واللامسؤولية التي ورثوها من حالة الترهل العامة، وبأن تأثيرهم على أرض الواقع ملموساً، وان كلفهم ذلك ثمناً باهظاً.

للخروج من حالة المنافسة أو المناكفة التي لم تزدنا إلا شرذمةً واختلافاً في الأداء وانقساما في المواقف، كان لابدّ من التفكير والإبداع مع بعض الإخوة الذين آلمهم الحال، وخاصة أن كوكبةَ الأصدقاء وكغيرهم، تأثروا بالظاهرة تماما كما هو الوضع في باقي المواقع والمجموعات، وبالتالي بات الغالب رأي المجموعة المندفعين من الأصدقاء ومن التقى معهم في الرأي القاضي بضرورة العمل والاستعداد بدلاً من الصراعات غير المجدية والتنافس الهدام، وقد كان نتاج هذا التلاقي الفكري والوطني والإحساس بالألم والمسؤولية الخروج بالعملية الأولى التي ورد ذكرها كباكورة للعمل المشترك في المجال النضالي، ولتصبح مجال تنظير وتحريض بين أفراد الخلية وضرورة الخروج بأخرى على ذات المسار، وان كان الأمر يدور بالسرية والكتمان في الواقع، هذا لم يشفِ غليل الأصدقاء، لاسيما من أطلق عليهم مجموعة المندفعين أو المغامرين الذين بادروا بتشكيل خلية عسكرية تحت مسمى خلية الثأر للشهداء، وكانت نواتها الأولى من خمسة أفراد من بين كوكبة الأصدقاء ثم أضيف سادس من خلية عمل ثانية ليصبح ركناً أساسياً في مجال عمل الخلية، وكان انضمامه في اللحظات الأخيرة من عملية التخطيط والإعداد للعملية الثانية ومثلت هذه العملية التي أصبحت الأهم من حيث النتائج حجر زاوية مع بقية الأخوة المنفذين، وقد اقسموا القسم المتفق عليه معا، وحافظ هؤلاء الأخوة على تواصلهم مع بقية أعضاء فريق الأصدقاء، لكنهم آثروا البدء بالعمل منفردين، بعيداً عن بيروقراطية العمل التنظيمي وحالات الشدِّ والرخي

في أخذ القرارات على الأقل بشأن العمل العسكري، إلا أنهم لاحقاً وبعد بدء العمل وجدوا أنفسهم جميعاً في المركب ذاته، وقد شرعوا بالاستعداد للانطلاقة بعملية جديدة، يعلنون خلالها ميلاد خلية الثأر للشهداء التابعة لكتائب الأقصى، وليتبنوا بذلك العمليات السابقة التي قاموا بتنفيذها، فيما تبناها في حينه كتائب القسام وأخرى من الخلايا التابعة لكتائب الأقصى، مع العلم أن أفراد الخلية كانوا قد وثَّقوا تبني العملية بشريط الفيديو بالصوت والصورة لأفراد الخلية، معلنين فيه عن الاتفاق على الغاية الأساسية، وذلك من خلال نص القسم التالي: بسم الله الرحمن الرحيم: قال تعالى: ﴿**أن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن من أوفي بعهده الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم**﴾- صدق الله العظيم - (التوبة ١١١) ويتلون بعدها القسم التالي: (أقسم بالله العظيم، أقسم بشرفي ومعتقداتي أن أكون مخلصاً لله والوطن ومستعداً للدفاع والتضحية للفداء لأجل تحرير فلسطين، وأن لا أبوح بسرية العمل، وإن ما دعاني للنضال والمقاومة ليس حباً في مال أو وجاهة أو مكسباً دنيوياً أو منصباً، وإنما الحال الذي وصل إليه شعبنا نتيجة الاحتلال وممارساته العنصرية، هذا قسم حق والله على ما نقول شهيد).

الفصل السابع

رحلة صداقة

من المهد إلى اللحد

للأسير / خليل محمود يوسف أبو عرام

الفصل السابع:

أقبل فصل الربيع عام ٢٠٠٢م، ونحن ما زلنا ننعم بالحياة والحرية، وإن كنّا نحمل أرواحنا على أكفنا، إلا أن القدر ما زال يميل لصالحنا، ولكن تباشير هذا الفصل الجميل جاءت مغايرة عما اعتاده الناس وكوكبة الأصدقاء لهذا الفصل في المواسم السابقة المعهودة، فبدلاً من اخضرار الأرض وروعتها وتوشحها بالزهور والحنون وجمال الطبيعة الخلاب، حمل لنا ربيع هذا العام التصعيد والعنف والاجتياحات لمدن الوطن وقراه، ورائحة البارود والموت والاغتيالات والتصفيات والتدمير لمقرات السلطة الوطنية، وحمل لنا كذلك مخطط الحقد والملف الصهيوني والشراسة ونبذ العهود، والذي هو ليس غريباً عن دينهم وإنما هي سياسة قديمة أعيد تجديدها كي تبقى سيرة بني صهيون على الدرب ذاته من منظمات الاتسيل وأشتيرن والهاجاناه، وتأسياً ببني قريظة وقينقاع وصولاً هذا الوقت الذي فيه باراك وشارون وغيرهم.

لقد كان نصيب مدينتنا مثلما حظيت به بقية المحافظات والمدن الأخرى، فقد كانت بداية نيسان، بداية حاسمة، ففي الرابع من هذا الشهر جاء اجتياح مدينة دورا، وهذه كانت إشارة واضحة لاقتراب مرحلة الخطر لمدينتنا، ففيها عدد من المطاردين، ولقد سبق التوعد لهذه المدينة من قبل قوات الاحتلال التي حاولت مراراً اقتحامها، لكنها كانت تتراجع أمام الصمود والمقاومة، ما هما إلا يومان ليس إلا، وكانت النتيجة المعروفة والمتوقعة سلفاً بعد تلك الإشارات المتكررة، حيث وقع الاجتياح وأصبحت المنطقة أكثر خطورة وضيقا في عيون الأصدقاء، الذين لهم أيضا بهذا الشأن وجهات نظر متباينة ومنقسمة لأكثر

من اتجاه، وكل طرف يتمترس خلف نظريته، وله مبرراته في ذلك بغضّ النظر عمَّن هو المحق ومن هو صاحب الرأي السديد في ذلك، لا سيما أننا نعتمد على تحليلات واجتهادات شخصية ومتواضعة ومصادر استقاء معلوماتنا بهذا الشأن أو اتصالاتنا محدودة وفي أغلب الأحيان نعتمد على التنبؤات، حتى إن امتلكنا بعض المؤشرات، فإننا لا نعتمد القياس عليها بشكل مطلق.

وكما أسلفنا فقد كان على الأقل لدى الأصدقاء رأيان مختلفان من مسألة الاجتياحات، فالأول يقول بعدم المواجهة وتفويت الفرصة على قوات الاحتلال القادمة بشراسة لممارسة البطش والإرهاب والقتل والاعتقال والترويع ويأتون بقوات معززة وإمكانات ضخمة يصعب ردها أو وقفها في ظل الأعداد والعدة التي لا تكاد تذكر أمام عديدهم وعتادهم، والمبرر في ذلك أن المدن الأخرى مثل رام الله وبيت لحم لم تصمد مع العلم أنها تمتلك من الإمكانيات أضعافاً مضاعفةً مما نملك نحن، حيث هناك مقرات السلطة والعساكر وشباب التنظيم والعتاد، فيما نحن ليس لدينا إلا الفتات أما الوجهة الثانية فهي تنادي بالمواجهة والدفاع بما أمكن وقدر المستطاع، وانقسم المناضلون في هذا اليوم فرقاً شتى، فيما يهمنا هنا ذوي القربى من كوكبة الأصدقاء، حيث كان الآخرون منقسمين إلى فريقين، أحدهما كم قلنا بقي مصمماً على المواجهة بينما الآخر آثر الاختفاء وتفويت الفرصة لا أحد يعلم بالضبط متى سيكون الاجتياح الحقيقي، وان كانت التباشير والدلائل توحي بدنو ذلك. وتهلّ الدلائل والإشارات واحداً تلو الآخر لتكتمل حلقات المؤامرة والتكالب حتى يوم الرابع من نيسان، إلا أن التحضيرات التي حدثت في الجهة الغربية بين مدينتي يطا ودورا اتجهت نحو مدينة دورا واجتاحتها فيما كانت

تقوم ببعض التوغلات الجزئية لتخوم مدينة يطا، وتلا ذلك في اليوم الثاني اجتياح لمدينة الظاهرية وفي مساء اليوم الخامس من نيسان، فاجأتنا طائرتان حربيتان "F16" بالتحليق في أجواء المدينة ليلاً، وقامت بإطلاق القنابل المضيئة لتحيل سماءها إلى نهار، استبعدنا أن يكون ذلك بداية للاجتياح، لان قوات الاحتلال لم تتبع هذا الأسلوب في مدينتي دورا والظاهرية، كما أن الليلة كانت ليلة السبت، وهو يوم عيد لدى اليهود وتفكيرنا قادنا بأنهم لا يشنون حملات الاجتياح في الأعياد، إضافة لعدم توقعنا أن عملية الاجتياح تحتاج منهم إلى كل هذا التحضير.

قضينا ليلتنا ونحن نتفقد المدينة، ونجوب شوارعها كالعادة، والحياة فيها ساكنة والناس نيام، حاولنا الافتراق في ساعة متأخرة من الليل، لعلنا نتمكن من أخذ قسط من الراحة في تلك الليلة التي استبعدنا فيها الاجتياح، واستعدادا لبداية أسبوع قادم قد يكون حافلاً بالأحداث إلا أن ما حدث كان عكس ما توقعناه، ففي الساعة الثانية والنصف ليلاً كانت بداية التحول، فقد جاء النذير عبر اتصال تلفوني يخبر بوجود آليات عسكرية تدخل المنطقة الجنوبية الغربية، ومن خلال مدخلين اثنين، الأول يعرف بمنطقة طريق بيت عمرا "المحاجر" والثاني مدخل قرية الريحية، وبدأت اتصالات التحذير بين أفراد التنظيم جميعاً ومجموعة الأصدقاء، وإن كان ما يحدث قد أثار الخشية إلا أن ذلك لم يكن أيضا ليؤكد خبر الاجتياح، فكما ذكرنا سابقاً فقد كان لنا مواجهات مع دوريات عدة بهذا الشكل سواء في تلك المنطقة أو في مواقع أخرى في البلدة، لكن ربما أن ما حدث لمدينتي الظاهرية ودورا يجعلنا نأخذ في حساباتنا إمكانية حدوث ذلك ونرفع من درجة التأهب وسقف التوقعات ليس إلا.

جاء الإحساس الحقيقي بعد الاتصالات التحذيرية بدقائق إذ تفاجأنا بأن هناك في المنطقة (أ) الواقعة من الطرف الشمالي للمدينة، وتعد منطقة عمق من أراضي السلطة المصنفة ويقطنها بعض الأخوة المطلوبين، حيث بدأوا يسمعون أصوات الطلقات النارية، لكنها ليست من جهة واحدة، وهذا كان علامة حيوية أخرى على بدء الاجتياح.. انسحب الأخوة المطلوبون من الموقع الذي يقيمون فيه وبدأوا بمتابعة طلاقات النار، فتبينوا أن هناك دورية إسرائيلية ومعها وحدات خاصة كانت تقصد منزل هؤلاء الأخوة تحت جنح الظلام وعلى حين غرّة، إلا أن رعاية الله، ثم يقظة عناصر الأمن الوطني الذين اشتبكوا معهم قد منعتهم من الوصول للهدف.

بدأ الاستنفار بين أبناء التنظيم، وبدأت الاتصالات بين الأصدقاء ورفقاء الدرب، وبالتالي بات الكل على استعداد لمواجهة مصيره بالطريقة التي يحددها هو، فمن أرادوا المواجهة شرعوا بالبحث عن بعضهم وحدّدوا موقعا للتلاقي عنده، ومن أرادوا غير ذلك، ذهب كل واحد منهم في طريقه وبحث لنفسه عن ملاذ يتوارى فيه.

لم تستمر ساعات المواجهة طويلاً، إذ سرعان ما انسحبت قوات الجيش الصهيوني من المنطقة، وبدأت اتصالاتنا مع عناصر الأمن الوطني والأجهزة الأمنية في المدينة، حيث أكدوا لنّا أن اتصالات جرت بين السلطة الوطنية والجانب الإسرائيلي وأخبرهم أن انسحابهم مؤقت، وطلبوا بضرورة إخلاء طرق المدينة وشوارعها من قوات الأمن والتزام أفراد السلطة في المراكز، لأن قوات جيش الاحتلال ستدخل المدينة في الصباح، أي بعد ساعات من انسحابها الذي عقب الاشتباك الذي دار مع قوات الأمن الوطني فهم لم يتوقعوا فعلاً يقظة

الأمن الوطني، وقد طلبوا تعزيزات ليتخلصوا من الشرك الذي وقعت فيه دورية الوحدات الخاصة.

بعد تخبط وارتباك وكدّ ومعاناة وتستر بين بطون الأودية وأزقة الحارات وحلكة الهزع الأخير من الليل، تجمع الأصدقاء الذين تعاهدوا على المواجهة مع بزوغ فجر اليوم الباكر في مركز المدينة، ولكن عددهم لم يتجاوز أصابع اليدين، كما أن ما يملكونه من وسائل التسليح لا يكفيهم جميعا، إلا أنهم رفضوا أن يخلّوا بالعهد، أو أن يتخلى الواحد عن صاحبه، جيش الاحتلال بات متمركزا على بعض المداخل الجنوبية الغربية للمدينة ذات المداخل المتعددة والشوارع الكثيرة والمتصلة جميعها بعضها ببعض بالرغم من ازدحامها بالمساكن وعدد السكان الذي يفوق المائة ألف مواطن، الجيش لم ينسحب بل أخذ بالتمركز تعززه الدبابات بين الحين والآخر، الأصدقاء حائرون ولا يدرون ما ينتظرهم، هل يواجهون تلك القوات المتمركزة ويكونون هم المبادرون، أم يتريثون وينتظرون الإمدادات ووصول التعزيزات لهم؟! لكن من أين سيأتيهم المدد؟! وهم قد حسموا أمرهم في الجلسات الأخيرة، كما أن الفجر قد أشرق وصار معهم على موعد فبات عليهم التوجه لالتقاء مجموعة أخرى منهم مكونة من ثلاثة أخوة هم على تواصل، لكنهم لغاية الآن لم يلتقوا بسبب التشويش الذي طرأ كحالة مرافقة لكثرة التحذيرات التي أربكتهم، الاتصالات التحذيرية متتالية، هذا يخبرهم بتوافد قوات جيش إضافية، وذاك ينبئهم بتحرك الجيش من حارة إلى أخرى، وذاك يراقب لهم الطريق كي يقطعوا الشارع، وهكذا فيما إمدادات الجيش آخذه بالتزايد، وخاصة في المنطقة الشرقية والشمالية.

وما هي إلا ساعات قليلة، ويبزغ الفجر وتشرق الشمس لليوم السادس من نيسان، وكأننا مع موعد احتلال جديد وليس اجتياحاً لدورية أو اثنتين، وكانت النتيجة التي خشيناها حقيقية حيث دخلت أرتال من الدبابات تجتاح المدينة من جميع الجهات والمداخل، ومع الساعات الأولى لصبيحة ثاني يوم. يكون الشهيد الأول والثاني قد ارتقوا إلى جوار ربهم حيث كان الشهيد الأول جمال قرعيش الذي استشهد داخل بيته الواقع في البوابة الشرقية أثناء دخول دوريات الجيش من المنطقة، حيث أطلقوا النار عليه وهو يحاول أن يفتح نافذة منزله وينظر إلى الجيش المار من هناك فبادره بصلية أردته صريعاً، فيما الشهيد الثاني نادر جميل الهدار استشهد هو الآخر أَثناء اجتياح قوات الاحتلال الراجلة للمدخل الجنوبي للمدينة حيث توغلوا بين المساكن وعملوا كميناً للبحث عن بعض المطاردين هناك، لكنهم لم يفلحوا، أوقعوا الفتى شهيداً برصاص حقدهم الأعمى.

لا شك في أن من شاهد حجم القوات التي اجتاحت المدينة، أدرك- وبشكل لا يقبل التأويل- أن المواجهة معهم ضرب من الجنون أو إقبال على الانتحار، وبخاصة وان من أصروا على التصدي ليس إلا بضعة إخوة ولذلك نستطيع القول إن من كان مع خيار الاختفاء وتفويت الفرصة في ذلك اليوم بالذات، كانوا على حق وصواب أكثر من الآخرين، إذاً ليس من العيب الاعتراف لهم بهذا، لكننا أدركنا ذلك لاحقاً سرعان ما توزعنا إلى خلايا مكونة من أخوين، وتركنا لكل مجموعة حرية القرار، مفضلين الانسحاب والبحث عن مكان للاختباء واعتبار النجاح في المواصلة وتفويت الفرصة وليس بالانتحار وهذا ما أثبتناه لاحقاً وما سيبدو في الفصول القادمة.

لقد أصبحت المدينة مجتاحة بالكامل، وتجوب شوارعها أرتال الدبابات وطائرات العدو تحلق في سمائها، والدبابات تتخذ نقاط تمركز والجنود لا يغادرون نقاط التجمع، ويتحصنون داخل دبابتهم التي سيطرت على شوارع المدينة ومداخلها، وفرضت منع التجوال لمدة ثلاثة أيام على التوالي.

وبالعودة إلى فرساننا للاطمئنان عليهم ومعرفة ما حل بهم، نجد أن كل واحد منهم أو من تلك الخلايا الثنائية قد تدبروا أمرهم في مكان تلمسوا الأمن فيه، وظلوا يترقبون الأخبار وعلى تواصل فيما بينهم ويتابعون مجريات الأَحداث، وما آلت إليه الأمور عن كثب، بقوا كذلك إلا أن حل الظلام حيث التقوا في مكان ما تحت الأرض، شعروا انه أكثر أمناً، وضّم العدد الأكبر من كوكبة الأصدقاء، فبدأوا يعتادون على الوضع الجديد ويتأقلمون على التحرك في ظل المستجدات المفروضة على الأرض، مرت ثلاثة أيام وهم ينتظرون بفارغ الصبر تحرك الجيش المتمركز لمعرفة ما ينوي القيام به، فهل سيبقى ثابتاً بلا حراك إلى الأبد؟! حتما لا؟! والى بيت من سيذهب أولا؟! فمن سيذهب الجيش إلى منزله سيتأكد بعدها أنه في قائمة المطلوبين، هل سيعود الحال إلى ما كان عليه قبل انسحابهم من المدينة بعد عام ١٩٩٥على اثر اتفاقية أوسلو أم أنهم سيغادرون المدينة، أسئلة كثيرة تراود أذهان الأخوة الذين أصبحوا أحياء ولكن في تجاويف الجبال وبطول الأودية.

مع نهاية اليوم الثالث بدأت قوات الاحتلال بالتحرك داخل الشوارع الفرعية للمدينة، ومداهمة بيوت المناضلين ومنازلهم لاعتقال كل من يقع تحت قبضاتهم من هؤلاء الفرسان، إرادة الله وعنايته أحاطتهم بالحماية في تلك المرحلة الحاسمة، ولم تلبث قوات الاحتلال التي اجتاحت المدينة واحتلتها

وسيطرت عليها، أن خرجت تحت غطاء كثيف من النيران وبجحافل دباباتهم وبعض الطائرات والمروحيات الاسنادية، التي كانت تطلق نيران رشاشاتها على كل جسم مشبوه أو متحرك بالمواقع المكتظة بالأشجار وبين بطون الأودية، فيما الدبابات كانت تشغل مكبرات صوت قوية جداً لتضخيم أصوات الرشاشات في أثناء إطلاقها النيران لبث حالة الرعب بين المواطنين وترويعهم، كما أنها كانت تعيث خراباً في الممتلكات العامة وسيارات المواطنين المتوقفة بجانب الشارع وبالأزقة التي دخلوها، وهكذا تخرج هذه القوات بعد بضعة أيام من المدينة، تاركة خلفها دماراً وخراباً يصعب وصفه وأسقطت شهيدين، وأما سبب تقليص عدد الشهداء لهذا الحد فهو تجنبنا المواجهة مع تلك القوات الفاشية والمتوحشة وتفويتنا للفرصة، ولعدم إعطائها الذرائع للتدمير والتخريب بشكل اكبر، مع العلم أنها تركت جرحاً في نفوس الناس، خاصة البسطاء منهم الذين كانوا يتوقعون أن اليهود لن يستطيعوا العودة إلى المناطق التي انسحبوا منها على خلفية توقيع اتفاقية إعلان المبادئ، وان أي دخول لهم يجب أن يقاوم ويكلفهم ثمناً باهظاً، فها هم يدخلون ويخرجون، لكن خروجهم هذه المرة ليس كالخروج الذي حدث عام ١٩٩٥م حيث سلموا المراكز للسلطة الوطنية الفلسطينية وأجهزتها الأمنية، فيما الآن سيعودون في أي لحظة يريدونها وذلك لترسيخ الأمر الواقع (الاحتلال) ، وإلغاء أي خطوط حُمر تمنعهم أو تعوقهم من الدخول. خيم الحزن والصدمة وأَثار الخشية من المجهول في نفوس الأصدقاء الذين هم على رأس قوائم المطلوبين لقوات الاحتلال وتبددت أحلامهم، وبات الملل والضجر يتسلل لبعضهم والقلق مما ينتظرهم من مصير غامض، وسيطر الارتباك على سلوكهم الأولي، فهل يواصلون مشوارهم والقيام بدورهم النضالي؟! أم يستسلمون لليأس ويتنحَّون جانبا؟! وهل بإمكانهم الآن العمل وفق

النهج السابق الذي كانت العشوائية وعدم الاكتراث هما عنوانه، أم يغيرون استراتيجياتهم ويبدلون أساليبهم والآليات والوسائل التي يعتمدونها لكن ما هي الوسائل التي يستخدمونها بعد هذا الحال الذي وصلوا إليه، فالتراجع والتخلي عن المقاومة يعني تلقائيا الاستسلام والجبن، والتأكد بان كل تلك الأدوار التي كان أعضاء التنظيم يقومون بها ما هي إلا استعراضات وتبخترات أمام الجماهير، بمجرد وقوع الخطر الحقيقي ودخول الجيش للمدينة، وتجوله في أرجائها وأصبح يتحرك داخلها وفيها ساد التراجع والخوف والتخلي عن الواجب، فهل يقبل هؤلاء الأخوة بكل ما تحدثنا عنهم من صفات وشمائل سابقة هذا السلوك، ذلك ما سيبدو ويتجلى مع قادم الأيام فلا نريد التسرع في الحكم ولنلتزم بقول الشاعر:

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلا　　　ويأتيك بالأخبار من لم تزود

قوات الاحتلال تضاعف إجراءات العقوبة على كل من يساعد أو يأوي المطلوبين، إلا أن ذلك لم يثن أهالي تلك المدينة ومناضليها، الذين باتوا يقدّرون خطورة الموقف، ويعلمون أنهم يقفون على أبواب عهد جديد يتطلب الاستعداد والجهوزية والحذر، والجنود الآن يدخلون المدينة بدبابتهم ومصفحاتهم، ولا بد من البحث عن طريقة لمقاومتهم، فهل سنشهد مرحلة تصعيد جديدة أم أننا سنحافظ على الوتيرة السابقة أو أن جذوة المقاومة ستخبو، ومع الأيام اعتاد الأصدقاء على دخول الدوريات العسكرية للمدينة، وأصبحوا يقومون بما يعرف بلعبة القط والفأر، أو الكر والفر حسب مفهوم العلوم العسكرية، حيث الظهور في حالات إخلاء قوات الاحتلال المنطقة والاختفاء أثناء رجوعها واحتلالها وهكذا دواليك.

سار الحال على هذا النحو، إلا أن فكرة إنشاء خلية الثأر للشهداء التي تحدثنا عنها في الفصل السابق وتشكيلها، بقيت الشغل الشاغل الذي يداعب عقولهم ويشغل بالهم، بل أصبحوا على قناعة تامة وإيمان راسخ بان المطارد مهمته ملاحقة الأعداء وليس الاختفاء من الوجود، وقد اعتبروا أن هذه بداية المعركة على الرغم من أن خطرا آخر بات يهدد تحركاتهم ويتوعدهم، وتحركات الطابور الخامس الذين اعتبروا أن دخول قوات الجيش واحتلالها للمدينة من جديد، قد وفر لهم جواً ملائماً للتحرك، وبالتالي ظنوا أن رياح مواسمهم قد هبَّت، ولا بد من اغتنامها، وهذا ما استدعى الأصدقاء لأخذ جانب الحذر واليقظة لكل خطوة يخطونها وان كان ذلك قد سبب لهم بعض الإشكاليات التي سنتعرض عليها لاحقا.

الفصل الثامن

رحلة صداقة

من المهد إلى اللحد

للأسير / خليل محمود يوسف أبو عرام

الفصل الثامن:

عيون الأحرار ترنو نحو قرص الشمس، وعقولهم تنشد سطوع الحقيقة، فتحملهم اقدامهم صوب ساحات الشرف، يعلمون أن الحرية مهرها الأرواح مؤمنين أن شعبنا يستحق الحياة، وان فجر النصر آت لا محالة وليل الاحتلال إلى زوال أكيد، عملهم يسبق قولهم، ويقينهم بان الفعل ابلغ عمقا واصدق من خطب البلغاء، يدركون بأن صدور الأحرار مقابر للأسرار، يتسلحون بارادة لا تلين، وعزيمة لا تكل، وعدالة حق لا يشوبها لبس، وحمية وحتمية نصر واعد، فلا يثنيهم عن مواصلة درب المقاومة والنضال قوة باطل، ولا غطرسة محتل ولا جبروت شمشون، ولا بطش آلاته، يستمدون العزة من روح الشعب وكبريائه وصموده، فهل تفل إرادة الشعوب أو تكسر؟! لا توقفهم معوقات الطريق ولا يلتفتون إلى عبث العابثين، ولا تحد من نشاطهم إرباكات العاجزين أو من هم على قارعة الطريق أرقاما بلا حساب، لا يبحثون عن أمجاد ذاتية أو مناصب، وليس لكل ذلك مكانه في نفوسهم ولم يأخذ حيزا في تفكيرهم بقدر ما كان يشغلهم أمر الثأر للشهداء من أبناء شعبهم الذين قضوا على يد جنود الاحتلال ومستوطنيه، سعيهم وراء ذلك رغبة وطمعاً بنيل الحسنيين، إما الظفر بالهدف الذي لا يعدو عن تّنفيذ عملية فدائية متواضعة لهم أن يكون حصادها مثمراً، أو الشهادة وهي غاية المنى إذا ما اصطفاهم الله لها.. ﴿**إنهم فتية امنوا بربهم وزدناهم هدى**﴾ (الكهف ١٣) .

كذلك لم يتهافتوا على وسائل الإعلام ولم يكترثوا كثيراً لتبني عملهم، ولم يطرقوا باب أحد علهم يلقون الإطراء أو جزاءً ممن يجيدوا التصعيد وإغداق الأموال، وشراء الذمم والتصدق بما يمتلكون من فتات الدنيا ونعيمها الفاني،

أو يحظون بابتسامه صفراء من هذا المسؤول أو ذاك، بل جعلوا هجرتهم لله ولرسوله، ومن عملهم واجباً وطنياً مفروضاً على كل من يستطيع الدفاع والذود عن حياض الوطن، ومن منطلق إيمانهم بقول الله تعالى ﴿**لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وبأنفسهم فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وكلا وعد الله الحسنى وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما**﴾ صدق الله العظيم (النساء ٩٥) .

وعلى الرغم من أن المنطق والعرف التنظيمي يتطلب أن تكون عملية التأخير للأشخاص والتنظيم في خلايا العمل سابقة للعمل نفسه إلا أن ما حدث كان مغايراً وعكسياً، ولا تجد في ذلك غضاضة أو خللاً، ولا نقول إن وجهتنا كانت تسير بهذا الإتجاه بقدر ما جاءت الأحداث بتسلسلها على هذا النحو، وبدون تخطيط مسبق، فقط جاء الزرع ثم تلاه تكوين الخلية، باسمها الفعلي وتنبيتها عبر التوثيق المسجل بالصوت والصورة علماً إن النية الفعلية كانت تسير نحو التسجيل والتصوير أولاً، ثم الانطلاق بالعمل الذي لم يتوقف ثانية، وإن كانت النتائج ليست بمستوى الطموح، ومع أننا نقول إنه لم يكن هناك بلوره تنظيمية للأفراد، إلا أن الأشخاص كما أسلفنا هم من كوكبة الأصدقاء، وإن كان قد أنضم اليهم آخرون من خلايا العمل الأخرى فهذا يأتي في إطار التفاهم والتنسيق الذي ساد بين مجموعات العمل المختلفة، والذي بدأ يتبلور متأخراً بعد شعور هؤلاء الأفراد بضرورة ترتيب الصف من جديد وفق آلية تخدم الهدف، وانطلاقاً من التقارب في وجهات النظر بين الأفراد.

وبالعودة لأسباب التأخير في التسجيل الرسمي لأفراد الخلية، والذي لانعتبره مدعاة للتفاخر بقدر ما نعده للذكريات والضبط التنظيمي من ناحية أخرى، فقد كان سببه اخفاقات شكلية وطارئة تمثلت بتأخير أحد أفراد الخلية

عن الحضور بالوعد المحدد للتصوير وما سيتخلل ذلك من أداء قسم الولاء والعهد مع أن المجتمع قد أحيط علمياً عن العملية الأولى التي كانت قد نفذت في شهر شباط ثم وُثقت مع التصوير الأولي لأفراد الخلية والذي غاب فيها أفرادها لأسباب خاصة، مع العلم أن الحديث أصبح يدور عن عملية جديدة في شهر تموز ٢٠٠٢، وبدأت المحاولة للتنفيذ منذ اللقاء الأول بين الأخوة، إلا أن هذه المحاولة التي كان من المفترض أن تكون بداية إعلان الانطلاق الفعلي لخلية الثأر للشهداء قد اعتراها بعض المعوقات الفنية التي أعاقت تحقيق الغاية، وأخذتنا إلى بضع أيام لتأتي العملية الناجحة وبالنتيجة التي انتظرها الفرسان بفارغ الصبر لزمن طويل.

لقد سبق القول أن كل عمل يحتاج انضاجاً لظروفه الذاتية والموضوعة كي يتحقق له النجاح، لا سيما ونحن نتحدث عن مقاومة ونضال وعدم توازن وإمكانات، إذاً فلا بدّ من اختبار أكثر الظروف ملاءمة، وأفضل الأماكن والأزمنة مواتاة والهدف الأنسب الذي يمكن الوصول إليه وتحقيقه بيسر سواء من حيث تحقيق النتائج، أو من حيث إحداث الضجة. والنفور الجماهيري من جهة وكذلك رفض واستنكار المستوى السياسي الذي له حساباته الخاصة من ذلك من جهة ثانية، ولا نعني بذلك ربط القرار النضالي بقرار السلطة بشكل مباشر أو غير مباشر، أو وضعه تحت الوصية، بقدر ما علينا أن نجيد قراءة الواقع، وأن نعمل وفق ما يخدم شعبنا وتحقيق أهدافه وغاياته في التحرير الوطني بعيداً عن الوصاية التبعية لأي أجندات خارجية.

وبالنظر إلى كل ما تقدم، وبما أننا أصبحنا في أوج العمل الانتفاضي والمقاومة، وفي خضم موجات الشراسة والغطرسة والجبروت الصهيونازية دخلنا إلى معمعان الرد والرد المضاد، لذلك نقول إنا لأسباب أصبحت متوافرة

وظروف العمل مهيأه من جوانبها كافة، وبالتالي لا نرى مناصاً الّا الاستعداد وتوفير الإمكانات المطلوبة وعقد العمل للشروع بالتنفيذ.

الرجال الاشداء بل الأبطال على أهبة الاستعداد والشجاعة، حتى الجاهزية الإيمائية والمعنوية والجسدية تفوق الخيال، وهذه أهم أركان العمل، حيث النية والعزم هي ما يملأ أفئدتهم، والظروف ناضجة ومناسبة جداً، وما علينا إلا الانطلاقة، فها هي طائرة "F16" الصهيونية، قد شنت غاراتها على أهلنا في قطاع غزة وقتلت في عملية إجرامية استهدفت خلالها الشهيد صلاح شحادة، ومعه خمسة عشره شهيداً معظمهم أطفال ارتقوا إلى العلياء شهداء أبرياء، حدث ذلك على مسمع ومرأى العالم المتحضر الذي لم يحرك ساكناً، والشعب الفلسطيني في غزة هاشم محاصر ولا يستطيع الدخول للضفة الغربية، كما أَن طوقاً أمنياً قد فرض على مدن الضفة الغربية وقراها التي باتت تزرح تحت اجتياح كامل من قبل قوات الاحتلال، تحسباً لأي رده فعل أو عمل نازي على هذه العملية الإجرامية، كوكبة الأصدقاء ينظرون ويترقبون الأَحداث ويتابعون الأَخبار كحال الجميع من أبناء شعبنا، لا سيما ان عملية تحركهم وتنقلهم منذ ما يزيد عن ثلاثة أشهر أي ما بعد عملية الاجتياح لم تكن سهلة، وقد اتفقوا على تشكيل خلية الثأَر للشهداء التي عليها تنفيذ أولى عملياتها واقتناص الفرصة السانحة والذهبية لإفهام العدو اللغة التي قد يفهمها.

لحظات مصيرية وحاسمة تمر على عناصر الخلية المصغرة الذين اجتمعوا على عجل من أمرهم اجتماعاً طارئاً في أوقات عصيبة يحاط بالسرية والكتمان، على الأقل عن بقية الذين يحاولون معرفة ما يدور حولهم، ناقشوا الأمر ودرسوا الإمكانات، فبين الجد والهزل والرغبة الجامحة للمقاومة وعدم اليقين بتحقيق الغاية حسموا أمرهم واتخذوا القرار بالانطلاق لتنفيذ عمليه ثأرية سريعة،

لكن كيف وأين هذا ما يجب معرفته، طبعاً لا ولم نتنكر أن هناك محاولات عمل كثيرة... ومتنوعة وبدون توقف لذات الاخوة ولغيرهم من الخلايا والمجموعات الناشطة في المدينة، النوايا متوافرة بشكل دائم ومستمر، ونحن والأعداء في حالة تربص وتحين للفرصة المناسبة لعلَّ احد الإطراف يتمكن من النيل من خصمه، لذلك فنحن نبحث عن عملية رد سريعة ولا تحتاج كثيراً من التفكير أو طويل وقت آخذين بالمثل القائل: "الدواء عند الحاجة إليه لا عند توافره".

خواطر كثيرة جالت في أذهانهم وعصفت أفكاراً أكثر في أثناء جلوس الإخوة، لكن استقر الحال على فكرة واحدة منها، كانت لاقت الإعجاب ونالت الموافقة بالإجماع، وكان لا بد من توفير مبلغ مالي يتجاوز العشرة آلاف شيكل دفعة واحدة، صحيح إن المبلغ متواضع وبسيط على مستوى التنظيم أو فصيل فلسطيني سواء كان حزباً أم حركة أم غيره، إلا انه على مستوى خلية تنظيمية أو مجموعة تناضل بإمكاناتها الخاصة، وتدفع في سبيل ذلك قوت ابنائها وأسرها قد يكون عبئاً ثقيلاً ويصعب تحمله.

أما جملة الأفكار التي دار الحديث عنها فقد تخللها المضحك والمرعب، وكذلك المثير للجدل فيما لو تم تداولها بين مجموعة ممَّن نعتناهم بالمندفعين والعقلانيين في كوكبة الأصدقاء، إلا إن الحديث كان محصوراً بين مجموعة المندفعين وعددهم لا يتجاوز في هذه الجلسة بالذات أصابع اليد الواحدة، ومن بين هذه الأفكار الخروج بسيارة شحن والتقاء سيارة جيب عسكري كانت تتحرك كدورية حراسة على الشارع الالتفافي والاصطدام بها ثم نزول الإخوة من الشاحنة للإجهاز عليهم واخذ عتادتهم، وأمام العجز المادي، أعدنا التفكير في إمكانية الخروج بجرار زراعي "تركتور" للغرض ذاته، لكننا وجدنا إن هذه الوسائل كما أسلفنا تحتاج إلى ثمن ومبالغ تعدُّ بالنسبة لنا طائلة وخارج

حدود الاستطاعة، كما أن شراءها يجب إن يكون بطريقة غير قانونية، أي سيارة مسروقة، وليس من السهولة بمكان توفير هذين النوعين من السيارات في الوقت المطلوب، لكن سرعان ما وجدنا إن هناك شاحنة غير قانونية، لكنها مشطوبة وليست مسروقة وهذا يعني أن لها أوراقاً قانونية يمكن العثور على مالكها فيما لو تم تتبعها، ونتيجة لظروف خاصة بهذا الموضوع احجمنا عن شرائها، لكن الأفكار متتالية والكل يبحث عن حلول، والحماس لدى الإخوة يفتح أفاق التفكير على مصارعها، فواحد يقترح شراء سيارة جيب وطلاءها بلون الجيبات العسكرية لجيش الاحتلال ثم الخروج به إلى إحدى المستوطنات المتاخمة لحدود المدينة والقيام بعملية انتقام وثأر لأطفالنا في غزة ولعملية إجرامية كان المستوطنون قد ارتكبوها بحق أطفالنا، وذلك بوضع عبوات داخل إحدى مدارس المدينة القريبة من الخط الالتفافي إلا إن عناية الله ولطفه ثم تزامن وجود الأطفال لحظة الانفجار، داخل فصول الدراسة، هما ما خفف حجم الكارثة وبشاعتها، والتي نفذتها مجموعة حاقدة من المستوطنين الذين قاموا بإطلاق النار على سيارات عدة في المنطقة راح ضحيتها شهيد وأصيب آخرون، لم نوافق على سيارة الجيب بسبب الوضع المادي وإصرار صاحبها الذي لم يكن على علم بالغاية من شرائها، لم يقبل التنازل عن عشرة ألاف شيكل مع علمنا أنها لم تكلفه كثيراً.

كل ذلك كان مجرد عصف ذهني وأفكار تتلاحق علها تثمر أخيرا عن خطة ذات جدوى وقابلة للتنفيذ من كل الخيارات المطروحة، هكذا كانت نقاشاتنا ومشاورتنا تدور دائماً، وكما قيل على لسان السلف الصالح "ما خاب من استشار" فها هي الأفكار تتوارد أثناء الحوار والنقاش، لا سيما في ظل الأجواء الودية والمحملة بطيب النوايا وحب التضحية والفداء، كيف لا تكون النوايا

حسنة بل طاهرة؟! ما دام حديثنا يدور عن المقاومة والنضال والثأر لأرواح بريئة ودماء طاهرة سالت، وأطفال على مقاعد الدراسة كادت تكون في عداد الشهداء أثر مجزرة خطط لها مستوطنون مجرمون، قد يقال عنهم إذا ما كشف أمرهم، مجانين أو مرضى نفسيون أو أي قول يخلي عنهم المسؤولية، إذاً فالأجواء نقية وصافية، وبكل تأكيد ستأتي نتائجها على ذات الشكل والصورة بإذن الله ويستحضرنا بهذا الشأن قول الشاعر الذي قال:

لعمرك ما ضاقت بلاد بأهلها ولكن أحـــلام الرجال تضيق

فهل يا ترى ستغلق الدنيا أبوابها على ثلة رهنت حياتها دفاعاً عن الوطن؟! وهل ستحجب الرؤيا أَمامهم ويتراجعون؟! أم أنهم سيلجأون لأحد الخيارات التي مر ذكرها؟! أم أنهم سيجدون بديلاً أخر؟ لنرى ماذا سيكون عليهم فعله.

جاء الحل سريعاً وبدون كلفة مادية أو كبير عناء، فقليلاً من الجهد سيقرب لهم الهدف ويجعلهم في متناول اليد، هذه فكرة لم تكن دارجة من قبل، فقد وقع اختيار الأصدقاء عليها، فكرة محاربة الأعداء بوسيلة جديدة، لا تثير الريبة والخشية، لا سيما ان الطريق الالتفافي، بات ممنوعاً على السيارات الفلسطينية التحرك والسير عليه، وبالتالي فهذه عقبة جديدة لا بّد من أخذها في الاعتبار والاستفادة منها في خدمة الهدف المنشود، وآلية تخطيها تكون في استخدام سيارات ذات لوحة أرقام إسرائيلية، توحي لقوات الاحتلال بالأمان والطمأنينة، خاصة إذا ما كانت من المركبات المعهود تحركها على ذلك الشارع، وهكذا يكون الخيار قد رسى على شاحنة مقطورة من تلك الشاحنات القادمة من داخل الخط الأخضر إلى المدينة لنقل بالات القش والأعلاف لمزارع الماشية، لذلك علينا

ترقب الفرصة المناسبة لاختطاف إحدى الشاحنات والقيام بالواجب المنوط بالخلية، وتنفيذه في الزمان والمكان المناسبين.

أنهى الأصدقاء جلستهم وخرجوا كل في طريقه، على أمل أن يأتي الوقت المحدد الذي يجدون فيه ضالتهم، وتقع تحت أيديهم سيارة من النوع المطلوب، وما عليهم إلا القيام بخطفها لتنفيذ المطلوب، كل الاحتمالات تشير إلى إن البحث عن الشاحنة سيحتاج إلى بضعة أيام، ولم يتوقعوا إن خروج أحد الإخوة من الجلسة سيزف لهم خبر العثور على الشاحنة المطلوبة بعد ساعة أو أكثر بقليل، وإنها تحتاج لساعات قليلة، للتخلص من حمولتها، وما عليهم إلا الاستعداد للسيطرة عليا والانطلاق، جاء الاتصال قائلاً هل انتم مستعدون؟! أم إن حديثنا كان مجرد أقوال ذهبت أَدراج الرياح... هاهي الوسيلة متوافرة، ونحن قادمون على الفور، هكذا كان الرد، إبق على تواصل وتابعها بدقة، ويكون اللقاء في زمن قياسي وإنهاء الاستعدادات النهائية، لأن المسألة ليس فقط أخذ الشاحنة، بل أيضا الخروج بها لتنفيذ عملية الثار المطلوبة، مباشرة حالما يتم السيطرة عليها، وهذا طبعاً بحاجة لشيء من التخطيط من سيخرج ومن سيبقى في المكان؟ وما هو المنوط بكل فريق من أدوار؟! وماذا سيكون عليه مصير سائق الشاحنة؟ وماذا وكيف سيكون التعامل معه إذا عارض أو رفض تسليم المركبة، أو حاول إعاقتهم، صحيح هو ليس من المنطقة، لكنه عربي فلسطيني من سكان فلسطين المحتلة عام ١٩٤٨ م، أي انه يعيش داخل الخط الأخضر، وماذا لو هب الناس لنصرته، ومن سيخرج لتنفيذ العملية الفدائية، التي ستكون بخروج الشاحنة وفيها اثنان من الإخوة المسلحين، يقودون الشاحنة المخطوفة وذات اللوحات الإسرائيلية على الطريق الالتفافي، ثم الاصطدام مباشرة مع سيارة الجيب العسكري التي كانت تواظب على حراسة مركبات المستوطنين المارة

على الطريق الالتفافي الذي يخترق المدينة ثم النزول والانقضاض على الجنود المتواجدين في الدورية، وعددهم على الأغلب ثلاثة وأخذ سلاحهم والعودة إلى مكانهم، وقد كان أحد الإخوة الذي سيتولى قيادة الشاحنة على دراية تامة بالطريقة التي سيتم صدم الجيب لإلحاق أكبر قدر من الضرر، كي لا يتمكن الجنود من المقاومة، وكذلك كان يجيد سياقة الشاحنات.

لم تستغرق جهوزية الأصدقاء وقتاً طويلاً حيث أضحى الجميع مستعداً وينتظر أخذ دوره المنوط به على أكمل وجه، بدأوا ينتظرون تحرك الشاحنة من المكان الذي توقفت فيه لتنزيل شحنتها من الحبوب لدى إحدى محلات المدينة، سائق الشاحنة القادم من شمال فلسطين لا يدري ماذا ينتظره، ولا يعرف غير أنه وصل بحمولته وإنزلها، ولم يبقَ عليه سوى العودة لأهله بعد سفرية استغرقت ساعات نهاره الذي خرج فيه لتحميل الحبوب، من داخل الأراضي الفلسطينية المحتلة عام ١٩٤٨م أو من إحدى موانئها، والذهاب إلى منطقة جنوب جبل الخليل لتفريغها هناك، والعودة إلى مسقط رأسه، الذي تبين فيما بعد أنه من مدينة الطيبة في المثلث داخل الخط الأخضر.

استقل إفراد الخلية مركبتين، بدأوا بتمشيط المنطقة التي تتواجد فيها الشاحنة، ينتظرون تحركها بفارغ الصبر، وفي أثناء تجوالهم التقوا بأحد الإخوة الذين انضموا للخلية أخيراً، وأصبح أحد فرسانها الأساسيين، لحظات الانتظار طويلة، والزمن يسير ببطء وصعوبة، ساعات النهار توشك على نهايتها، السائق فرغ من إنزال شحنة الحبوب مع اقتراب الشمس على الأفول، تحرك بسيارته غير أبه قاصداً العودة إلى حيث أهله وبلده أو مكان عمله آمنا دون علم بما يخفيه له القدر فلا ندري أين هي وجهته، لم يبعد كثيراً عن المكان الذي غادره للتو، بل لم يتجاوز مسافة الكيلومتر الواحد، ليقف أمام امتحان صعب، وغير متوقع،

وربما لم يسبق أن أوقفه من ذي قبل، اعترضنه إحدى السيارتين، كان فيها مجموعة من الإخوة المسلحين، احد الإخوة صعد مباشرة إلى جانب السائق شاهراً سلاحه، طلب منه مغادرة الشاحنة، تلكأ الرجل حاول الرفض والجدال، لكن الاعتراض لن يفيد في مثل هذه الحالات، صعد الثاني إلى باب السائق وفتحة، طلب منه النزول، حالة من الرهبة والارتباك تسيطر عليه، لا يدري ماذا يفعل، ينزل من شاحنته مغلوباً على أمره، يسأل بوجل ماذا تريدون؟! من انتم؟ ماذا ستفعلون بالشاحنة؟! لا مجال للحديث، أمروه اصعد إلى تلك السيارة، يتذكر شيئاً، بخشية وتردد أريد اخذ بطاقتي وأوراقي الثبوتية، يسمح له بذلك، صعد لشاحنته واخذ ما أراد، لم يستغرق كل ذلك بضع دقائق، ثم نزل وركب في سيارة الأصدقاء، سار الإخوة الذين استقلوا الشاحنة في طريقهم، ووجهتهم هي ذلك الهدف المنشود، بقية الأصدقاء اخذوا السائق وصاروا يطوفون به شوارع المدينة، عاشوا لحظات انتظار وترقب أكثر صعوبة من تلك التي انتظروا بها الشاحنة وأكثر قلقا وتوتراً من اؤلئك الفرسان الذين أصروا على الخروج وآثروا بانفسهم على هؤلاء رغم أن الجميع كان راغباً ويريد الخروج إلا إن ضرورات العمل تستوجب توزيع الأدوار على هذا النحو.

تحرك فرساننا حال استلامهم الشاحنه وكل الظن أنهم نالوا ما ارادوا من وسائل ولم يبق عليهم إلا التنفيذ، وهو الشق الآخر من المهمة، عزموا أمرهم وانطلقوا بدون علم أن عودة الرجل لأخذ أوراقه مكيدة وغير بريئة المقصد، لكن دوماً قدر الله النافذ، تحركت الشاحنه لتخرج من حدود المدينة إلا أنها بدأت تتباطأ فجأة في سرعه سيرها، على الرغم من أن دواسة الوقود تعمل وفق المطلوب لغاية إلا أن الأخوة في المنطقة كان بإمكانهم التراجع من باب الأمان، لكن العناد والإصرار هو طبعهم، فهل سيتراجعون؟ أم أنهم سيواصلون مشوارهم

دون اكتراث؟ فهم لم ينتظروا هذه اللحظة ليعودوا قبل بلوغ الهدف؟ ينزل الأخ الذي تولى قيادة الشاحنه، يتفقدها ويجري لها بعد الفحوصات الميكانيكية، فهو ميكانيكي مركبات بمهمته، ليعود خلف المقود وينطلق ثانية، لا جدوى من ذالك، فالشاحنة تسير بشكل لايوحي بأي خلل، غير أن سرعتها لم تكن تتدرج بشكل طردي وفق عداد السرعات المطلوبة، والتي من الواجب السير بها، بل توقفت السرعة عند حد لم يتجاوز ٢٠كم/ س وهذا ما أضاء شمعة حمراء في عقول أبطالنا، وأثار أسئلةً عديدة في عقولهم لكنها جاءت في مكان وزمان يصعب فيه التوقف وإجراء عملية التصليح، اتصلوا بالأخوة في المركبة الثانية وطلبوا منهم الاستفسار من صاحب الشاحنه عن السبب لكنه تظاهر بالتجاهل وعدم المعرفة واللهفة عما حصل لشاحنته وماذا سيفعلون بها، طمأنه الإخوة عليها، سرعه السير اقل من السرعة المطلوبة بكثير، وعملية اصطدام سيارة بأخرى لن تكون قويه ومؤثره خاصة في جيب عسكري مصفح، تلاقى الفرسان مع الجيب في المكان المحدد أو قريبا منه، تركوه وشأنه ولم يحاولوا اعتراضه لأن المجازفة بهذا الشكل وهذه السرعة قد لا تكون في صالحهم، واصلوا السير المسافة أكثر أمنا، اوقفوا الشاحنه في مكان أمن قريباً من بلدة بني نعيم، وهكذا تجاوزوا الخطورة وترجلوا وعادوا ادراجهم إلى المدينة دون تنفيذ لمهمتهم، وقد تبين لاحقاً إن السائق قد قام أثناء عودته لقمرة القيادة لأخذ أوراقه، بتشغيل كبسه أمان سرية مصنوعة خصيصاً للشاحنات الحديثة، تعمل على تقليل السرعة أولا، وتضمن عدم السير لمسافات طويلة ثم التوقف بشكل كامل ثانياً.

تم إخلاء سبيل صاحب الشاحنه، الذي ظل برفقه مجموعة الأصدقاء، كإجراء وقائي وخشية من قيامه بالاتصال مع الشرطة الاسرائيلية، وأخبارها بما حدث لشاحنته وحينها ستتوجه بالطلب من الشرطة الفلسطينية للبحث

عن الشاحنه، الأمر الذي سيثير زوبعة إعلاميه وفضح الأمر قبل تنفيذ المهمة المطلوبة، أطلق سراحه وأبلغ عن مكان وجود شاحنته، كإجراء روتيني ومتوقع منه قام بالاتصال بالشرطة الاسرائيليه والشرطة الفلسطينية على حد سواء، وأبلغهما بان شاحنته قد خطفت منه، فتحوا ملفاً لذلك، لكن الاشعات بدأت تطل برأسها من كل حدب وصوب، لقد قيل بان هناك سيارة شحن قد خطفت بحمولتها، وقد قيل إن صاحب الشاحنة قد اختطف، وغيرها من الشائعات لم يكن لها أساس من الصحة، بل جميعها غير واقعية، ولا تحمل من المصداقية شيئاً، وهذا طبعاً معروف لدينا ولدى صاحب الشاحنه وللشرطة الفلسطينية التي تبينت الأمر من خلال أقوال الرجل نفسه، لقد كنّا قد أعلمناه حين إنزاله بأننا لن نعمل أي خلل بشاحنته، وإنما قصدنا لا يعدو نقل اخوين مطلوبين لقوات الاحتلال إلى منطقه آمنه وكل ذالك فقط من باب الطمأنة وإخلائه من المسؤولية في حال تنفيذ العملية.

لم يكن الفشل في هذه العملية مريحاً ومقبولاً بسهولة مع إيماننا بان هذا هو قدر الله وإردته، وبالتالي لا بّد من إعادة الكرة سواء بالطريقة نفسها أو بطرق أخرى يتم اختيارها، المهم يجب المحاولة مّره ثانية وثالثة وعدم اليأس أو القنوط.

الفصل التاسع:

ما أوسع الفكرة ما أضيق الدولة:

"محمود درويش"

رحلة صداقة

من المهد إلى اللحد

للأسير / خليل محمود يوسف أبو عرام

الفصل التاسع:

ما أوسع الفكرة ما أضيق الدولة: "محمود درويش"

لا شك في أن من ينوي العمل وعقد العزم فلن يعدم الوسيلة، ومن يظن أن هذه الطريقة أو هذا الأسلوب كان الخيار الأوحد، فهذا هو الجهل بعينه، فالأساليب عديدة، والخيارات متعددة والمجالات مفتوحة والحاجة أم الاختراع، وإن كان العقل الإنساني والمنطق يميلان دوماً للأسهل والأجدى والأقل مخاطرة وضرراً سواء على حياة الأفراد أنفسهم أم على صعيد المحيط الاجتماعي الذي سيتأثر لاحقا من قبل جيش الاحتلال الذي سيعيث فساداً وتخريباً بعد كل عملية، لذلك تجد أن عمليات حساب كثيرة تجري، وقد تتسبب أحياناً بإثارة الأزمات بين الأفراد، لا سيما اؤلئك الذين يشعرون بالمسؤولية ولديهم الخبرة والتجربة الأكثر جرأة واندفاعاً وحماسة، لكنهم لا يولون الأمر كثير حساب ولا يجول في عقولهم سوى كيفية الحصول على الوسيلة، وجُّل اهتمامهم ينصب فقط في كيفية الخروج للهدف والقيام بما يوكل إليهم من مهمَّات دون النظر للنتائج المترتبة على أعمالهم ومدى تأَثيرها سواء من الناحية السياسية، أم من حيث الأضرار اللاحقة على الأفراد أنفسهم إذا ما وجدوا أنفسهم في مأزق أو أمام إخفاق أو أزمة طارئة بسب التسرع وقلة التجربة وعدم الأخذ بأساليب الحيطة والحذر المطلوبين.

حقيقة الأمر أن الخروج إلى نقطة ما والقيام بعمليات فدائية، كإطلاق نار على هدف معين ليس بالأمر الجلل والبالغ التعقيد، إلا أن المرء إذا ما أراد التدقيق في العواقب لضمان الاستمرارية والحفاظ على أمن الأفراد وسلامتهم، وكذالك الحفاظ على عدم الوقوع في أخطاء قاتلة، وذات نتائج غير مقبولة سياسياً وعسكرياً فإن ذلك سيحتاج إلى حسابات كثيرة، فعلى سبيل المثال لا

الحصر عملية التخفي عن عيون الناس والخروج من منطقة تكفل عدم كشف ومعرفة الأَفراد، واستقلال سيارة غير محددة الهوية والمواصفات التي يمكن الاستدلال من خلالها على الأفراد ومكانهم وعدم الظهور بالسلاح بشكل علني أو استعراضي ملحوظ، محاولة إخفاء آثار العملية، سواء الوسائل التي استخدمت أو تحركات الأشخاص وظهورهم الملفت، كل هذه العلامات والدلائل، ليس من السهوله تجاهلها وإسقاطها أو تخطيها في أي عمل من هذا القبيل، هذا ناهيك عن حب التبني للعملية عبر وسائل الإعلام بعد التنفيذ ومحاولة الاستهتار بالأمن الشخصي أو الاختفاء..

كل تلك الأمور جالت في أذهاننا، إلا أن جرأة الشباب وحماستهم لم تترك لنا مجالاً كافياً لإعطاء خطتنا حقها الكامل من الدراسة والنضج، ولا سيما أننا كنا وإياهم قد رصدنا هدفاً ونحاول وضع اللمسات الأخيرة لخطة التنفيذ كاختبار الزمن الأنسب، وإحضار وسيلة نقل لا تلفت الانتباه إضافة لبعض الإجراءات الروتينية الأخرى، ليتبعها بعد ذلك الخروج للتنفيذ، لكن يبدو أنه قد سبق السيف العذل، فبالرغم من تحذيراتنا ومحاولة ضبطنا. كان الانطلاق أسرع من حساباتنا، فقد قام ثلاثة من فرسان مغاوير خلية الثأر للشهداء التي مر ذكرها بأخذ زمام المبادرة، وتقريب نقطة الصفر، والانطلاق صوب المكان المنتظر متسلحين ببنادق أفراد كوكبة الأصدقاء، لتنفيذ عملية فدائية جريئة في رابعة النهار، وبدون تفكير طويل لما ستئول إليه الأوضاع، خاصة أنهم استقلوا سيارة قانونية وشبه معروفة للعيان، حيث وصلوا المكان المقصود، ونصبوا كميناً لم يطل انتظار الهدف وبتوفيق من الله سبحانه وتعالى، تمكنوا من القيام بعمليتهم البطولية على أكمل وجه، وذالك بعد عصر يوم الجمعه ٢٦/ ٧/ ٢٠٠٢ ثم العودة إلى قواعدهم بسلام، بعد أن اعترضوا وبعملية ازدواجية سيارتين من سيارات المستوطنين المارة على الطريق الالتفافي العابر من ارضي مدينة يطا، موقعين في صفوف العدو أربعة قتلى وعدد من الإصابات، فيما وجدوا في إحدى

المركبات طفلة صغيره فأثروا عدم قتلها أو مسها بأي سوء ترفعاً وإيمانا بأن رسالتهم اسمي من القتل بحد ذاته...

لم يمض وقت طويل على شروع قوات الاحتلال المتمركزة على مدخل المدينة أصلاً لتضرب طوقاً أمنياً شاملاً على مدخل المدينة، وتفرض حظر تجوال داخلها فوراً استمر أربعة أيام، وذلك بعد أَن دخلت دبابات الجيش وآلياته المصفحة، وشرعت تجوب شوارع المدينة وأزقتها بحثا عن الأبطال، ثم اتبعتها بحملة تحرٍ وبحث واعتقال لكل ما تشتبه به أو بضلوعه بالعملية، لكنها لم تصل لأحدٍ من الإخوة المعنيين سواءً من قاموا بتنفيذ العملية أو من يقف خلفهم بل إلى جانبهم من بقية أفراد الخلية وأمدوهم بالسلاح والتخطيط، وعلى الرغم من نجاح العملية فقد تخللها بعض الأخطاء التي كادت تكشف أبطالنا من أول لحظة، وذالك بسبب الجرأة والشجاعة والاندفاع الزائد الذي أوقعهم في تسرع غير محسوب العواقب انطلاقا من عدم التجربة، لكن رعاية الله أولاً ثم استدراك الأخوة للأمور حالاً دون كشفهم للعموم في حينه وليستمروا لوقت أخر.

لم تدرْ عقارب الساعة أكثر من دورة واحدة على تنفيذ العملية، حيث فرضت قوات الجيش حصارها على المدينة، ويأتي التبني الأولي للعملية في وسائل الإعلام وخاصة محطة الجزيرة تلك المحطة الإعلامية الشامخة وذات السبق الصحفي دوماً، والتي سرعان ما تطل علينا عبر شريطها الإخباري المعهود لتكتب: (خبر عاجل) ، لكنها كثيراً ما كانت تزيف الحقائق وتقلبها على غير حقيقتها وذلك لانحيازها الجلي لطرف بعينه وعدم شفافيتها وهنا لا أقول ذالك تجنياً بعدم نزاهتها، بل من خلال تجربة لاحقه معها سوف نبينها في حينه، لقد أعلنت أن العملية التي جاءت كرد ثأري لاستشهاد الشيخ صلاح شحاده وخمسة عشر شهيداً من بينهم تسعة أطفال، استشهدوا في قطاع غزه إِثر قصفهم بطائرة "F16" واعتبر الخبر أن العملية لكتائب عز الدين القسام

الجناح العسكري لحركة حماس، في ما جاء تبنٍ آخر باسم كتائب الشهيدين زلوم وعبيات لكن حقيقة الأمر أن الخبرين لم يصيبا نبأ الحقيقة، وان كان التبني الثاني هو لأحدى خلايا كتائب الأقصى الفتحاوية.

لقد كان بإمكاننا تبني العملية والإعلان عنها من اللحظة الأولى لوقوعها، لكننا ترفعنا عن ذلك إلى حين الانتهاء من التنفيذ والعودة ثم الذهاب للاختفاء لكن لم يكن في واردنا البحث عن الصيت والظهور تماماً كما هو حال أبطالنا الذين انطلقوا وهم يحملون بأرواحهم على أكفهم، بدون شك أن نقاء السريرة وطهر النفوس وخلوها من الغايات والمقاصد الخاصه وحب التضحية والفداء، كانا الأساس والعمل الحاسم في أن كُلّلت تلك العملية الجريئة بالنجاح والتوفيق، وقد يتساءل المرء عن كيفية التنفيذ وإمكانية العودة بسلام وظفر في ظل تواجد قوات الاحتلال على تخوم المدينة ودخولها المتوقع بين الفينة والأخرى، وقد يأتي السؤال في إطار المعرفة بالحقيقه والتشويق لإدراكها واخذ العبر والدروس منها، ولذلك سننقل أحداث هذه العملية البطولية الرائعة كما نعرفها، تماما من خلال رواية أبطالها الحقيقيين، الذين قاموا بتنفيذها مباشرة، ومع عدم ذكر الأسماء تواضعا، ولعدم الوقوع في غرور النرجسية وحب التفاخر الهدام، ولا سيما بعد أَن انكشفت الحقيقة وحكم أبطالها بالمؤبدات المتراكمة، انطلق أبطالنا الثلاثة بعد أن أخذوا السلاح الذي كان مخبأ لدى أحدهما، استقلا سيارتهما التي أخذوها من أحد المواطنين دون علمه للغاية، وانطلقوا صوب الطريق الالتفافي المار من المدينة نحو المستوطنات، وصولا للمكان المطلوب، قسموا الأدوار فيما بينهم اخذ بطلان منهم موقعا لهما على رصيف الشارع، فيما بقي الثالث خلف مقود السيارة، لنقلهم حال الانتهاء من مهمتهم، دقائق معدودة تمر، ويبدأ مسلسل العملية بالدوران، اقتربت منهم سيارة ميني باص إسرائيلية لاقوها بوابل من الرصاص، اصابوا السائق ومن يجلس بجواره بمقتل، بقية السيارة تحافظ على خط سيرها الأخذ بالتباطؤ، ما إن وصلتهم حتى توقفت بالكامل،

تولى أحدهم الإجهاز على من فيها، فيما تمنطق الثاني متخذا موقعا دفاعيا منتظرا سيارة أخرى شاهدها قادمة من المستوطنات، أي من الجهة المعاكسة للأولى ما زالت العملية تدور برحاها، البطل الأول يتفقد من في مركبه، وجد فيها طفلة صغيرة، رفض قتلها رغم إن بإمكانه فعل ذلك، لكنه ترفع رأفه بطفولتها، تبين فيما بعد إن شقيقها الفتى كان قد اختبأ تحته المقاعد ونجا دون علم الأبطال، أثناء سير المعركة، دنت السيارة الثانية، انتبه سائقها لما يدور، توقف بسرعة قبل وصول المكان، لكنه توقف على مسافة تؤهله بمهاجمة الفرسان، حاول الاستعداد بإخراج بندقيته، شاهدْ الأسد الرابض، لدرجه انه حدد حركته ونوعية بندقيته "M16" لكن قبل أن يعدها للإطلاق، كان أبطالنا قد بادروه بصلية من بندقيته فأردوه صريع أمانيه، زوجته من خلف وصديقه الذي معه قاد السيارة بسرعة ليتخطوا أبطالنا الذين امطروهم بصليات رصاصهم، اصابوا السائق ومن معه بجروح، لكنه تمكن من مواصلة السير لمسافة مكنتهم من النجاة إلى إن لقيتهم سيارة الإسعاف وقوات الجيش التي هرعت للمكان، شرعوا بتقديم الإسعاف ونقل الجرحى للمستشفى للعلاج، ثم أخذ القتيل الذي تبين أنه ضابط يعمل على حراسه مستوطنة كرميئيل التي تقام على ارض المدينة، وفيما وصلت سيارات إسعاف أخريات إلى مكان العملية لنقل الجرحى من السيارة الثانية وإسعافهم، تحرك أبطالنا مباشره نحو البطل الثالث الذي ينتظر في سيارته للابتعاد عن المكان والعودة إلى مواقعهم، بذلك أعلنوا نهاية المهمة، وتأكدوا أنهم حققوا الغاية، وأوقعوا خسائر في صفوف العدو لقد أخبرونا بذلك قبل الوصول إلى أماكن سكناهم، لقد اتصلوا بنا والبهجة تملأ صدورهم سجل: إما اثنان أو ثلاثة، هذا ما قالوه... كناية عن عدد القتلى، ولم يخيب ظنهم، حيث كان عدد القتلى بعد إعلان قوات الاحتلال عن ذلك في نشرة الإخبار المسائية ثلاثة قتلى وإصابة ثلاثة آخرين في السيارة الأولى فيما الطفلة تركوها بطيب نفس ورأفه بالطفولة، أما شقيقها الفتى فقد اختبأ ولم يشاهدوه ولم نعلم عنه إلا من خلال صحيفة يدعوت التي ذكرت ذلك، أما السيارة الثانية فكان فيها

قتيل واثنان من الجرحى هكذا كانت هذه العملية الفدائية ذات الخسائر الأكثر في الصفوف العدو منذ بدء عمل أبناء المدينة بأعمال المقاومة خلال انتفاضة الأقصى وقد استمر حظر التجوال أربعة أيام على التوالي.

صبيحة اليوم الخامس رفع حظر التجوال الذي فرض على المدينة، فانتشر الناس في مناكب الأرض سعيا وراء رزقهم وسيل عيشهم، فهذا حال الحياة والخلائق، كل يسعى وراء غاياته، فالتاجر يلحق بتجارته، والعامل يبحث عن رزقه وقوت أطفاله، وكل واحد له مأربه ومساعيه في هذه الدنيا وللمناضل أهدافه الخاصه، وبخروج الناس بدأت حاله الهرج والمرج والقال والقيل لمعرفة سبب الطوق الذي فرض على المدينة خلال تلك الأيام، تخلل ذلك من الإشاعات، بالتأكيد ليس كل الأحاديث شفافة وعابرة فمنها ما كان هدفه الفضولية وحب الاستطلاع والمعرفة، فهذا لدى البسطاء لكن لا يخلو الأمر ممن يثيرون الصخب والضجيج لغاية في نفس يعقوب، وهؤلاء منهم الحذر، مع العلم إن دواعي الأمن تستدعي الحيطة والابتعاد عن الوقوع في مثل هذه الزلات، ولا سيما ان قوات الاحتلال ومخابراته وان كانوا قد خرجوا من المدينة، فهذا لا يعني أنهم تنازلوا عن البحث وكشف من قام بالعملية، إنما هذه خطة من خطط العمل الاستخباري الهادف لتحديد هوية الفاعلين، في ما كان هناك أيضا المتهجمون والمشككون والمحبطون، وكذلك البسطاء الذين يميلون حيث تميل الريح، وحيثما تكون الحلبة، إذا فحدث ولا حرج فالأقوال كثيرة ومن وراء كلّ حديث غاية تختلف عن الأخرى ومن يراقب الناس يمتْ قهراً، وهكذا فكل مايقال ويثار لا يستحق الوقوف عنده بينما المهم في ذلك هو تحصين الذات وعدم الانجرار وراء استشارات الناس وأسئلتهم التي لا تنتهي، فكل سؤال يفتح الباب لعشرات الأسئلة، وأفضل الأجوبة على ذلك هو القاعدة الأمنية: لا أسمع ولا أرى ولا أتكلم، ومن قال لا فقد أَفتى فكثرة الحديث توقع في الشرك وتعلم الثرثرة وكما قال رسولنا عليه السلام: «من كثر كلامه كثرت أخطاؤه» وقوله: «استعينوا على قضاء حواجكم بالسرّ والكتمان».

بين كل عمليه وأخرى هناك فرصة فاصلة لالتقاط الأنفاس وإعادة ترتيب الأوراق ولملمتها وهو ما يسمى باستراحته المقاتل، ولا سيما ان الاحتلال يقوم بدوره من حيث التحري والاعتقال وبث العيون، فإذا كانت العملية الأولى في شباط عام ٢٠٠٢م والتي جادت بأولى الإصابات في صفوف الأعداء، فان الثانية التي تليها وجاءت لتضيف لها زخماً نضالياً وتاريخياً أكثر أهمية، ولتسجيل انتصار أخر كانت عملية ٢٦/ ٧/ ٢٠٠٢م لكن لا يعني إن الحالة المسيطرة جمود وانكفاء، بل الأمر يتعلق بإعادة الاستعداد، لغزوة جديدة من ناحية ومحاولة التواري عن الأنظار لبعض الوقت عن قوات الاحتلال وعيون أعوانهم من ناحية ثانية، علَهم يحتارون ولم يتمكنون من تحديد موقع المناضلين وأماكن تخفيهم، ولا تنسى أَن أكثر من عدو يتربص بنا، فليست قوات الاحتلال هي العدو الوحيد الذي يتبعهم ويقتفي أثرهم، بل هناك عدو من بني جلدتنا يعيش بين ظهرانينا أشد فتكاً وخطراً، وان كان تهديدهم الظاهري ليس بمستوى حجم الجيش ومخابرات الاحتلال إلا أَن ذلك يستدعي الحيطة والحذر منهم بشكل أكبر، انطلاقا من المثل القائل: (احذر عدوك مرة واحذر صديقك ألف مرة) ولذلك فالمطلوب عدم الاستهتار أو الظهور العلني لضمان الاستمرارية، ولا نذيع سرا إن قلنا إن بيننا تفاهم داخلي للاطاحة بهؤلاء الأوغاد وخفافيش الظلام بخاصة من يأبى التراجع ويصر على خدمة الأعداء، ولا سيما أن سلطتنا الوطنية مكبلة بقيود واتفاقيات لا تجيز لها محاسبتهم ما داموا لا يشكلون خطراً عليهم، لكن هذا الشرط لم يكن ليردع خلايا كانت مجندة مسبقاً ونائمة بأمر مخابراتي لتستيقظ وتنشط في هذه الآونة، وتبدأ التحرك تحت جنح الظلام لمتابعة وترقب نشطاء الانتفاضة وتنقل المعلومات لمخابرات العدو، وكذلك عن عناصر الأجهزة الأمنية وأنشطتها وتحركاتها بقدر ما يتاح لذلك العميل من حرية وسرعة الاطلاع وسهولة التنقل وإيصال المعلومة.

ومن الجدير بالذكر إن هؤلاء العملاء لا يستطيعون العيش في الأجواء الصحيحة والسليمة، وبعيداً عن مراكز الاحتكاك، وبالتالي فإن أجواء العمل النضالي حالة والحراك الوطني وتحرك المناضلين وأفراد الأجهزة الأمنيه قد مثل لهم بيئة خصبة وأجواء ملائمة للتحرك وبخفة، لاختراق هذه المواقع ومعرفه ما يدور داخل هذه البيت، من أسرار ومعلومات وترتيبات ونوايا وأبعاد (...) من شانها أن تحمل تهديدات لقوات الاحتلال، ويمكنها أن تمثل معلومة لهذا العميل وذلك ليلتقطها ويذهب بها إلى رئيسه أو مشغله في جهاز الشباك (.........)، لهذا تم الزج ببعض العملاء بشكل عام بين مجموعات المقاومة المختلفة ليراقبوا ويتابعوا زمام المبادرة والمساس ببعض العملاء وتهديدهم في بعض الأنشطه السرية، التي لم تصل إلى مرحلة الحسم بقدر ما كانت تمثل حالة تهديد ومحاوله لجس نبض السلطة ومدى ردة فعلها من ناحية، وتعبيراً عن رفضهم لهذا الحالة غير الأصيله في صفوف الشعب، والتي جاءت كجريمة من جرائم الاحتلال الذي حاول العبث والتخريب في الصف الوطني لضربه وتقويضه من الداخل من خلال سلوك هذا الطابور الخارج عن الصف، هذا ناهيك عن حالة التعرض لهم جاءت لتثير شعوراً لديهم بأنهم مكشوفون للتنظيم والسلطة كذلك الشرفاء، وان يد العدالة والحق ستطالهم إن طال الزمن أم قصر، ومع مرور الأيام وحيازة أفراد التنظيم على ثقة المواطنين وكسب ودهم، ومع أزياد مهمّاتهم وتحركاتهم فقد استدعاهم الأمر لتوخي الحذر، لا سيما بعد أن سقط أكثر من شهيد في المدينة، وكان من بين هؤلاء الشهداء الشهيد مراد هروش الذي كان عسكرياً في قوات الأمن الوطني وحائزاً على شهادة البكالوريوس في العلوم العسكرية فرقة مظليين من إحدى جامعات الهند، كذلك الشهيد عيسى الدبابسة الذي سقط برصاص الوحدات الخاصه الإسرائيلية ووحدة المستعربين "دف دفات"، لذلك فقد لجأت مكاتب التنظيم لإعداد أرشيف أمني وتشكيل لجان أمنية من بين أفراد المواقع لتتولى مهمة جمع المعلومات والتنسيق مع الأجهزة الأمنية للسلطة الوطنية في هذا المجال، وقد كلّف بعض المواطنين ليشكلوا عيوناً

ساهرة وباتوا يتابعون ويرصون تحركات أفراد الطابور الخامس المكشوفين والمعروفين عن ارتباطهم مع مخابرات العدو، أو من تدور عليهم الشبهه الأمنية وتحديداً الذين يتواصلون معهم ثم دراسة أحوالهم وتحركاتهم الملفتة والمثيره للشبهة والخشية، وتحديد هؤلاء العناصر لتجنبهم والحذر منهم حال تحرك أفراد التنظيم.

لكن يبدو أن الأسابيع والأيام التي تلت عمليه الاجتياح، وجاءت لتؤكد صحة المثل القائل: (مصائب قوم عند قوم فوائد) حيث أَن تواجد قوات الاحتلال داخل المدينة عزز الثقة في نفوس أفراد الطابور الخامس الذي أبوا إن يغيروا جلودهم ويتراجعوا، معتقدين أنهم باتوا في أَمان وأن الزمان قد دار وجاء دورهم وفرصتهم، وأَن رياح غنائمهم قد هبت، فنهضوا من سباتهم وكشروا عن أنيابهم، وشرعوا بتحرك بشكل ملحوظ، وكأن تحركاتهم تأتي من باب التحدي واثبات الذات وفرض الحضور، استعداداً لمرحلة جديدة، قد اتضح ذلك بعد تمكن خلايا العمل التنظيمي الفاعلة في الميدان من اختطاف بعض من العناصر المشتبه بها واستجوابها وردع بعضهم منهم للحد من نشاطهم وثنيهم عن سلوك هذا الطريق الشاذ والخطير، ولإيصال رسالة لبقية العملاء وأجهزه المخابرات الصهيونية بأن هؤلاء العملاء لن يقفوا حائلاً أَمام المناضلين، ولن يثنوهم عن مواصلة درب النضال، والمقامة

والأكثر دلالة وتوضيحا على ذلك هو ملف ذلك العميل، الذي تم خطفه والتحقيق معه من قبل إحدى مجموعات التنظيم الناشطة، بعد تتبعه ورصد كافة تحركاته ودراسة حالته وسلوكه الاجتماعي وظروفه المحيطة، والتأكد من تورطه، وقد تبين مدى ضلوعه وعقائدية انتمائه لأسياده الصهاينة وإصراره على عدم ترك مستنقع الرذالة والانحطاط، مع العلم أن أحد الأجهزة الأمنية للسلطة قد استدعاه أكثر من مره إلا انه واصل تعاونه، وسولت له نفسه إن

يبقى محافظاً على علاقته مع مشغليه المباشرين، وهم شقيقه الأكبر وابن عمه، فيما ظهر جلياً مدى أهمية هذا العميل الذي شارك بشكل مباشر في رصد تحركات الشهيد عيسى الدبابسه وتتبعها عن قرب لحظة استشهاده وهو يتواصل مع مشغليه الذين كانوا متواصلين مع المستعربين وقوات الاحتلال، وشارك كذلك وبنفس الطريقه في تسليم اخوين من أفراد التنظيم، وهذا ما أظهره بشكل لا يقبل الشك في اعترافاته التي نشرت في شريط فيدو مسجل بالصوت والصورة، كما إن صحيفة يدعوت احرنوت الإسرائيلية الصادرة ما بين ١٥/ ٧/ ٢٠٠٥م قد نشرت في إحدى صحفها بالتفصيل حينما كتبت عن طريقة وصولهم للشهيد الذي كان مطارداً منذ عام ١٩٩٧م إلى حين استشهاده أواخر عام ٢٠٠١م على خلفية قتله لأحد المستوطنين، مع العلم أننا تعرضنا كأفراد خلية الثأر للشهداء، ومن اعتقل من كوكبة الأصدقاء للتحقيق حول مقتل هذا العميل الذي علمنا عن تصفيته، وقد تبنى التنظيم ذلك بعد نشره شريط فيدو وصل التنظيم نسخه عنه.

لكن الأكثر غرابة في الأمر أن تجد رجل المخابرات، وهو يحقق معنا كان مدافعاً عن هذا العميل ونافياً أن يكون مرتبطاً مع المخابرات ونافياً هذه التهمة عنه، لكن بعد ثلاثة أعوام تقريباً من اعتقالنا، بل بعد إجراء محاكمتنا بأربعة أيام، وأثناء قراءتنا للصحيفه العبرية، قرأنا الخبر فيها، فوجدنا مدى الترابط في أحداث القضية بمجملها، ومدى الإشادة بالوحدة التي استطاعت الوصول إلى الشهيد وقامت بتصفيته، وإبراز الدور الذي قام به العملاء بتغطية المهمة.

لقد أثارت قضية استشهاد المناضل عيسى الدبابسه بداية المشوار تساؤلات عدة، وأجواء من الشك وعدم الثقة بين عناصر التنظيم وأفراد الأمن الوطني، العاملين على إدارة الحاجز في تلك القرية، من ناحية، وخلقت حالة من البلبة بين المواطنين، وحالة من الازدراء اتجاه أفراد الأجهزة الأمن، وبدأوا بتوجيه

أصابع الاتهام لهم بالتواطؤ بشكل مباشر أو غير مباشر في تصفية الشهيد على يد قوات الاحتلال والمستعربين، وقد تعزز الشك من خلال الخطة المحكمة التي حاكتها مخابرات الاحتلال ورسمتها سوية مع أفراد الطابور الخامس الذين وقفوا خلف هذه الفعلة الدنيئة في دجاجير الظلام، إلا إن إرادة الله في إظهار الحق اقتضت إن ينفض الأمر من خلال التحقيق مع العميل الذي بين الخطه بتفاصيلها والقصد من ورائها بشكل لا يقبل الشك أو التؤيل، وهكذا أصبحت صورة أفراد الاجهزه الامنيه والتي لا تشك في براءتها ووطنيتها جلية وواضحة وما الأحكام الأولية إلا ردات فعل عاطفية جاءت لحظة الصدمة الأولى وتفاعلها مع حبكة العملية بالصورة التي كانت قد أدخلت اللبس وأثارت الشك ليس إلا، وقد تبين أن لا احد من عناصر الأمن هناك على علم أو دراية، لا من قريب ولا من بعيد في هذه القضية، ومن خلال اعترافه المنصوص عليه في الشريط، أظهر ذالك المأجور كيف قاموا بالطلب من المسؤول الأجهزة الأمنية بضرورة إخلاء نقطة الحاجز التي كانت مقامة على ارض لهم وأمام منزلهم مباشرة بحجة أنهم يريدون البناء عليها وقد جاء ذلك تماشياً مع الخطة وهدف المخابرات، وتم حياكتها بين مشغله وهو شقيقه وجهاز الشاباك الصهيوني، وهذا ما تم تفصيله في شريط الاعتراف، لقد سبق القول إن فرساننا لم يعرفوا طعما للراحة، ولا سيما في الأشهر الاخيرة التي تلت عملية الاجتياح، بل الاحتلال الحديث للمدينة، حيث تبين أن الجيش لم يبرح المدينة، وهذا أعطى لأفراد الطابور الخامس حرية التحرك، لذلك أصبح العبء أثقل إذ عليهم مقارعة الاحتلال ومستوطنيه، كلما سمحت لهم الفرصة بذالك، وملاحقة أعوانه كلما تمكنوا منهم وشعروا بخطورتهم، وهذا له دلالاته وأَبعاده ومخاطره، كذلك عليهم خدمة مواطنيهم اجتماعياً وخدماتياً في مجال العمل الخدماتي والميداني والمؤسساتي، فالأعباء كثيرة والمسؤوليات جسام والأخطار المحدقة متعددة ومختلفة، وقد ألقى مقتل أحد العملاء في في شهر آب ٢٠٠٢م عليهم بظلاله، وزاد من توغلات الجيش ومحاولة ملاحقتهم وجعلهم أكثر حذراً في تحركهم محاولين البحث عن وسيلة

أو آليه ليخففوا الضغط عن أنفسهم، ويجبنوا أنفسهم خطر المواجهة المباشرة وغير المتكافئة أو على الأقل تأجيلها إلى موعد لاحق.

ومع نهاية شهر أيلول وإطلالة تشرين الأول من العام نفسه ٢٠٠٢م كان لنا وقفة جديدة مع غزوة أخرى من غزوات النضال الفتحاوي، لكنها هذه المرة كانت أكثر دقة وترتيباً وإعداداً وحكمة وتبصراً لما يعترضنا، وربما ذلك نتيجة الاعتبار من العمليات السابقة وما تخللها من أخطاء، إلا إن حسابات بني البشر مهما بلغت من العناية فلن تصل الكمال، ودوما يعتريها النقص والخلل، لا سيما وأننا لا نمتلك من المقومات والإمكانات شيئاً أمام عدو يمتلك العدة والعتاد، وكل وسائل التكنولوجيا القتالية والحربية والرصد والمراقبة الحديثه، فيما نحن عزل من كل شيء سوى الإرادة والعزيمة والتصميم على مقارعة المحتل معززين بالأمان بعدالة القضية وحتمية الانتصار.

وفي الخامس من تشرين الأول كان التحضير والإعداد والتخطيط ليتبعها بعد أيام قلائل العمل والتنفيذ لكن جاء التحضير لهذه العملية لسببين اثنين، أما الأول فكان رداً على جريمة من جرائم الاحتلال وثأراً لشهداء ثم اغتيلوا في محافظة نابلس في ذلك الأسبوع هذا من ناحية، فيما كان السبب الثاني خاصا بنا في المدينة ودحر قوات الجيش التي بان حضورها بعد مقتل احد العملاء في شهر أب ولم تبرح تدهم المدينة بين لحظة وأخرى، مما شكل علينا ثقيلاً وتهديداً إضافيا لكل تحركاتنا، وبالتالي أردنا إيصال رسالة لهذا القوات والعملاء، إننا موجودون ولا نأبه لكل التهديدات ناهيك عما أثير من لفظ حول اتهام أفراد من الخلية باصابة مواطنين في وضح النهار، أثناء قيامهم بمهمة لبيت احد العملاء المتحصنين في بيته، وبهذا أردنا إن نمحو أَثار هذا الضجيج والصخب، ولفت أنظار الناس نحو النضال ولمقاومة المحتل، ولذلك شرع أفراد الخلية بهدوء وروية في البحث عن مكان ملائم والتخطيط لهذه العملية، وفكروا

بالأسلوب والوسيلة، فوجدوا إن الخروج بنفس الطريقه والأسلوب الذي خرجوا به في المرات السابقة هو الأنسب.

تم الاتفاق على الخيار وهو القيام بعمليه إطلاق نار من كمين ينصب بمحاذاة الطريق الالتفافي، وعليه بدا السعي لإحضار سيارة غير معروفه الهوية، وان تبقى مخفية دون الظهور في المنطقة إلا لحظة التنفيذ، ثم إتلافها حال الانتهاء منها، كذلك بدأ تحضير العتاد اللازم والممكن توفيره لاستخدامه لحظة التنفيذ، فيما قام الأخوة بالبحث عن المكان وتحديده وعمل بروفة أولية على ارض الواقع من خلال الذهاب بسيارة قانونيه والاطلاع على المكان والطريق الذي سيسلكه الاخوة لحظة الذهاب والإياب وقد وزعت الأدوار علما أَن عملية التوزيع أخذت من الجدل والنقاش حول مَنْ مِنَ الأفراد الذين سيخرجون للتنفيذ، خاصة وان الأفراد خلية الثار الحضور حينها وهم ستة أخوة قد اجتمعوا للتباحث بهذا الشأن والكل فيهم كان تواقاً وراغباً للخروج بل ومقاتلا للذهاب في هذه العملية، لكن النقاش الهادف والحريص الذي أيده الجميع بعيداً عن التفاخر والاستهتار بل اخذ جانب الإقناع والعقل والواقعية، فقد طرح الأبطال الثلاثة الذين خرجوا في العملية الأولى، أنهم خرجوا معاً وكانوا موفقين في المرة السابقة، لذلك كان طلبهم بان يسمح لهم بالخروج بالتركيبة نفسها، فيما طرح الآخرون إنكم خرجتم في تلك العملية، وحان دورنا هذه المرة، بين الشد والرخا وقد تم الاتفاق بينهم على خروج الفرسان الثلاثه معا فيما يخرج الرابع مرافقا لهم لتصوير العملية ويتبعهم أخر بسياره أخرى كي ينقلهم بعد إن يقوموا بحرق السيارة التي يمتطونها حال انتهاء التنفيذ والابتعاد مسافه محددة عن مكان الحادث، فيما يبقى الأخير والذي كان مطارداً ومطلوباً لقوات الجيش للتخطيط والتجنيد والإعداد لعملية أخرى ومتابعة الأمور وما سيتبعها من تطورات قد تطرأَ لحظة التنفيذ أو بعده خاصة وان حالة الانتظار لأصدقاء وإخوة ورفاق درب يحملون أرواحهم على اكفهم ليست بالأمر اليسير، بل يسودها القلق

والخشية على مصير الأخوة وما سيعترضهم، والكل كان يريد التخلص من هذه المسؤليه على قرينه، فيما حسمت الامور على هذه التشكيله التي تمت الاشارة إليها وإجراء تصوير مسجل لأفراد الخلية ولم يبق إلا إعلان ساعة الصفر لهذه العملية، فكل الامور باتت جاهزة فالسيارة مخبأة في مكان سري إلى حين لحظة الإقلاع، وقرر الفرسان الاجتماع مساء لمناقشة بقية المسائل.

انعقد الاجتماع الأخير بين أفراد الخلية عصر يوم الاثنين ٧/ ١٠/ ٢٠٠٢م وكأننا في الوداع مع الحرية فلم نجتمع بعدها قطعاً فمع ساعات الزوال انفضت الجلسة، وخرج الاخوة كل في طريقه، خاصة الذين لم يكونوا مطلوبين لقوات الاحتلال قبل ذلك، جاءنا خبر دخول قوات الاحتلال داخل المدينة، نصبوا حاجزاً طياراً متنقلا في المنطقة، لم نولِ الأمر كثير اهتمام، بل اعتبرنا أَنه ليس إلا دخولاً اعتيادياً، كتلك الجولات التي كانت تتلو عمليات الاجتياح لا سيما إنهم كانوا قد أوقفوا أحد الأخوة وهو قادم لحضور الاجتماع ولحسن حظه ولعدم اكتراث احد الجنود تركوه وشانه، لكن كل ذلك كان مجرد صدفة، ولكنهم لم يكملوا حينها إقامة الحاجز، وهذا ما تبين لاحقاً عندما أقدمت قوة من الجيش بعد ساعات الليل على مداهمة منزل هذا الأخ واعتقاله، كما قامت بمداهمة منزل أخر لأحد الأخوة الذي كان بعض مجموعة الأصدقاء كثيرا ما يتوارون ويختبئون في بيته كلما اقتضت الحاجة ذلك واعتقلوه أيضا، لكن تم الإفراج عنه بعد مده لم تتجاوز النصف شهر.

هكذا كانت النتيجة اعتقال أحد أفراد الخلية الرئيسين عشية اليوم الذي سبق التنفيذ، بل جاء اعتقاله بعد الاجتماع الأخير الذي أعلن فيه عن نهاية الاستعداد للعملية، وانتظار اللحظة المناسبة للخروج والتي تأخرت، بسبب دخول الجيش للمدينة، لقد كان ذلك امتحاناً صعباً، وأصبحنا إمام خيارين اثنين الأول تأجيل العملية خشية إن يكون لدى المخابرات معرفة بمكان العملية

من خلال اعترافات قد يحصلون عليها من هذا الأخ، استبعدنا ذلك لمعرفتنا بان التحقيق لم يصل إلى هذه الدرجة من المعلومات خلال الساعات الأولى من اعتقاله، كذلك لعدم مشاهدتنا لأي تحركات تثير الشك والريبة في المكان المعهود، أما الخيار الثاني فكان الخروج بالعملية مهما كلف الثمن بشرط أَن يتم التنفيذ في اقرب فرصه بعد خروج الجيش، أي قبل أن يحدث أي اعتراف وتسرب من قبل الأسير هذا، وثانيا كي نوحي للمخابرات بأن الأسير الذي بين أيديهم ليس على علاقة بالعملية وان اعتقاله لن يفيدهم، بشيء خاصة وانه كان مهندساً معروفاً وليس عليه أي اعتراف سابق، ولا شكوك حوله بهذا الجانب، وهذا على الأقل ما جال في أذهاننا في اللحظات الأولى ومعتقدنا أنهم بذلك يخففون عنه ضغط التحقيق، قوات الجيش لم يغادروا المدينة، أمضوا ليلتهم في بيت أحد المطلوبين من أفراد الخلية ظنا انه يأتي للبيت، وهكذا بات مع الزمن الأخذ بالنفاذ خوفاً من اعتراف الأسير بشيء، مع الجيش الذي ما زال متواجدا في المدينة وقيد حركتنا وحرية فرساننا الذين ينوون الخروج للتنفيذ كحال الصياد والشنار.

بزغ فجر الثامن من تشرين الأول، الجيش ما زال مستحكماً مكانه، بقي الوضع على هذا الحال إلى ما قبل الظهيرة بساعات بلغت الساعة الحادية عشرة وعشرين دقيقة بالتوقيت المحلي، الجيش يغادر المدينة منسحبا، فرساننا على أهبة الاستعداد، لم يحتاجوا وقتا طويلا للانطلاق منهم على جاهزية تامة، وكانوا ينتظرون هذه اللحظه بفارغ الصبر، أسلحتهم كانت في متناول أيديهم، وسياراتهم المخبأة كانت تنتظرهم، انطلقوا نحو الهدف المنشود، لم يفكروا كثيرا، نصبوا كمينهم على رصيف الشارع، اوقفوا سيارتهم بين الأشجار الموجودة في المكان على جانب الشارع، نزل الفرسان الثلاثة فيما الرابع الذي كان من المفترض أَن يصور العملية أصبح أسيرا، نقطة الجيش المركزية التي تشرف على مدخل المدينة تبعد مسافة لا تزيد عن كيلومترين بالحد الأقصى،

مكان هذه العملية يتوسط المسافة بين مكان العملية الأولى ونقطة الجيش المتمركزة على مدخل المدينة بعد لحظات قليله، تطل سيارة اسرائيليه قادمة من المستوطنات المقامة على أراضي المدينة والمتجهة إلى الشمال، فرساننا لها بالمرصاد، تقترب منهم بسرعة، أسلحتهم معمره وجاهزة، اخذوا أماكنهم، وصلت السيارة أمطروها بنيران رشاشاتهم، أصابوا من فيها، الشارع يميل إلى الاستقامة السيارة بقيت تسير وتخطتهم قليلاً، لم تبتعد سوى بضع عشرات من الأمتار، ثم انقلبت، المكان سهل وترابي والمنطقة مكشوفة، تعالوا لنلحقها..... هيا!!!! كلا بل تعالوا لننسحب، هكذا الاتفاق، لا نريد الوقوع في الأخطاء، الجيش لم يبعد عن البلد، بل على أطرافها، كما إن نقطة تمركز الجيش سترسل دوريتها المعتاده على المناوبة والتي لا تحتاج لأكثر من دقيقتين وتكون عندنا اتركوا السيارة وشانها، غادروا المكان عائدين، لكنهم سلكوا طريقا مغايرا لذلك الذي ينتظرهم صديقهم بالسيارة الثانية فيه، واصلوا السير حتى دخلوا المدينة وهم متلثمون بأقنعتهم جاءتهم إنذارات التحذير، بعودة الجيش للمدينة مباشرة ومن كل الاتجاهات بعد أن كانوا قد غادروها للتو، اعترضوا سيارة لأحد المواطنين انزلوه منها واستقلوها بدلا من سيارتهم التي تركوها في عرض الشارع، ساروا باتجاه إحدى قرى المدينة، صاحب السيارة لحق بهم لإعادة سيارته، اتصلوا بصديقهم..... طلب منه ملاقاتهم في نقطة حدودها، استجاب لطلبهم، تركوا سيارة المواطن وغادروها مترجلين لملاقاة صديقهم، التقوه ركبوا معه وذهبوا إلى حيث ارادوا الاختباء، مع كل الأخطاء التي أحاطت بتحركهم هذا وتركت بصمات لتتبعهم إلا إن الله شاء لهم بالوصول بسلام

دقائق قليلة ربما لم تتجاوز العشرين دقيقة، كانت قوات الاحتلال تباشر فرض التجوال على المدينة، لله العجب!!! فبين مغادرتها للمدينه ووقوع العملية ثم عودتها إليها مده زمنيه لا تزيد عن ساعة ونصف الساعة بالحد الأقصى، أي أشباح هؤلاء جنيون أم انسيون، يدخل الجيش فلا يجد شيئاً وبعد خروجه

بقليل، حدث الهجوم وعلى مسمع نقطة معسكره الأساسية، لم يتوان الخبر العاجل بالإعلان عن قتيل وثلاثة جرحى، تفرق فرساننا ليختبئوا كل في المكان الذي يريده، لكن هذا المرة كانت الظروف أكثر تعقيدا وصعوبة. فلم يعودوا بعدهم كما كانوا، أحد الفرسان اعتقل عشية اليوم الذي سبق حدوث العملية وكانت حبة العقد الأولى قد انفرطت، راقب أبطالنا الأحداث وبقوا مختبئين طوال مرحلة منع التجوال، التي لم تزيد هذه المرة عن ثلاثة أيام، حيث أصبح لأسيرنا قرابة الأسبوع في الأسر، لم نره بعد ذلك الاجتماع بل لم نعرف عنه شيئاً سوى أنه في الأسر، ونخشى أن تظهر أمام والديه، فماذا سنقول لهم؟؟؟ وكيف سنتمكن من تهدئة خواطرهم؟ هل سنقول انه سيحكم بالمؤبدات؟ وكيف سيتقبلون ذلك لنتركهم يتجرعون كأس الهم ويواجهون مصيرهم بطريقتهم الخاصة.

لم ندرِ أَن امتحاناً ربانياً آخر كان بانتظار بطل من أبطال الخلية، وواحد من الذين نفذوا العملية، فبعد رفع حظر التجوال بيومين لا غير وقبل إن نلتقي معه ثانية وأَثناء قيادته لسيارة شقيقه ومعه أفراد أسرته تعرض لحادث سير، حيت اصطدم مع سيارة أخرى يقودها أحد المواطنين ومعه والده المسن، أصيب الوالد وكذالك أفراد الأسرة بجروح مختلفة، نقلهم مناضلنا وسائق السيارة الثانية للمشفى في المدينة، لكن الوالد المسن لاقى حتفه وانتقل إلى رحمة ربه متأثرا بإصابته وكبر سنه ومرضه الذي كان يعاني منه، وانتهى به الأجل خلال هذا الحادث الذي أيضا أثر على ترتيب أوراقنا وشوش على برنامجنا فقد قامت قوات الاحتلال عصر ذلك اليوم بمداهمة المشفى بحثا عن فارسنا الذي وقع معه الحادث وقام بإسعاف أفراد أسرته لكن حظه كان قد خرج منها للتو متجها للمنزل لطمأنة عائلته ووضعهم بصورة الحدث.

أثناء عودته للمنزل تفاجأ بان قوات خاصة تتربص به وترابط حول منزله، تحصن داخل البيت، لتبدو حلقة جديدة من مسلسل الرعب والخوف، لم تتوان

قوات الجيش من تعزيز تواجدها، انتشرت حول البيت المكون من ثلاثة طوابق، طوقته بشكل كامل، اخرج جميع من في المنزل إلى العراء، تحصن البطل داخل مخبأ أعده للحظات الشدة لا يعلم به سوى أحد أشقائه وواحد من أفراد الخلية.

بضعه أيام تمضي على اعتقال أسيرنا الأول فاتحة العقد واليوم الأربعاء ١٦/ ١٠/ ٢٠٠٢الساعه الحادية عشره صباحا، وصلنا الخبر بوجود الفارس مطوقا اتصلنا به هاتفيا طلب النجدة وطلب السلاح، ومكبرات الصوت تناديه بالخروج وتسليم نفسه، زخات الرصاص تتناثر صوب المنزل، الإخوة من كوكبة الأصدقاء في امتحان حقيقي، لا يدرون ماذا يمكنهم فعله كي يخلصوه، تحضر جرافه عسكريه ضخمه، طائرتان تحومان في سماء المنطقة، قوات الجيش تطوق الحي بالكامل وتمنع الناس من الاقتراب، أفراد عائلته والجيران يجلسون خارج المنزل في العراء، يطوقهم عدد من الجنود كل من اتصل ليخرج فهو مراقب من قبل سيارة عسكريه تأتي خصيصاً في مثل هذه الحالات لمراقبة المكالمات الهاتفية الصادرة والواردة، يطلقون صواريخ الفاو على المنزل، يبدأ بطلنا بالاتصال مستنجداً، يصعب علينا القيام بذلك فلا احد يستطيع الخروج من مخبئه، شرعت الجرافه بهدم أجزاء من المنزل، مسؤول المخابرات يستدعي والده، يلبسونه بزة جاكيت خاص وفيها جهاز تصوير وتنصت، يطلبون منه الدخول لإقناع ابنه بتسليم نفسه، يدخل الوالد ينادي ابنه المتحصن، أبى التحدث مع والده خشية أَن يؤثر في نفسه واعتقاداً بأن والده قد يعمد لإقناعه بتسليم نفسه ربما خوفاً على حياته أو لربما حرصاً على المنزل الذي يأوي ست أسر لأشقائه وعائلته، يعود الوالد أدراجه مقتنعاً أَن ابنه غير موجود، يصدقه رجل المخابرات، لأنه يعلم من خلال الأجهزة المركبة في البزه العسكرية التي أَلبسوه إياها، أَلبسوه البزه ثانية لشقيقه وكرروا الطلب ذاته، يذهب شقيقه إليه، فهو يعرف المخبأ، يقنعه إن لا يسلم نفسه ثم يعود، يخبرهم بعدم وجوده، كذاب اعتقلوه، الجرافة تواصل زحفها في هدم المنزل على البطل المتحصن أمام ذويه وأبنائه.

الحصار مستمر وعقارب الساعة تدور ببط شديد، بسب انتظارنا للحظة مغادرة الجيش لكن الوقت يمر بسرعة أمام عجزنا نحن التنظيم عن فعل أي شيء لإنقاذ حياة رفيق دربنا، فأي إمكانات لدينا إمام عشرات المدرعات ومئات الجنود وطائرتين مروحيتين وساعات النهار على حالها، حاولنا أَن نفكر في شيء ما، تشاورنا، تحاورنا ولدت فكرة لا بأَس بها، وقع الرأي عليها، لنتحرك بسرعة ونعمل بها يجب أَن نقنعه بان لا يتحدث على الهاتف النقال علهم يقتنعون بعدم وجوده، لكنه يتصل مع آخرين، يلتقطون المحادثة يتأكدون بأنه موجود، يواصلون العمل تجول الفكرة في رؤوس كوكبة الأصدقاء أنها أكثر حيوية، حياته أهم من كل شيء، لا نريد له أَن يستشهد أمام عيون أطفاله ويهدم المنزل على مرأى ذويه، كيف سنواجههم بعدها، فنحن عاجزون عن مواجهة ذوي الأسير الأول فكيف بنا باثنين، وماذا لو قتل؟ لذلك سنحاول الاتصال بأحد الأخوة عضو برلمان ومسؤل تنظيمي، اتصلنا به، أخبرناه وحذرناه من مغبة ترك الأخ يستشهد أمام أطفاله لكننا نعرف إمكانات الرجل وهؤلاء اليهود، لن نسامح أنفسنا، حاول الرجل جاداً ومشكوراً، وهذا جزء من واجبه، وواجبنا شكر الناس، جاءنا الاتصال انه هو لم يطل علينا الانتظار، فأجاب، لقد اتصلت بأعضاء اللجنة المركزية للحركة، فهم في اجتماع لكنهم يخبروننا باجابة من ثلاثة خيارات.

♦ **الأول**: أَن يقاوم حتى الشهادة، نعم حتى الشهادة، يقاوم مئات الجنود المحصنين؟؟؟؟!! وبمسدس لا غير؟؟؟! هذا يعني الانتحار هل يوجد غير ذلك وصفا؟؟؟!!! فلينتحر..... ليس الأول الذي يحاصر بلا سلاح ويستشهد؟؟؟!

♦ **الثاني**: يستسلم ويسلم نفسه مباشرة، ومن يضمن انه قد يستسلم ولا يطلقون النار عليه مجرد إن يطل برأسه إذا لا ضمان لحياته، فالحلول والخيارات قاسية ومؤلمة فليس حال من يأكل العصي كمن يعدها، من سيواجه ذويه، هم

نحن مجموعة الأصدقاء فكيف سيكون ذلك وبأي الوجوه يمكننا أَن نواجههم وهل نستطيع وضع عيوننا بعيونهم، لنرى خياراً آخر علنا نرضي ضمائرنا!! ...

♦ **الثالث**: أَن يتم الاتصال بالصليب الأحمر ليجري تنسيقه مع الجيش والمخابرات وليتم تسليمه من خلال دخول رئيس البلدية وعضو المجلس التشريعي إليه، فكرة لابأَس بها، وواقعيه ويمكننا أَن ننقذ البطل المحاصر من موت محقق إذا كتب الله له النجاة وتمكنا من التنسيق مع الصليب الأحمر قبل وصولهم إليه.

اقتنع أفراد التنظيم بالفكرة وبدأوا بإجراء اتصالاتهم مع الأخ عضو التشريعي الذي تواصل مع الصليب الأحمر، وشرع الصليب بالتنسيق، حان وقت العصر، الأصدقاء على أعصابهم لكن لا احد يعلم أين هم لأنهم يتحدثون من منطقة بعيدة وآمنة ويرسلون من يراقب لهم المكان ويأتيهم بالأَخبار دون علم احد من المحيطين، أومن أسرة البطل، اللحظات ليست طويلة قياسا بالزمن، لكن مع الانتظار وجدناها كيوم من أيام الحشر، جاء الرد رفض رجل المخابرات دخول أي أحد إلى المحاصر، ولم يسمح لرئيس البلدية أو لعضو البرلمان بالاقتراب من المكان، وقال عليه تسليم نفسه وليهدم المنزل عليه، اتصالات الاستغاثة وطلب السلاح منه متواصلة، أريد أَن استشهد، انتم تعرفون ما هو مصيرنا، أجابه أحد الأخوة لا تقلق سلم نفسك ليس هناك من هو أجرأ وأشجع منك، أبنائي أمانة في عنقك، وأَنا سأبقى متحصناً حتى النهاية، لا تقلق على أبنائك، لكن تأكد انه ليس هناك من يستحق الحياة أكثر منك، لحظات ليست طويلة وغير اتصال هاتفي مؤثر، الدموع في عيون من تلقى كلماته وهو يوصي على أبنائه، أنها فعلا أمانة عظيمة، أبناؤه فقط يريد أَن يوصي عليهم، لكنه يوصي من هو شهيد مع وقف التنفيذ فلا احد يدري من سيسبق الآخر بالشهادة، لحظات من الإقناع بينه وبين رفيق دربه، وهكذا كانت النهاية مع الساعة الخامسة مساءً حينما قفز على حين غره بين الجنود المدججين بالسلاح، انتبه الجنود، ارفع يدك لا

تتحرك.... اخلع ملابسك.... وهكذا انتهت قصة درامية، كادت نتائجها أَن تكون تراجيديه، إلا أنها توقفت عند الاعتقال والزج ببطلنا في أقبية التحقيق ليبدأ مرحله من مراحل النضال.

هكذا وخلال مده زمنيه لم تتجاوز الثمانية أيام فقدنا عزيزين من كوكبة الأصدقاء، وعضوين رئيسين في خلية الثأر للشهداء، وبسرعة لم نتوقعها تسقط حبة أخرى من حبات العقد فيما كان قد سبقهم قبل ذلك ببضعة اشهر اعتقال أخوين آخرين من ذات الكوكبة ونفس الفريق وذات المجموعة الذين لم يحظوا بحضور تشكيل خلية الثأر للشهداء فيما كانوا فاعلين في الخلية الأولى التي جاءت بباكورة ثمار الزرع ومثلت باكورة العمل المشترك في ايقاع الإصابات لأن اعتقالهم مبكرا حال دون مواصلتهم، كما إن ثلاثة أخوة من النشطاء كانوا قد اعتقلوا قبل تلك الفترة فيما الرابع كان قد سبق الجميع بعام كامل حينما داهمته وحدة خاصة في منزله.

لا ننكر أَن عملية الأخوة قد شكلت لنا إرباكاً وضربة قاسية، إلا إننا ننهض بعد كل ضربه أشد قوة وبأساً على الأعداء، فبعد اعتقال الأخوين المذكورين من أفراد المجموعة نهضنا وشكلنا خلية الثأر للشهداء كخلية مصغرة من أفراد كوكبه الأصدقاء، والتي كما سبق وأشرنا أصبح الجميع على شراكة حقيقية معهما، من خلال العمل والفعل النضالي بغض النظر عن المسمى الذي لم يكن قد عرف بعد سوى من أفراد الخلية فحسب.

اجتمع بعض الأخوة الذين شعروا بعمق الجرح والألم الذي الم بهم بعد اعتقال الخوذة، خاصة وإنهم على تماس مباشر معهم لحظه بلحظة، تدارسوا الأمر وتباحثوا الدور المطلوب القيام به خلال هذه الفترة الدقيقة، خاصة وأن الإخوة الذين اعتقلوا في الفترة الأخيرة ما زالوا رهن التحقيق ولم يمض على اعتقالهم سوى فترة قصيرة لا ندري ما بدر منهم من اعترافات، وإن كانوا

سيصمدون أم لا؟ وما يمكننا فعله للتخفيف عنهم، فالجيش بات يمارس نشاطاً مكثفاً داخل المدينة وقد نجح في تحقيق بعض النجاحات باعتقاله للإخوة، فهل نختفي عن الأنظار ونترك باقي الأخوة وشأنهم جل هذه الأمور كانت بحاجة إلى حسابات عقلانية بعيدة عن العاطفة والتهور، وربما يساورنا الشك أحيانا بأننا قد اخطأنا في حساباتنا، وقد نقول أحيانا أنه لو قدر لنا العودة والعمل من جديد لغيرنا الكثير من الأساليب والمفاهيم والتكتيك بما يخدم إستراتيجية عملنا بشكل أفضل، لقد حدث كل ذلك وأوصلنا نقاشنا هذا إلى ضرورة التخطيط لعملية سريعة، لكن أَي عملية هذه؟ فنحن لم نلملم جراحنا بعد، وقد غاب عن الخلية أخوان منذ عدة أيام، وما زالوا رهن التحقيق، والعملية الأخيرة لم يمض عليها سوى أسبوع فهل نتريث وننتظر ماذا سيحدث مع الإخوة في الأسر، لكننا نعلم تماماً أنهم يحاكمون وإن كنا نكابر ونخفي ذلك عن الأهل، فالناس ليسو بهذه السذاجة، وبات الحديث جلياً، خاصة بعد اغتيال البطل الثاني الذي نفذ العملية،

الأغلبية إذا مع ضرورة القيام بعملية أخرى لا بد من إدخال أخوة إلى الخلية من بقية كوكبه الأصدقاء أو من غيرهم أدخلنا بعض الإخوة إلى مجال العمل لكنهم لم يكونوا معنا في الاجتماع الأول رغم أنهم من الأصدقاء لقد أصبح لنا في هذه المرة حسابات جديدة، فالعمليات الأولى تم تبنيها من قبل حركة حماس ومن خلايا تابعة لكتائب الأقصى لكن في الواقع لا يستند إلى أي أساس من الصحة، وليس لهم أي علاقة ذلك، وهنا لا نتحدث عن التنظيم أو الكتائب بشكل عام، لأن المجموعة تابعة أصلا لهذا التنظيم.

قررنا القيام بعملية تراعي نمطية العمل نفسه وأسلوب العمليات السابقة، إلا أننا فكرنا هذه المرة بتبني العملية باسم خلية الثأر للشهداء ليعم الاسم بين الجميع، وأكدنا على ضرورة نقل العملية إلى خارج حدود المدينة لنقل

الجيش من المنطقة وتعميم أسم الخلية على المدن والقرى المجاورة، وذلك لضمان التغطية الأمنية، وتشتيت تركيز جهد المخابرات والجيش على غيرنا.

شرع أفراد الخلية بدراسة المكان المناسب للعمل فيه، كان لديهم خيارات عدة على تخوم المدينة وخيار واحد خارجها، قد يحتاج ذلك جهداً إضافياً وإمكانات مختلفة، وبالرغم من أن معرفتنا الجغرافية بالمكان جيدة، فإن أن المعرفة _بطبوغرافية _ المنطقة التي سينتقل إليها أفراد الخلية بعد العمل وكذلك إمكانية إدخال سيارة غير معروفة الهوية لم تكن مهمة يسيرة علينا، وبخاصة أننا مطلوبون لقوات الاحتلال وتحركاتنا لم تكن سهلة كما كان في السابق لذلك بدأنا بتذليل العقبات التي ذكرناها واحدة تلو الأخرى، شرعنا أولا بحل مشكلة الحصول على السيارة وفق ما يتوافر لدينا من إمكانات مالية محدودة، وبعد جهد جهيد حصلنا على سيارة لكنها لم تكن بالمستوى المطلوب للأمن حيث الجودة ولا من حيث صلاحياتها للإيفاء بالغرض، لقد قطعتنا من أول الطريق، حيث تعطلت أثناء تجولنا وبحثنا عن مداخل ومخارج المنطقة التي سنسلكها، قمنا بإصلاحها لكن لم يغير إصلاحها من الأمر كثيراً، غير أنه كلفنا بعض الوقت والمال، الإصرار هو العنوان والدافع، ربما كان العطل الذي حدث في السيارة كان مؤشرا وتحذيراً لنا كي نعيد التفكير، إلا إننا لم نتدارك الموقف بل واجهناه بعناد وإصرار، أو لنقل بغير اكتراث، حيث اتفقنا على بقاء أحد الإخوة خلف مقود السيارة ويحافظ على محركها مشتغلاً، مشكلة أخرى أطلت علينا وهي مشكلة السلاح الذي سيستخدم في العملية، فلدينا قطعتا سلاح، واحدة كلاشنكوف والثانية "M16" حجم طويل وكان يجب نقلها إلى بلدة سعير وهذا بحد ذاته مجازفة، فحواجر الجيش والإخوة مطاردون، ما العمل إذاً؟ أرسلنا اخوين توكلا بمهمة نقل السلاح، تمكنوا من الوصول للمنطقة بسلام، مكان العملية مفترق بيت عانون الواقع على الشارع الالتفافي بين مدينتي الخليل وبلدة سعير، الوقت منتصف النهار، الناس في تزاحم ذهابا

وإياباً من والى تلك البلدين، فرساننا بانتظار الإشارة، فحصوا المكان لاشك في انه مناسب ويمكنهم القيام بعملهم بسهولة، سينتظر بعض الوقت حتى قدوم الهدف الذي سيمر على ذلك الشارع، الانتظار سيكون بين الناس الذين يتجمهرون بجانب سيارات النقل العام، وقوفهم بالسلاح مثير للشك والريبة ويعرضهم للخطر، ولا أحد يؤمن عدم وجود عيون بين جموع الناس هناك، مشكلة أخرى هي في قطعة السلاح الطويلة إذ يصعب إخفائها تحت الجاكيت، لابد من تبديلها بأخرى اقصر لكن هذا سيحتاج إلى وقت إي حظ سيئ هذا الذي يعترض طريقنا، فكلما انتهينا من معضلة أطلّت علينا أخرى برأسها، أحد الإخوة الذي يشرف على التحضير والاعداد للعملية عاد للمدينة لا بدَ من إخباره بما حصل، إذاً سيتم استخدام الهاتف وإجراء الاتصال بهذا الشأن لقد أضحى الخطأ واردا فالكل يعرف أن أجهزة الاتصال النقالة مراقبه، حاول تشفير مكالماتهم والتحدث برموز محدودة، لكن إي شفرة ستعوق مخابرات العدو الذي يمتلك الوقت والإمكانات الكافية لحلها مهما بلغت من التعقيد، يبدو أن إحدى شرائح الهاتف مخترقة من قبل الشاباك، ومن الواضح أنهم التقطوا بعض المكالمات وصار لديهم بعض الإشارات الموحية لأمر ما، لكنهم لم يحددوا المكان، لقد اتضح ذلك من خلال تحركات الجيش على مفترقات الطرق الالتفافية والمداخل المؤدية لمدينة الخليل الآتية من المدن والقرى المجاورة لها، تأكدنا من ذلك لاحقا حينما وجدنا بعض الرموز والكلمات لدى ضابط التحقيق بعد اعتقال الإخوة وفحص اجهزة اتصالهم المصادرة، وقطعنا الشك باليقين من خلال المكالمة الأخيرة التي جرت بين أفراد الخلية أيوجد تحرك كثيف للجيش، اجل الموضوع، خلال يومين ستصلك أخبار سارة.

مساء يوم الثلاثاء الموافق ٢٩/ ١٠/ ٢٠٠٢ كانت عودة ذلك الأخ الذي ترك رفاق دربه عائدا إلى المدينة، وذلك بعد أَن أَنهى وإياهم الاستعداد، والتحضير والتخطيط للعملية من ألفها إلى يائها، من شراء سيارة وتعريفهم بمداخل

البلدة والاتفاق على مكان لإخفاء السلاح حال التنفيذ وكل تلك التفاصيل، وصل صديقنا بعد رحلة عناء ليلية مشياً على الأقدام إلى قرية الحيلة الواقعة على إحدى التلال بين مدينتي يطا والخليل، خشي الذهاب إلى منزله لأنه مطلوب، استيقظ صبيحة اليوم التالي بعد ساعات نوم وراحة لدى صديق أخر من كوكبة الأصدقاء كانوا يبيتون عنده في تلك القرية الوادعة، كان يريد وصول منزله عله يتزود ببعض المال ليتدبر به أمره، لكنه لم يتمكن، تلاشى طلب نقود من صديقه خجلا ليس إلا، لا يملك سوى شيكل واحد في جيبه، وعليه أَن يعود للإخوة في بلدة سعير لإيصال قطعة سلاح مناسبة وبديلة عن تلك الطويلة بناءً على اتصال جرى ليلة أمس، السلاح بات جاهزا وما عليهم إلا نقله، الساعة قرابة التاسعة صباحا من يوم الأربعاء، جاء النذير وحصلت المفاجأة التي غيرت الحسابات جميعها حيث دخلت دورية جيش إلى القرية فهذه هي المرة الأولى التي يدخل فيها الجيش إليها منذ اندلاع الانتفاضة، تحرك الإخوة الموجودون في المنزل وهم ثلاثة إضافة إلى صديقنا ابن تلك القرية، الذي يبيتون عنده، انقسموا إلى قسمين، ابتعدوا عن المكان، غادرت الدورية القرية، اثنان من الإخوة انتقلوا إلى بطن الوادي ثم ساروا شمالا، للمدينة ثم اخذوا بالانحراف من خلف الجبال وعكسوا طريقهم صوب قرية الريحية غرب المدينة، عادت دورية الجيش ومعها تعزيزات، الأخوان الآخران نزلوا الوادي وساروا شمالا باتجاه مدينة الخليل حيث يوجد لهم صديق هناك في قرية قلقس، مكثوا عنده حتى ساعات الليل ثم رجعوا للقرية حينما غادرها الجيش بعد ساعات من البحث والتفتيش، فيما الإخوة الأوائل وجدوا لهم ملاذاً في مكان آخر تواروا فيه حتى صبيحة اليوم التالي حالت رعاية الله في تلك الليله من وقوعهم في الأسر.

صبيحة يوم الخميس الموافق ٣١/ ١٠/ ٢٠٠٢ يوم لا ينسى من ذاكرتي كيف لنا بنسيانه ونحن من ذلك اليوم ولا زلنا ندفع ثمن ذلك ألما ومعاناة وحرماناً، ومع ساعات الفجر الباكر دخلت قوات خاصة معززة بقوات كبيرة من

الجيش، واجتاحت قرية الحيلة، وانتشرت بوديانها المتصلة مباشرة مع جنوب مدينة الخليل وصل الخبر للإخوة الذين عادوا للقرية ليلاً، تمكنوا من الانسحاب عبر الوادي باتجاه مدينة الخليل، وصلوا المدينة، استقبلهم صديق لهم، علم بقية الإخوة بوجود الجيش، الأخوان اللذان انطلقا بالأمس تفرقا وأصبح كل واحد منهم وحده، أحدهم كان مطلوبا لقوات الجيش وصار عليه من الاعترافات ما يؤهله لأخذ أحكام مؤبدة، حالة الخوف والرهبة تجعل الدنيا في نظر المرء أضيق من سمَ الخياط.

حاول أخونا الانتقال من بيت أحد المواطنين الذي بات عنده ليلته إلى مكان أخر، اتجه صوب قرية الريحية ثم اجتازها متنقلا بين بطون الجبال، وصل أحد الأودية الواقعة بين قريتي الريحية وبيت عمرا، جلس تحت ظل شجرة زيتون، وساوس صدره تحدثه، يصدقها تارة ويكذّبها تارة، أخرى هل هو في مكان امن، قد يلتقطون محادثاته ويحددون موقعه، إغلاق الجهاز أفضل قد يتصل بعض الإخوة من كوكبة الأصدقاء فشقيقه مطارد ومعظم أفراد المجموعة هم كذلك، ولا أحد يعرف الحقيقة إلا الجيش ومخابرات العدو، لكن الكل يتعامل على أنه مطلوب وعليه الحذر، يأتيه اتصال.. يرد عليه.. إنه مدير نادي الأسير، أهلا وسهلا... اعترافات الإخوة من السجن قد وصلت خذ بالك من نفسك... اعترفوا عليك لا بأس، بيعين الله المهم سلامتهم، أعط الأوراق للمحامي م. وهو يوصلها لنا، جيد..... سلام.

ثلاث جبات عسكرية تدخل المدينة من مدخل قرية الريحية تسير بسرعة جنونية، يشاهدها صديقنا، لا بد من تحذير الشباب وشقيقه واحد منهم. اتصل به، خذوا حذركم دخل الجيش من طريق الريحية، جيد......... علم الأمر. لا احد يعلم سبب الدخول، وصلوا مركز المدينة، أعلنوا منع التجول، سمع إطلاق أعيرة نارية، اتصال من الإخوة الذين ذهبوا إلى مدينة الخليل، أين أنت؟ في بلاد الله

الواسعة، لا تقلقوا خذ بالك من نفسك أو تعال عندنا، يطول الحديث على الهاتف، يغلق الهاتف في وجهه، الكلام ليس مجاناً، بالعادة يتحدثون بألغاز ورموز غير معروفة لأحد سواهم، قد يتفقون عليها في حينه، على سبيل المثال تعال إلى حيث شجرة التين، أو لدى صاحب التراكتور. وهذه كلمات مفتوحة تحمل معاني كثيرة، إلا أَن أحد الإخوة كان طيب القلب، وكثيراً ما كان يطيل المكالمة، ولا يلقي بالاً لذلك، وهذا نوع من الإخفاقات التي اضرّت بهم يوم اعتقالهم، اتصالٌ واردٌ من شقيقة أحد الأخوة في الأسر تريد الاطمئنان عن شقيقها، لا تقلقي يا اختنا إن شاء سينزل من السجن قريبا، لا يستطيع إخبارها غير ذلك، ولا تدري أننا استقبلنا للتو اتصالاً من نادي الأسير يخبرهم بأن اعترافاتهم قد وصلت!! ولماذا ينتظر اعترافاتهم فنحن أدرى بما لديهم من عمل. حاول إنهاء المكالمة إن شاء الله قريباً يعودون إليكم، تودعه قائلة خذوا بالكم من أنفسكم، لماذا تساقطت حبات عقدكم؟! بيعين الله يا اختنا، اتصال آخر، إنهم الإخوة الذين ذهبوا إلى الخليل، مرة ثانية انتم، ماذا بكم؟ هل علمت بأن لوائح الاتهام قد وصلت نادي الأسير؟ علمت بذلك، اخبرهم كي يعطوها للأخ "ا. ع."، فهو الآن في مدينة الخليل كي يوصلها لنا، جيد سأبلغه، هل ستأتي عندنا، نحن عند عبود توكلوا على الله وعينوا خيراً وأغلق الهاتف. حاول أخونا الانتقال من حقل الزيتون، وكأن القدر يقوده إلى آخر لحظات الحرية، لقي أفعى قتلها، جلس على قبو بئر ماء مغلق، أول غيث السماء قد هلَّ، شرب من حوض البئر، تساقطت حبات المطر الدافئة، والتي عادت تتساقط من بداية شهر تشرين الأول، يسميها الفلاح شتاء المساطيح أو الزيتون، كذلك يكون المزارعون قد قطفوا العنب ونشروه للتجفيف ولعمله زبيباً.

واصل صديقنا السير بين الجبال والأودية، باتجاه قرية دير رازح التابعة لمدينة دورا، وصل أحراج القرية المزروعة على الشارع الواصل بين مدينة الخليل وبلدة الظاهرية، تريث قليلا، شاهد سيارة تاكسي فلسطينية تقف على

مفترق طرق مدرسة المؤدي إلى بيت عمرة ويطا، عندها مجموعة من الجنود، أدرك أَن الأمور صعبة وخطيرة لكنه في مأمن لغاية الآن، جلس قليلا من الوقت تحت شجرات الأرز، ثم صعد إلى قمة الجبل حيث قرية دير رازح، ذهب إلى صديق له هناك تناول ما قسم له من طعام، وأدى صلاة الظهر، قرر العودة إلى مدينة يطا، كان في الصباح قد أجرى اتصالا مع أحد الأصدقاء ليأتي ويأخذه بسيارته لكنه وجده يغط في نومه، فآثر عدم إزعاجه أكثر ولكن الآن أصبح قرار العودة إليه واردا، خاصة أَنّ النهار قد انتصف بينما صديقه من دير رازح، وبعد أَن عرف بنيته قطع الشارع، استعد لنقله إلى طرف الشارع وبعدها يكمل مشواره مشياً على الأَقدام، خجل أَن يرفض العرض ويقول: لا، كي لا يشعر انه خائف، وصل الشارع واجتازه إلى الجانب الثاني... وبدأ يمشي نحو مدينة دورا، القدر يسوقه وهو لا يعلم إي نهاية تنتظره خلال ذلك اليوم، وصل احد المساجد، صلى العصر ثم غير ملابسه وأخفى ملامحه ثم خرج وأكمل الطريق نحو مدينة دورا، لحقت به سيارة تاكسي، أوقفها وأقلته إلى مدينة دورا، أعطى السائق ذلك الشيكل الذي لم يكن معه غيره، نزل عند مركز الشرطة هناك، جاء الاتصال للمرة الثالثة من الإخوة أنفسهم، لماذا تأخرت؟ نحن ننتظرك، لكن أي انتظار سيكون لا أحد يعلم الغيب إلا الله فصديقنا يمشي سيرا على الإقدام، ليس لديه نقود، خذ تكسي لتنقلك إلينا ونحن سنحاسبه، أين انتم؟ عند عبد الحميد: مصنع مبيليا للصابون... الخ، العنوان بالتفصيل على الهاتف، أوقف سيارة تكسي يقودها شاب في مقتبل العمر لا يعرفه، أيمكنك إيصالي إلى منطقة واد الهرية في الخليل؟ أجاب بالموافقة، تفضل اصعد للتكسي، يختلج صدره وينقبض قلبه، لكنه يلتزم السذاجة بالرغم من أَن نفسه حدثته أَن يذهب إلى مكان أخر يعمل فيه احد اصدقائنا، وينزل عنده ويطلب من الإخوة الحضور إليه إلا انه تراجع اخيرا ظنا إن وسوسة النفس سببها الخوف ليس إلا، ناهيك عن أن أخانا الذي سيتصل عليه كي يلحق به سيفصح عن العنوان ثانية ولذلك قرر الالتزام بالذهاب اليهم واخبرهم على اهبة الاستعداد للخروج مباشرة.

وصل زائرنا المكان وما أَن نزل من التكسي حتى وجد صاحب المنزل عبد الحميد بانتظاره، ناول السائق اجرة النقل تاركا له المجال للمغادرة، تبادل التحية مع الضيف ودخلا المنزل معا فوجد الإخوة بانتظاره، القهوة معدة سلفا، وأوراق الاعترافات من نادي الأسير قد وصلت اليهم، تناول الزائر فنجان القهوة وبدون انتظار اخذ الأوراق وامسك بحبة بسكويت على عجل وبنظرات خاطفة قرأ اعترافات الشباب، لم يطيلوا حديثا، سوى أنهم ضحكوا وقالوا: ماذا يا أخ بعدك تضحك؟ فرد عليهم قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا، لم يحتس القهوة بعد، إذ وقع القدر وجاء النذير وكانت الطامة، صدق أو لا تصدق، الجيش يطوق المنزل، ما العمل إذا. ؟ دقائق معدودة، وحصل ما حصل، ليس لديهم أي مجال لترك المكان والانسحاب أو الهروب منه، كما أنهم لا يملكون سوى مسدس واحد فقط، أسئلة كثيرة راودت الاذهان وجالت بفكرهم خلال ثوانٍ معدودة وعليهم الإجابة عليها بسرعة متناهية، كيف جاء الجيش؟ ومتى جاء؟ هل كانوا قبله أم بعده؟ هل كان مراقبا؟ أم أنها مجرد صدفة؟ هل كان الإخوة قبله مراقبون أم لا؟ هل يتهمون صاحب المنزل أم لا؟ هل يستسلمون أو يقاومون؟ ماذا سيقولون للجيش عندما يسألهم: ماذا تفعلون هنا، ولماذا انتم هنا، وماذا سيكون عليه مصير صاحب البيت إذا ما تم اعتقاله، وماذا سيكون عليه حال المنزل حال رفض الخروج منه، كل هذه الأسئلة كان لابد من الاجابه عليها بأسرع وقت.

أدركنا أن الاتصال الهاتفي هو السبب المباشر في كشفنا، لم نستبعد أن تكون قوات خاصة أو بعض العملاء قد انتشروا ورابطوا في المكان، قبل مجيء المناضل لينضم لأصدقائه، لأجل مراقبة الهدف والمنزل على السواء، لكن ربما بدون معرفة هوية القادم للعميل، إذا ماكان هناك عميل فعلا، بقدر ما كانت الرقابة مسلطة على شخص، سيدخل لذاك المنزل فجاء دخول المناضل الذي تواصل مع أصدقائه الذين سبقوه منذ الصباح وحال دخوله، حضرت قوات الجيش مباشرة من مركز الارتباط العسكري الذي لا يبعد عن المكان كثيراً، وقد

لا يحتاج حضورها وتطويقها للمكان أكثر من بضع دقائق.

انصب جل اهتمامنا، إخراج صاحب المنزل وأفراد أسرته من طائلة المسؤولية بقضية ليس لهم فيها سوى استضافة صديقهم وتقديم المساعدة له إلى حين وصول رفيق دربه اليهم ولكن حدثت المصادفة التراجيدية وهذا الخطأ القاتل، أما عملية الاعتقال والتي لم تأخذ وقتا طويلاً، بل حتى أن الأزمة من بدايتها إلى نهايتها لم تستغرق سوى ساعتين لا غير، لقد أدرك مناضلنا أن المطلوب هو تسليم نفسه، كما أنه يعلم تماما أي مصير ينتظره، فقد كان قد تسلم لحظة قدومه ورقة فيها اعترافات رفاق دربه الذين سبقوه للأسر حيث كان محامي نادي الأسير قد أحضرها وسلمها للأصدقاء وبالرغم من ضيق الوقت تمكن من قراءتها بلمح البصر ثم قام بتمزيقها وإتلافها وأوراق أخرى كانت بحوزته، كل ذلك حدث والجيش يطوق البيت، ولم يسبقها كلمات سوى ما كان يمازحه به أصدقاؤه وصاحب البيت حينما تسلم تلك الورقة وكانت كلماته الاخيره تلك التي سبق ذكرها: قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا، وهو يعرف أيضا أَن فترة اعتقاله لن تكون قصيرة، فما هو العمل إذاً؟! رفض تسليم نفسه بداية الأمر حاول التحصن في البيت، لكن لم يكن البيت ملائما للتحصن بسبب طبيعة بنائه، حيث أنه طابق ارضي ومصمم على شكل فيلا، ونوافذه مكشوفة ويسهل اقتحامها للداخل كما أن أصحاب المنزل رفضوا الخروج من المنزل بدون الأصدقاء جميعا، وهو لا يملك سوى مسدس، الأصدقاء أيضا أشعروه بضرورة الخروج حرصاً وخوفاً على الجميع، كل ذلك مرَ بسرعة متناهية، حاول زائرنا التحصن بإحدى الغرف لكنها لم تكن مناسبة، لم يصب أيٌ منا بصدمة أو رعب أو إرباك، دخل صديقنا إلى غرفة بيت الدرج جلس خلف الدرجات نظر للخارج من خلال بيت الدرج المقابل لباب السور الخارجي الذي كان مغلقا أطلت عليه من أعلى باب السور المعدني قبعات الجنود المتحصنين خلف الحائط ليس لديه سلاح هجومي، مكبرات الصوت تنادي من بداخل المنزل للخروج، أدرك

مناضلنا أَن لا جدوى من كل ذلك أمام إلحاح أصدقائه وأصحاب المنزل، وافق على طلبهم خشية عليهم، علماً أن أصدقاءنا سيذهبون للسجن معه، فصل هاتفه الخليوي، وأخرج شرائحه، أعطاه لصاحبة المنزل وأعطاها أيضا مسدسه الخاص، شاهد على إحدى الكنبات (المقاعد) مسدساً آخر لم يعرف لمن هو ساوره شك بأنه لأصدقائه لكن تبين أنهم لا يملكون سلاحاً، خرج الأصدقاء رافعي الأيدي، لم يطلب من أحد خلع ملابسه أو رفعها، ربما أنهم يعرفون أننا لا نملك سلاحاً، قد يكون ذلك من خلال مراقبتهم أثناء دخولهم، طلبوا منهم قول أسمائهم ثم الجلوس على الأرض والوجه للخلف، فعلو ذلك، كل ذلك حدث وبنادق الجنود مصوبة على رؤوسهم ولم تفارقهم، دخل بعض الجنود اليهم، قاموا بتكبيل أيديهم وعصب عيونهم، قادوهم إلى خارج بوابة السور، أجلسوهم بجانب جيبات الجيش ومصفحاته، اقتحموا المنزل وعاثوا فيه خراباً اقتادوا ربة البيت إلى حيث مناضلينا، أخذوا منها المسدس والهاتف الخلوي، أشارت إلى أنها أخذته من صديقنا، سألوه عن المسدس وعن الهاتف أجاب بالإيجاب، سألوه عن المسدس الثاني فأجاب بالنفي لأنه في الحقيقة لا يعرف عنه شيئاً سوى المشاهدة، سأل الأصدقاء الآخرون عن ذلك فردوا بالنفي أيضا، وهكذا اعتقل الأصدقاء الثلاثة وصاحب المنزل وشقيقه ومجموعة أشخاص كانوا قد تواجدوا في المحيط، وصلوا مع الساعات الأولى إلى مركز الارتباط العسكري، الذي لا يبعد كثيرا، ليتم الانتهاء من رحلة الاعتقال الأولى وإلقاء القبض على الأصدقاء ولتبدأ المرحلة الثانية.

مع انقضاء ساعات يوم الخميس الموافق ٣١/ ١٠/ ٢٠٠٢ وحلول المساء وأثناء تواجدنا في مقر الارتباط العسكري الإسرائيلي، حيث تم التأكد من هوياتنا، ثم وضعنا في شاحنة عسكرية محصنة، وانطلقت بنا إلى حيث لا نعلم فعيوننا معصوبة، ونحن نقف بين تحصينات اسمنتية كبيرة مبنية داخل الشاحنة التي تقلنا، فلا وجود لمقاعد أصلاً، وكل واحد من الأصدقاء يقف في

واحدة من هذه الحجرات، انطلقت بنا الشاحنة وإستمر بنا السير قسطاً من الوقت، لم تتجاوز الرحلة أكثر من نصف ساعة بكثير، ليس من السهولة تحديد وجهتها، خاصة أننا نقف بين الحجر الاسمنتيه الموجوده بداخل السيارة وقوفاً، لكن لدينا معرفة مسبقة أن كل من يعتقلونه في المنطقة يتم نقله مبدئيا إلى معسكر عصيون، توقفت الشاحنة وقفه أطول من مدة الرحلة، انزلت حمولتها من الأسرى والمعتقلين، فرقوا الأصدقاء عن بعضهم بعضاً، لا أحد يعرف عن الآخرين شيئاً، فكل واحداً أصبح متكفلاً بذاته، وله مكان قد يكون غير المكان الذي يتواجد فيه الآخرون، وقد تبين لاحقاً وبعد الانتهاء من مرحلة التحقيق والالتقاء داخل أقسام السجن الذي التقوا فيه حيث علم الجميع ما حدث مع أصدقائه، والى أي جهات كانوا قد ذهبوا وكل التفاصيل التي دارت خلال هذه الرحلة الشاقة.

لقد تبين أن مناضلنا نقل على الفور إلى سيارة عسكرية فيما أصدقاؤه وصاحب المنزل وشقيقه فتم إبقائهم في معتقل عصيون، وهو مركز عسكري للتحقيق والتوقيف، أما زائرنا فقد نقل إلى مركز المسكوبية للتحقيق، وقد استغرقت رحلة النقل هذه من مركز عصيون إلى مركز المسكوبية قرابة ست ساعات أو يزيد مع أَن المسافة لا تحتاج لأكثر من نصف ساعة لكنهم توقفوا في منطقة مجهولة لم يستطيع أسيرنا تحديدها، بسبب العصبة التي تغطي عينيه وساعات الليل ودوران الجيب في أكثر من شارع غير معتادة بالنسبة له، أما الأسباب من وراء ذلك فقد تبينت أخيراً أنها كانت على ما يبدوا خطة مقصودة ومبيتة بنية المساس به أو لربما تصفيته وهذا ما تم إستنتاجه لاحقاً من خلال اشاعة كان الجيش قد روجها عبر إعلامه في تلك الليلة، بأن الاسير قد لاذ بالفرار من سيارة الجيش بعد اعتقاله، لكنهم تراجعوا عن ذلك في اللحظات الأخيرة، وعلى ما يبدو أن تراجعهم قد جاء لاعتقادهم أنه يمثل بنك

معلومات عن عمليات يتم التخطيط لها، كل ذلك تم معرفته واستنتاجه بعد فترة التحقيق التي بدأت مع الجميع منذ لحظة اعتقالهم الأولي، لا سيما وأنه كان لدى المخابرات وكما أسلفنا بعض المعلومات حول عملية ما ستقع قريبا وذلك من خلال لقط اتصالات هاتفية بين الأصدقاء، وبالتالي فالتحقيق جارٍ على قدم وساق رغم حلول الأعياد اليهودية، معتبرين أَن أَبطالنا يمثلون قنابل موقوتة، ولا بد من إبطال مفعول هذه القنابل، وذلك بإيقاف ما كانوا يخططون القيام به قبل فوات الأوان، كما تخلل الثلاثة أيام الأولى من اعتقالهم أيضا قيام قوات الجيش بتفجير منزل زائرنا وهدمه في ساعات الليل دونما إي إشعار أو سابق إنذار.

لقد تمكن طاقم التحقيق خلال الأيام الأربعة الأولى من اعتقال الإخوة الحصول على بعض المعلومات التي باحوا بها، وبذلك استطاعوا فعلاً معرفة نية أفراد الخلية بالقيام بعملية فدائية في منطقة بيت عانون، وعرفوا الفرسان الذين سيقومون بتنفيذها، وقد تم ايقافها وحسبما استنتجت من أقوال المحقق أنه تم إشعار السلطة الوطنية بذلك انطلاقاً من أن بعض الاخوة كانوا عناصر في إحدى أجهزتها الأمنية، وأصبح الأخوة جميعا في عداد المطلوبين.

مرحلة جديدة وقاسية صار على بقية أفراد مجموعة الأصدقاء التعايش معها خصوصاً منذ أدرجت أسماؤهم في لوائح الاتهام واعترافات من أصبحوا في الأسر، حيث كانوا من الاخوة النشطاء ومن حظوا بشرف المشاركة بالعمليات التي مرَ ذكرها، وقد صنف بعضهم في إطار من حظيت أياديهم بدماء الصهاينة وأضحى العمل جارياً لاعتقال أو تصفية من يقع تحت يد قوات الاحتلال ومخابراته قبل غيرهم، وكان من بين هؤلاء الاخوة اثنان من أبناء قطاع غزة يعملون في اجهزة الأمن الفلسطينية بعيداً عن ذويهم ومكان سكناهم، مما قد يجعل مطاردتهم صعبه وذات خصوصية عن غيرهم.

لم يمض وقت طويل على اعتقال الاخوة، حتى جاء اعتقال أخر برغم الاختلاف في الطريقة عن المرات السابقه، فقد قرر هذا الاخ الدخول متستراً وتحت جنح الظلام لزيارة خاطفة إلى بيته وأهله معتمداًعلى حذره وقدرته على التخفي، وما إن دخل المنزل حتى سارعت قوات الجيش التي كانت له بالمرصاد، ففي هذه الفترة وقع الجيش الإسرائيلي في خطأ قاتل كان ثمنه قتيلين إسرائيليين، بسبب حالة الهلع والتحسب والخشية من وقوع عمليات في نفس المنطقة، فقد كان لدى المخابرات إحساس أو معلومات بوجود بعض الاتصالات أو إشارات توحي بنية بعض الخلايا بالتحضير لعملية فدائية في تلك المنطقة فشرعوا بالاستعداد وتعزيز دورياتهم في المنطقة، وقد وصل شكهم بسيارة إسرائيلية مدنية كانت تقف في منطقة قريبة من الشارع الالتفافي تعود لمواطنين إسرائيليين يعملان في تصليح شبكة الكهرباء الموصلة لإحدى المستوطنات الواقعة جنوب جبل الخليل، استدعى الجيش مروحيته لمساندة قواته الراجلة، وصلت المروحية للمكان وشوهدت السيارة والمواطنين بجوارها، لم يتريث طاقمها بل قام بقصف السيارة المتوقفة بالصواريخ دون تأكد من هوية ركابها بسبب حالة الهوس والهستيريا الأمنية التي خلفتها عمليات أبناء هذه المدينة، وظناً من طاقم الطائرة بأنه يقوم بقصف سيارة لفدائيين ونشطاء فلسطينيين. لقد غابت عمليات المقاومة العسكرية النوعية ضد قوات الاحتلال ومستوطنيه لفترة من الزمن، لعل الباقون يتمكنون من إعادة ترتيب صفهم ولملمة أوراقهم التي تبعثرت نتيجة ارتفاع عدد المعتقلين من أبناء المدينة من ناحية، ومحاولة المخابرات الصهيونية تشغيل بعض العناصر الجديدة في صفوفها وتنشيط تحركاتها في المنطقة، لمعرفة مواقع النشطاء وتحركاتهم ولتسهيل عملية اعتقالهم قبل أن يلتقطوا أنفاسهم ويتعافوا ويأخذوا بزمام المبادرة ثانية.

تمكن الاخوة من كوكبة الأصدقاء الذين لم يقدر لهم الوقوع في الأسر بعد من استعادة ترتيب وضعهم وتصويب دفة السفينة، حيث بدأوا بالتحرك والاجتماع والترتيب للرقي بالوضع الحركي والتنظيمي، لكن يبدوا أن العاطفة كانت الأكثر تأثيراً وسيطرة على تحركاتهم وأفعالهم، ولا سيما أن تجربتهم القيادية كانت لا تزال هشة وسطحية، وبحاجة إلى مزيد من الصقل، لذلك فسرعان ما وقعوا في خطأ كان باهظ الثمن، حتى إن قلنا أَن الحرية والتحرير لا يضاهيهما ثمن، إلا أن قيمة الإنسان بلا شك غالية ولها قدسيتها.

لقد حمل لنا شهر أيار من عام ٢٠٠٣ وفي تلك المرحلة العصيبة تباشير قاسية، حيث وقع إخوتنا وأثناء تجمع لهم غير محسوب له جيداً، ونتيجة الاستهتار بتدابير الحيطة والحذر اللازمة حال تجمعهم وجلساتهم، إذ وقعوا في حصار ليلي أعده الأعداء وخفافيش الظلام، الذين رصدوا هذا التجمع بدقة وتحت جنح الظلام حيث كانوا يجتمعون في بيت أحد الأخوة المناصرين للحركة، والذي اعتاد الأخوة بالجلوس عنده باستمرار لما يتمتع به هذا البيت من موقع ومزايا جغرافية مناسبة أمنية، لكن يبدو أنه دور الطابور الخامس الذي يتحين مثل هذه الفرص السانحة، وهدف الأعداء الذين يحاولون جاهدين الوصول اليهم، وربما أن العاطفة الجياشة وتأثرهم باعتقال رفاق دربهم، قد سرب اليهم اليأس وافقدهم الصواب وغيب عنهم الأخذ بإجرءات اليقظة والانتباه، ولربما أنها قلة التجربة الأمنية والبساطة، وقد تكون كل هذه الأسباب لتصل إلى نتيجة المثل القائل "إذا حل القدر عمي البصر"، وهكذا حاصرتهم قوه من جيش الاحتلال تسربلت الظلام ووصلوا المكان بخفة، بعد رصده، لا سيما ان إمكاناته المادية والتكنولوجية والبشرية كبيرة بلا شك وأدت هذه العملية الإجرامية والمؤلمة إلى استشهاد بطلين كان أولهم صاحب المنزل الشهيد خالد مخامرة الذي أبى أن يمر جند الاحتلال إلى ضيوفه إلا على جسده الطاهر، ليكون فداءً لهم، فعادت روحه الطاهرة مهللة إلى ربها بعد أن مزقت جسده شظايا قنبلة يدوية ألقاها عليه

جنود الجيش الذين طوقوهم على حين غرة، فيما لحقه أحد المناضلين الضيوف وهو الشهيد البطل محمود بدير من مدينة خان يونس ليختلط دمه الزكي بدم صاحب المنزل وليفدي إخوته الذين تمكنوا من الانسحاب بعد ذلك، وينجوا من هذه المكيدة المدبرة بأعجوبة ومعجزة ربانية، وقد تم كشف العملاء الذين وقفوا خلف هذه العملية الخسيسة والجبانة لاحقاً من قبل السلطة الوطنية، وحكم عليهم بإحكام تليق بمستوى خساستهم ودناءة نفوسهم، لكن كان ذلك بعد فوات الأوان وفقداننا لأخوين عزيزين من أبناء المجموعة.

وأيا كانت الدوافع التي حدّت من نشاط أبناء فتح في هذه المدينة في تلك الفترة، إلا أن هذه المدينة الكبيرة بأفعال ابنائها ظلت على عهدها فلم تخبُ عمليات الأحرار بغض النظر عن انتماءاتهم السياسية ومشاربهم الفكرية فلقد علمتنا مبادؤنا أن النظام الفلسطيني ضد الاحتلال وقوى البغي "فما بالنا أَن جاءت هذه الضربة من نفس أبناء الجلدة، بل من أبناء المدينة ذاتها"، صحيح أنها جاءت هذه المرة ليس من أبناء المجموعة وكذلك ليس من أبناء التنظيم، لكنها جاءت من أحد فرسان المدينة وأبنائها البررة، الذين ثاروا على ظلم المحتل وقهره وطغيانه ليسجل عمليته الأولى عام ٢٠٠١ بقتل أحد المستوطنين الأوغاد الذي يقيم على تراب المدينة عنوة، وأصبح مجاهدنا بذلك مطارداً إلا حين تمكن بعدها من معاودة الكرة والقيام بعملية مشابهة لتلك العمليات التي نفذها أَبطال القصة حيث قام ومعه أصدقاء له بنصب كمين عند محاذاة الشارع الالتفافي بين مدينتي الخليل ويطا، وبالذات في منطقة الفحص مربع سوق الحلال، فصبوا نيران رشاشاتهم على أفراد حاجز طيار عسكري متنقل يقام بين الفينه والأخرى لعرقلة حياة الناس، وقد قتلوا بهذه العملية الجريئة أفراد الدورية الثلاثة واستولوا على أسلحتهم وعادوا إلى قواعدهم بأمن وسلام، ولكن القدر لم يمهل المجاهد محمد سليمان مر هذه المرة طويل الوقت حيث تم متابعته من قبل قوات الاحتلال وأعوانه ورصده ومحاصرته في إحدى المنازل ليرتقي شهيداً إلى جوار ربه والصديقين وحَسُن أولئك رفيقاً.

لقد تخلل تلك الفترة بعض العمليات النضالية التي استهدفت العملاء، وأماطت اللثام عن بعض شبكات التجسس، وقد عقب ذلك في السنوات اللاحقة بعض عمليات التصفية لعدد من العملاء المتورطين في التخابر مع مخابرات العدو، وكان من بين هؤلاء عميل قام بتسليم أحد أفراد الخلية الذي استمر مطارداً لأكثر من أربعة أعوام، حيث عمل على رصده والإخبار عنه، مقابل حصوله على بطاقة هوية إسرائيلية على هذه الفعلة النكراء، وليترك بعدها المدينة هارباً للعيش داخل الخط الأخضر "فلسطين المحتلة عام ١٩٤٨م" ظاناً أن هذه الهجرة ستحميه، وتمنع يد الثورة والعدالة أن تطاله، لكن فرسان الثار وأفراد مجموعة الأصدقاء لم يرتح بالهم إلا بالقصاص من العميل الخائن لوطنه ودينه وشعبة، وليجعلوا منه عبرة لمن يريد الاعتبار.

فقد تمكّن ثلاثة من الفرسان النشامى من متابعته إلى أن وقع في شرك نصب له من قبل مجموعة أخرى من بلدة بني نعيم حيث تم التنسيق معهم لتسهيل المهمة وإلقاء القبض على هذا الخائن الوغد، ونفذوا حكم الله والوطن فيه.

لقد أعقب هذه العملية وفي غضون فترة وجيزة اعتقال هؤلاء الاخوة الذين لم يكن لديهم تجربة أمنية غنية في الأسر، ولاقوا على هذا العمل وبنفس أرضية أحكاما بالسجن، تراوحت بين المؤبد وعشرات السنين، وفقاً لدرجة المشاركة في هذا العمل النضالي والوطني، الذي طهروا به اسم مدينتهم من دنس هذا العميل وليكون عبرة ودرساً لمن تسول له نفسه الخيانة ويعتقد أن دولة الكيان الصهيوني يمكنها أن توفر له ملاذاً أمناً، ولا يفوتنا أن نقدر لعشيرته وأهله ذلك الموقف المشرف الذي أبدوه بالتبرؤ من خسته التي لا تمت لأي شريف بصلة، ونبّهت بكل العائلات أن تحذوا حذوهم وتتعاون مع السلطة والتنظيمات لبتر هذه الظاهرة الدخيلة على شعبنا وتقطع الطريق على الأعداء.

ومن الجدير بالاشارة إلى النسور أبت الهبوط، وزجت بنفسها لتكون محلقة في علياء السماء، ترفعاً وشموخاً وكبرياء، ولنا في ذلك وقفة اجلال لأحد هذه النماذج الذي أصر على ركوب موجة الانتفاضة وخوض معمعان النضال ومقارعة المحتل وأعوانه، برغم كثرة النداءات والنصائح التي وجهت له من أفراد مجموعة الأصدقاء، رأفة بحاله وأطفاله الذين ليس لهم بعد الله سواه، مكتفين بما كان يقدمه من مساعدة ومؤازرة لبعضهم، إلا انه واصل الطلب من الاخوة لقبوله في إطار مجموعاتهم، وقد وافق احد أفراد خلية الثار والمطاردة الأكثر خطورة آنذاك أن يحقق له ذلك، وخاصة بعد اعتقال الغالبية العظمى من مجموعة الأصدقاء، وهكذا أذعن لطلبه واستجاب له بالموافقة على تدريبه وادخاله فعلاً إلى المجموعة، لكن يبدو أن إرادة الله سبحانه وتعالى قضت أن يكثر لنا من الامتحانات لغاية ربانية لا نعلمها، لكننا نعيش لحظاتها برضا وقناعة وإيمان بقدره خيراً وشراً، وربما لأن هذا البطل صدق الله فأراد أن يصطفيه، لقد كان الامتحان هذه المرة صعباً وقاسياً وجاء في غاية في الدقة، فمعظم الأخوة في الأسر بل الأكثر تجربة وقدرة على تحمل أعباء المسؤولية، لكن دوماً الظروف الصعبة تخلق الابطال وتكتشف معادن الرجال، فأخونا الذي اخذ على عاتقة تجنيد الفارس من سكان قطاع غزة، ومن المطاردين المشار اليهم بالبنان مقارنة بدرجة الخطورة على الاحتلال، انطلاقاً من اعترافات توالت علية لمشاركته في تلك العمليات الفدائية التي مر ذكرها وقتل فيها اسرائيلين، لكن هذا هو قدره أن يقع في خطا قاتل وغير مقصود أثناء تدريبه لذلك الفارس فأثناء قيامه بتنفيذ حركة عسكرية وهو يحمل رشاشه محاولاً تعليم ذلك الفارس كيفية إطلاق النار في وضعية يكون فيها واقفاً ثم يستلقي مباشرة ويتبعها بالتسديد، والرماية، فكان القدر أسرع منه والسلاح كان عامراً بالذخيرة وإثناء سقوط صديقنا على الأرض فلتت من رشاشه صلية أصابت فارسنا في عدة مواقع في جسده ليفارق الحياة مستشهداً وترتقي روحه الطاهرة إلى بارئها فإلى جنات الخلد أيها الشهيد أحمد موسى مخامرة. وكل شهدائنا الأبرار، ولا

يفوتنا أن نتقدم في هذا المقام إلى ذويه وكل شرفاء من مدينتا والشرفاء عائلته الكريمة بجزيل الشكر والتقدير على ما أبدوه من صبر وجلد وتفهم، وما قدموه من تسهيلات لهذه القضية، التي كانت مثار تقدير وإعجاب وأية عز وافتخار يتوج به إخوته وأبناءه وأبناء عشيرته، فجازاهم الله خير الجزاء، وجعل ذلك في ميزان حسنات كل من أحسن واسكن شهيدا جنات الخلد وجعله شفيعاً لهم يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

لقد ترك هذا الخطأ جرحاً عميقاً في نفس مناضلنا الذي فقد صديقاً وشاباً متطوعاً بالعمل ورجلاً كان يساند ويساعد ويأوي، كما أنه عند الخطأ أضاف لنفسه ولبقية مجموعة الأصدقاء من مطاردين وأسرى جرحاً لم يكن سهلاً، لأنهم فعلاً خسروا رجلاً مناصراً من ناحية، ناهيك عن خشيتهم من الوضع العشائري السائد داخل هذه المدينة وما يترتب علية من مفاهيم وأعراف، في ظل سابقة مؤلمة كهذا الحدث، كل ذلك كان الشغل الشاغل لهم، ولكن الأصالة والكرم ومواقف الفخر والمروءة التي وقفها ذوو الشهيد وأسرته والشرفاء من المدينة وأبناء التنظيم، شكّلت مواقف عز ومجد وأوسمة شرف تتناقلها الأجيال القادمة لكل المزايدين على هذه المدينة الطاهرة بطهر نفوس أهلها.

سارت عجلة الحياة كيف ما شاء الله أن تسير وتعايش أفراد التنظيم وكوكبة الأصدقاء مع أحداثها على هذه المخاطر، حيث قوات الاحتلال وعملاؤه يلاحقونهم، والعديد من أصدقائهم مضى على أسرهم عام أو يزيد وأضيف إلى أَعداد المطاردين آخرون، لا سيما ان هناك اعترافات على بعض الأفراد قد استجدت بعد التحقيق مع الأسرى خاصة الذين لم يمتلكوا تجربة اعتقالية من ذي قبل ما جعلهم فريسة سهلة لرجل المخابرات أو لعناصر "غرف العصافير" العملاء المتسترين والعاملين في أقبية التحقيق وداخل السجن لخداع الأسرى وسحب الاعترافات منهم وكشف أسماء المجموعات الفاعلة والأفراد النشيطين وجعلهم في دائرة الاستهداف والمتابعة.

وفي تعاقب سريع للأحداث وبعد انقضاء العام الأول على أفراد المجموعة داخل الأسر، ومع حلول عيد الفطر المبارك عام ٢٠٠٣ م، فقد حمل لنا العام الثاني ومنذ بدايته تباشير اعتقال فارسين من أفراد التنظيم، يمثلون كوادر ميدان تنظيماً ونضالاً في آن معاً حيث تم رصد هؤلاء الفرسان ومتابعتهم أثناء دخولهم لمعايدة ذويهم، لا سيما في ذلك اليوم الذي يكون فيه التزاور الاجتماعي والأسري وصلة الرحم على أشده ويبدو أنهم لم يلقوا للأمر بالاً ووثقوا بحسهم وحدسهم وحذرهم تاركين لعواطفهم الجياشة أن تقودهم مغيبين دور العقل والتجربة الأمنية التي كان الاثنان قد اكتسبوها في أثناء اعتقالهم السابق، لكن يبقى أن نقول إن هذا هو قدرهم ولا بد من القبول به، لقد قامت وحدة من القوات الخاصة المستعربين بتطويق منزلهما على حين غرة وعززتها قوات الجيش فاعتقلوا الفارس الأول، فيما حاول الثاني الفرار لكنهم عاجلوه برصاصة اخترقت ساقية فأوقعوه والقوا القبض عليه، وهكذا فقدنا كادرين آخرين من ساحة الفعل والعمل إلا أن سفينة النضال الشعبي تبقى تجوب عباب بحر النضال والمقاومة الوطنية دون توقف، فالنضال الجماهيري لم تخبُ نيرانه، ولن يتوقف تدفق ينابيعه عن مد الانتفاضة ورفدها بأجيال جديدة، بل على الدوام هناك تجدد، فها نحن الآن نتحدث عن قرابة أربعة أعوام من عمر الانتفاضة وعامين من الأسر لأفراد كوكبة الأصدقاء إذ يعني أن من كان صبياً أصبح شاباً أو فتى وبإمكانه الالتحاق أو الانضمام إلى مجموعة الأصدقاء، أو أي من المجموعات الناشطة الأخرى لرفدها بجيل جديد ودماء شابة، وقادة جدد، لتستمر المقاومة الشعبية إلى حين تحقيق غايتها المنشودة، فإرادة الشعب أقوى من الاحتلال، ومع دخول أجيال جديدة إلى ساحة الميدان يزداد عدد المعتقلين، ففي كل شهر أو أسبوع نسمع عن معتقل آخر، وهكذا دواليك لكننا هنا لا نقف عند ذكر الجميع ليس لتميز أو مفاضلة بينهم، وإنما فقط لأننا نستذكر الأكثر بروزاً في العمل التنظيمي والأعلى أحكاما في الأسر، ونشير إلى إننا سنذكر أسماء أبناء المدينة الذين اعتقلوا خلال انتفاضة الأقصى وانتمائهم التنظيمي

وأحكامهم بالترتيب وفق تاريخ الاعتقال بملحق خاص في نهاية الكتاب، ومع توالي الأجيال واستدامة الظلم تتنقل راية النضال من جيل لأخر كي تبقى مسيرة الفعل النضالي وقادة وبالرغم من البروز الأوسع لدور الشباب في تحمل أعباء المسؤولية إلا أن الأشبال أبوا التنازل والمساومة على حقهم واخذ دورهم في المواجه والتصدي لقوات الاحتلال ودحرها عن أرضهم، وهنا كان لنا وقفة مع الشبل الذي فاق فعله عمره، حيث تتلمذ على حب الوطن والنضال ونال الشهادة باكراً إنه الفارس شبل رشاد محمد مر الذي تصدى ومجموعة من أشبال المدينة ببسالة لدوريات الجيش ووحداتها الخاصة التي اقتحمت المدينة يوم ٢٥- ١١- ٢٠٠٣ م لاعتقال احد المناضلين فأمطرها أشبالنا بوابل من الحجارة والزجاجات الحارقة، فحدوا من تقدمها وكشفوا أمرهم فقام أحد أوغادها الحاقدين بتصويب بندقيته نحو ذاك الشبل البريء ليرديه شهيداً، فصعدت روحه الطاهرة مهللة إلى ربها فإلى جنات الخلد أيها الشهيد الشبل، خلاصة لما سبق: لا شك أن اعتقال هذا العدد الكبير من أبناء المدينة بشكل عام وأفراد مجموعة الأصدقاء على وجه الخصوص، أحدث حالة من التراجع في العمل النضالي داخل المدينة أسوة بحالة النضال في سائر المدن والقرى التي تأَثرت هي الأخرى مع توالي حملات الاعتقال والتصفية للنشطاء التنظيمين والعسكريين وازدياد أعداد الأسرى في المعتقلات والسجون، مع مرور الزمن، واحتدام لهيب الانتفاضة والحكم على المناضلين بإحكام طويلة وجائرة، تراوحت بين بضع سنوات وعشرات السنين وأقصاها الأحكام المؤبدة بالتراكم، وبخاصة وان الأحكام في هذه الانتفاضة بشكل وبخاصة جاءت قاسية وظالمة، وهي الأعلى في إحكامها مقارنة مع متوسط الأحكام للتهم نفسها في الانتفاضة السابقة لعام ١٩٨٧م.

ونتيجة لمجمل الأسباب السالفة الذكر فإن الوضع النضالي تحول إلى الخمول وخفت جذوة الانتفاضة، وتراجعت أعمال المقاومة شيئاً ما، وأضحى عدد المطلوبين يقل عما كان عليه سابقاً، كذلك عدد القادمين للأسر من جديد،

كما أن قدومهم أصبح منقطعاً وليس تتابعياً كما في الماضي، بل يحدث وفق حالات المد الثوري والمناسبات الوطنية، ويفصل حملات الاعتقال عن بعضها برهة من الزمن، وهناك تغير في الآراء والمواقف لكن كل ذلك لم ينف وجود متابعة حثيثة ونشطة من أجهزة استخبارات الأعداء وعملائها الذين لا يتركون شيئاً للصدفة ويأخذون كل شيء بالحسبان، خاصة العدد القليل من المطاردين الذين ما زالوا مطلوبين لقوات الاحتلال بسبب مشاركتهم بأعمال نضالية مميزة.

وكما أسلفنا فإن مخابرات العدو تسعى ليلاً ونهاراً للنيل من مناضلينا، وقد جندت عدداً من الأفراد الذين كشفوا في بداية الطريق وقبل أن يتورطوا كثيراً في أعمال التخريب والخيانة لأبناء شعبهم ووطنهم حيث تمّت متابعتهم وكشفهم من خلال التنسيق بين التنظيم وأجهزه السلطة الوطنية، علماً أن كشف البعض جاء بعد فوات الأوان، وبعد أن سبق السيف العذل وأصبح لا ينفع الندم، فقد حدث ذلك بعد تبيان حقيقة ذلك العميل الذي قام بتسليم أحد المناضلين حينما أخبر عنه، بل قدم له سيارة مسروقة ومنظار مراقبة للرؤية الليلية، وكانت المخابرات قد زرعت في جهاز تتبع وإرسال وبالتالي حاصرته ليلاً في منزل لأحد مواطني المدينة، فاستسلم بعد اشتباك نفذت فيه كمية الذخيرة التي بحوزته، ولم تكن كافية بسبب شح الإمكانات، وبهذا بقي بعض المطلوبين مطاردين، لكنهم لم يكونوا الأكثر خطورة، سوى واحد منهم حوصر فيما بعد في منزله، وقد هدمت قوات الاحتلال المنزل عليه، وهو متحصن في ملجأ أرضي أعد لحالات الضرورة على شكل بئر، ولحكمة ربانية نجا هذه المرة ليمكث بعدها قرابة السنة أو أكثر، ثم وقع أسيرا نتيجة خطأ في تحركه غير الحذر وعدم انتباهه أو لبعض الاستهتار.

إن المتتبع لسير الأحداث يجد أنها مترابطة بشكل تسلسلي، وكأنها مكونة من حلقات أو أن كل حلقة تنتهي بترتيب معين وبسقوط واحدة يترتب عليها

سقوط أخرى، فمع قيام ذلك العميل بفعلته النكراء التي تمّ فيها تسليم مناضلنا المذكور، فإن هذا فتح علينا ثغرة جديدة، وزج بعدد آخر من الأخوة ليقوموا بعمل يليق بالتنظيم وأبناء المدينة ومن هنا تحركت مجموعة من الاخوة ومعهم صاحب المنزل الذي اعتقل فيه المناضل وقاموا بمتابعة ذلك العميل وتنفيذ حكم الثورة والشعب فيه، وهكذا أصبحوا مطاردين لقوات الاحتلال ومطلوب القبض عليهم، خاصة أن أمرهم قد أصبح مكشوفاً من اللحظات الأولى لإعدامه، ولا سيما إنهم قاموا بواجبهم في وضح النهار غير آبهين بما يترتب على دورهم النضالي من المخاطر التي تكنها لهم مخابرات العدو لقد وقعوا أسرى عواطفهم الجياشة وتسرعهم وتصميمهم على ملاحقة ذلك العميل وتطبيق حكم الثورة فيه، جزاءً لخيانته وجبنه ولعدم مراعاته حرمة البيت الذي شرع له الأبواب، وكان يدخله بحرية تامة بحكم علاقة المصاهرة والنسب التي تربطه بأصحابه.

من نافلة القول أن النضال الفلسطيني بشكل عام يمر عادة بمراحل مد وجزر، وكر وفر استناداً للوضع السياسي والدبلوماسي الدولي السائد، ولجولات التفاوض الدبلوماسية التي كانت تستهدف منطقة الشرق الأوسط بأسرها، ومنطقتنا العربية خاصة، وبالتأكيد فإن حالة المقاومة الجزئية في المدينة والقرية أو المخيم، هي جزء من النضال الفلسطيني بجملته، تتأثر به سلباً أو إيجابا، وبالتالي فإن الأوقات التي تشهد حملات تصعيد وتوتر استيطاني أو سياسي أو عسكري لهي دليل ومقدمة لركوب موجة من المقاومة والنضال والدفاع عن النفس، ومن ثم يتبعها جولات ورحلات دبلوماسية مكوكية لتهدئة وتلطيف الأجواء وتطييب الخواطر.

كل هذا يعني أن السنوات الأخيرة للانتفاضة شهدت ارتفاعاً في أعداد المعتقلين الذين وقعوا في الأسر منهم من كان مطارداً سابقاً وجاء للسجن، فحكم عليه لبضع سنوات أو مؤبدين، ومنهم من هب لاحقاً وناضل ووقع في

الأسر، في حين بقي عدد من الأخوة المطاردين الذين شملهم العفو الإسرائيلي كبادرة حسن نية تجاه السلطة الوطنية كما أن حملات الإفراج المتعاقبة التي قامت بها حكومة الاحتلال كانت قد شملت عدداً من الأخوة أبناء المدينة أسوة بسائر المدن، وبالتالي فإن طبيعة النضال الفلسطيني هو شمولي وتراكمي، وإن كان جزئياً في إدارته وانطلاقته في كل جزء من أجزاء الوطن.

ومن الصواب القول إن دخولنا المسجد مبكراً حال من الوقوف على حيثيات وأدوار أنيطت بمجموعة من الكادر والقادة والميدانيين، الذين تعاقبوا على إدارة الأمور برهة من الزمن، فكان لهم دور مميز في الأداء التنظيمي والنضالي وان لم يكتب لنا لقاؤهم لنبرز دورهم الذي يليق بهم في هذا الكتاب بشكل غير منقوص لذلك نكتفي بما أوردناه متمنين لهم النجاح في مسيرتهم النضالية التي رسموها، بالمعاناة والمثابرة والألم كل بحجم تضحياته، خاصة بعد انفصالنا عنهم إلى أن لحقوا بنا إلى واقع الأسر، فانتظروا صهوة الفعل، خلفهم إخوة آخرون ليكملوا مشوار التواصل، ولا ننسى دور بعض الاخوة في عمليات نضالية بطولية نفذت لكننا فضلنا القفز عن ذكرها، لان نتائجها لم تكن ملموسة الثمر، وإن كانت من الأهمية بمكان كما هو حال غيرها من العمليات الأخرى.

الفصل العاشر

رحلة صداقة

من المهد إلى اللحد

للأسير / خليل محمود يوسف أبو عرام

الفصل العاشر:

متعددة هي مواقع النضال تماماً كما هو تعدد السبل والأشكال النضالية الموحية لبلوغ الهدف، وتختلف الوسائل والأساليب برغم توحد الغاية والإجماع عليها، وتجود المدينة بالمناضلين كما تجود الأرض المعطاء بغلتها، ويختلف الناس في عاداتهم وطباعهم وأذواقهم وفهمهم تماماً كما هو الاختلاف بين محصول وآخر من محاصيل الأرض، لكن ليس هذا التفاوت لعبث، بل لحكمة ربانية اقتضتها إرادة الله سبحانه وتعالى كي تكتمل دورة الحياة على هذه البسيطة، لذلك فمن الطبيعي أن نجد اختلافاً في درجات التفكير ونسبة الذكاء والشجاعة والكرم والوفاء والإخلاص والفداء والتضحية، فهذه كلها صفات ومزايا لا يمكنها أن تكون مجتمعة وبنسب كاملة في إنسان واحد، لأن الكمال لله وحده جل في علاه.

كما أن لكل واقع متطلباته وظروفه المحيطة به ووسائله الملائمة، فلا يعقل أن تستخدم الوسيلة ذاتها، والأسلوب في المواقع كلّها بل سيتطلب ذلك بدون شك تنوعاً، حتى وان وجدت هناك بعض الشواذ لهذه القاعدة لكنها ليست بالضرورة الثبات، وان كان هناك توافق في الشكل الخارجي للوسيلة إلا أن المطّلع سيلمس الفوارق في الجوهر والمضمون، بالرغم من وجود ترابط بين الخطوة وسابقتها، فعلى سبيل المثال يتعلم الطالب في المدرسة، فيقرأ من الكتاب، ويتلقى من المعلم ما هو على السبورة، لكنه حالما ينتقل إلى الجامعة، وبالرغم من أن الهدف واحد لكلا الحالتين، وهو الحصول على العلم، فإن السبوّرة تختلف في الغرض والحاجة إليها، فقد لا تكون أساسية كما كانت

عليه في المدرسة، وكذلك الكتاب، اختلف في جوهرة من حيث مادته التعليمية وحجم المعرفة والمعلومة التي يحويها، وما ذلك من فراق وتباينات، علماً انه في الشكل كتاب كسائر الكتب العلمية، وكذلك المحاضر اختلف في الدرجة العلمية، وفي المادة التي يلقيها وطريقة الأدوار، وإيصال المعلومة وأسلوب التعامل وآلية التعليم.

وهكذا هم المناضلون في مواقع النضال المختلفة، وحال انتقالهم من موقع لأخر فبانتقالهم هذا من موقع يكونون فيه أحرارا في الحركة والتنقل وإبداء الرأي وقول كل ما يريدون والتعامل مع أناس مألوفين، وحالة المنافسة محصورة أيضاً، وفترات المكوث في أوساط اجتماعية غير ثابتة، بل ينتقل الإنسان بين الأصدقاء والأسرة وأبناء البلد والمجتمع، كما أن مقاومتهم للأعداء تكون بالكيفية والآلية والزمان والمكان الذي يختارونه، ويطيب للمناضل أن يأخذ دوره ما دامت الظروف مهيأة، والمرحلة هي مرحلة عمل ونضال ومقاومة، لا سيما انتفاضة عارمة كانتفاضة الأقصى، فقد تجد من كان يقوم بالعمل المسلح، ومن يؤمن بالمقاومة الشعبية (كإلقاء الحجارة أو الميلتوف والزجاجات الحارقة) وغيره يؤمن بالمسيرات أو المؤازرة المالية، أو تأدية رسالة معينة إذا هكذا هو الحال بشكل عام، فالنضال ليس قصراً على شخص معين، وليس حصراً في أسلوب أو شكل دون غيره، بل هي بندقية ثأر ورتبة فنان ومنجل فلاح ومعول عامل ومبضع طبيب، إلى أخره من أساليب وأشكال مبتكرة ومعبرة عن رفض الشعب لهذا المحتل الغاصب.

أَما داخل الأسر فالأمر مختلف تماماً، وهذا ربما يسبب بعض الخلاف في المواقف نظراً للتباين في وجهات النظر وعدم القدرة على التوافق أو استيعاب

المستجدات في مراحلها الأولى وفق مقتضاها الصحيح، وخاصة أن هناك ممن اعتبر أنه انتقل إلى موقع آخر، ولكن عليه أن يبقى محافظا على الطريقة ذاتها والأسلوب في آلية التعامل مع السجان، وعدم الرضوخ إليه أو تفويت الفرصة والرد عليه الكيل باثنين، بغض النظر عن النتائج، فيما هناك من اعتبر أن هذه مرحلة وواقع له ظروفه الخاصة، وهو بحاجة لأدوات ووسائل وأساليب أكثر ملاءمة، والنتائج يجب أن يكون لها حسابات خاصة بها؛ لأنها تعود بالضرر على الجميع بعكس الحال خارج الأسوار، حيث هناك الفائدة عامة والضرر يكون في أغلب الأحيان خاصاً، فمن يقوم بعمل نضالي سيكون مصيره الشهادة أو الاعتقال هو بنفسه، وليس من ينوب عنه أو جميع البلد.

وبدون شك فإن حياة الأسر قد فرضت نفسها هي الأخرى وتركت اثاراً خاصة بها في نفوس الأسرى، ولا سيما وان عملية الاختلاط الاجتماعي بين شرائح مجتمعيه مختلفة بعادات وتقاليد وانماط التفكير وفوارق في التعليم والإدراك والسن والتجربة، كل ذلك في أجواء يسودها المكوث المستمر والجلوس مع ذات الشخوص لفترات طويلة وعلى مدار الساعة، دونما انفصال وتكرار لذات الحياة اليومية، وروتين السجن القاتل، فإن ذلك بلا ريب، يولد نمط حياة وتفكيراً يختلف عما كان سائداً لدى الفرد قبل الأسر، ويكون حجم التأثير منوطاً بحجم الإدراك والفهم والطموح والمزاج والتربية، التي نشأ عليها، وصقلت به شخصيته في سنوات العمر الحرجة، ولا تنسى دور المؤثرات الخارجية التي تعكس نفسها هي الأخرى على حياة الاسير وطريقة قياسه ومحاكاته للأمور، وهكذا يمكن أن نلمس التغير لدى الأسير حالما تكتب له الحرية، ويتفاعل مع مجتمعه الذي انفصل عنه بضعة أعوام، ليجد التغير في التفكير والممارسة وغيرهما.

ونتيجة لكل المؤثرات التي مر ذكرها نجد أن الأسير بدأ يرتب حياته على نمط مختلف عما كان سائداً من قبل، فقد كان التفكير آنذاك انتقال الأسير من واقع نضالي إلى أخر، بل انتقل ليكون في خطوط المواجهة الأولى، وينصب جل تفكيره في آلية الرقي بالواقع الذي يحل فيه، منكراً ذاته، مضحياً بنفسه، مغلباً مصلحة الجميع على مصالحة، جاعلاً من نفسه جسر عبور لأجيال لاحقة ودرعاً حصيناً لحماية إرث نضالي سابق، في ما ساد حديثاً، متهماً أخر مناقضاً بالشكل العملي، وان كان نظرياً يمثل شعاراً.

ويمكن تلمس ذلك من خلال النقاط الآتية:

- **أولا**: قسم من الأسرى بات يرى أن وجوده داخل الأسر يمثل قدراً محتوماً، وعليه التماشي معه والاستسلام لهذا القدر، مبتعداً عما يحيط به من أدوار كان من الواجب أن يقوم بها، وان يكون له دور معين، لكنه رضي بهذا الواقع ولهذه الحياة أن تأخذ طريقها بالسير والاستمرارية إلى أن ينظر الله في حاله، وهؤلاء دوماً هم في جانب الحيادية والتزام الصمت والرضا والقبول بما هو موجود.
- **ثانياً**: القسم الاخر اعتبر أن مرحلة الأسر هي محطة نضالية أخرى، ولا بد من ركوب موجاتها، لكن ليس بذلك الفهم النضالي الذي أشير إليه في النقطة الأولى، وحتى ان كان الشعار المرفوع اكبر من ذلك، ويتلخص في الحفاظ على ارث الشهداء الذين سبقونا، والطموح ببناء المدينة الفاضلة بقدر ما، إن وجه النظر ترى أن واقع الأسر هو فرصة شرعت لهم أبواب الأمل من جديد، ليشكل مجداً من خلال قدرته على نسج شبكة علاقات وتحالفات، وحلت فيها المزايدات محل التواضع أو التنافس غير الشريف مكان التفاني في العمل والأثرة، وإقصاء الآخرين بدلاً من العمل بروح الفريق، والاستئثار بالواقع بدلاً من إذابة الذات

وصهرها لأجل العموم، وبات بعض الذين لايجدون أنفسهم في كل المواقع بالبحث عن الذات خلال توليهم إدارة الامور، وبالتالي اختلفت الثقافة والتربية الوطنية والفهم التنظيمي، وغاب توقير الصغير للكبير وأصبح الالتزام بالقرار هشاً في حدود معينة، وساد منطق المخاتير، لا سيما بعد أن حلّت بيننا جماعات فرضوا على واقع النضال عنوة، مع العلم أنهم لا يمتّون للنضال بصله، وهذا فرض بتداعياته السلبية على الواقع واستدعى أن يحاول الكل تحصين نفسه باستقطاب اكبر قدر ممكن ليكون القدوه والقائد بغض النظر عن السبل التي سلكها وكأننا بتنا مع قاعدة: "الغاية تبرر الوسيلة" مع إننا مناضلون ومرابطون في خنادق المواجه الأولى.

- **ثالثاً**: القسم الأخير هو تلك المجموعة الحائرة في أمرها ولكنها تنقسم إلى قسمين:

أ. قسم يرى أن عليه البدء ببناء ذاته وصقلها وتثقيف نفسه إلى أن يحين وقت تحرره ويأخذ دوره خارج الأسوار، أو إذا يمهد إليه ببعض الأدوار داخل الأسر للقيام بها، وشعر أن بإمكانه أداءها وتنفيذها وقبول الآخرين بها دون معارضة أو استخفاف أو انتقاص.

ب. قسم تائه وراء رفاهيات العيش ووسائل التسلية والترفيه دون العمل على تطوير ذاته أو وضعها في مكانها الصحيح الحر والمستقل بالرأي، فيبقى متأرجحا بين الفئات المختلفة التي مّر ذكرها في النقاط السابقة.

وأمام حالة يشوبها التنافس، ويتسابق فيها الكل على السيطرة والقيادة وصناعة المجد الشخصي، وفي واقع تقطنه أعداد كبيرة من حديثي التجربة الاعتقالية لا سيما في السنوات الأولى للانتفاضة، حيث بات الكل يشعر أنه

القائد، وأنه صاحب الحق خاصة إذا ما توافر لديه قليل من الغرور وبساطة التفكير وكثير من الطموح، أمام عمليات نضالية مميزة، وأجيال ما زالت آنذاك ناشئة، ولديها كل الرغبة والطموح لأخذ دورها، وهذا ما حدا بها إلى الانجرار خلف مطامعها والركض وراء ما يمكنها الوصول إلى هذا المبتغى، وبالتالي تبدأ حالة التبهيت من أدوار الآخرين، والتقليل من شانهم، وبخاصة إذا لم يكن للآخرين دور تنفيذي فعلي، وبناءً على ذلك شرعت الأيدي الخفية والقادرة على التقاط الفرص في تغذية هذه الظاهرة، واصطياد ما يقع تحت مسامعهم من اتهامات كيدية بين أبناء المجموعة الواحدة والبلد الواحد، وقد نجحوا في زرع بعض مظاهر الخلاف بين بعض الأخوة أو تعكير الأجواء فيما بينهم في بادئ الأمر، وكل ذلك لإبعاد المنافسين من طريقهم ولذلك يمكن القول بأنه يمكن لإنسان ما أن يضلّل بعض الناس لبعض الوقت، لكنه لا يستطيع تضليل كل الناس طوال الوقت.

وأمام هذه الأحوال الضبابية والمليئة بالتناقضات لاتذيع سراً إن قلنا إننا وقعنا في هذا الشرك كما هو حال الجميع، وبات حالنا لا يسر صديقاً، ولا سيما أن مخابرات العدو كانت تستهدف ضرب وحدة الصف وخلق القلاقل والفتن بين أبناء البلد الواحد، وقد استطاعت اللعب على هذا الوتر الحساس خارج الأسر، وهذا ما تجلَّى بعد كشف شبكة العملاء وتعريتهم الذين كانوا يقفون خلف عمليات إنزال بيانات متناقضة ومشوهة للمناضلين في السجن من أبناء المجموعة، وبالذات بين أخوة شاب علاقاتهم آنذاك بعض التوتر والفتور، كل ذلك للتشكيك وبث الفتن وإذكاء الخلاف ولا ننكر إننا بذلنا جهداً مضنياً وحذرنا من مغبة الانجرار وراء ذلك، إلا أن قلة التجربة لدى البعض والعناية الشبابية

والطموح، والغرور جعلها ترى بعين العداوة كل الناصحين لها لا سيما أن توجيه أسهم الاستهداف كانت توجه صوب هؤلاء الناصحين دون غيرهم.

أخيرا أثمرت المساعي، ونجحنا في نهاية المطاف من كشف الأوراق ووقف حملة المناكفات الدائرة، وصنفت القلوب وهدأت النفوس، وذلك بفضل الزمن واكتساب التجربة وإدراك الجميع انه لا يستفيد من هذه الصراعات والخلافات إلا الأعداء الحقيقيون، وأدرك الجميع أن إمامه مهمات كبيرة ومشواراً طويلاً، ومسيرة الاعتقال ما زالت في بدايتها، والمطلوب هو التعالي والتسامح والصبر والتماس الأعذار والاستيعاب بان الوطن لم يحرر بعد، والبلد للجميع والجهد الفردي وحده لا يبني وطناً، وتفهم الأهل وبخاصة الذين كانوا ينجرون خلف عواطفهم وخلف أبنائهم في خلافاتهم، كنتيجة لوقوع بعضهم في شرك المخابرات والاعتراف على الآخرين في أثناء التحقيق، فبالنضج والصبر والمواصلة أوصلناهم لنتيجة أن الرابط بين أبنائهم كانت اقوي من أن يقفوا بوجهها سابقاً، فلماذا سيوقفونها في هذه المرحلة الهامشية والحساسة؟!

لقد أصبحت علاقتنا أكثر تماسكاً وتفاهماً وتعاوناً وتوحداً وشعوراً بالمسؤولية، خاصة بعد إزالة كل عوامل الخلل وتعريتها واستنكارها، وأضحى لا يفرق بعضنا أي شيء مع العلم أن هذا الشعور لم يتلاش حتى في أيام الشدة والتوتر والخلاف في وجهات النظر بين البعض، وذلك بسبب الجفاء وعدم الاحتكام للغة الفعل من ذي قبل بشكل كافٍ، لكن ذلك تعزز مع وضوح الصورة وتجلي الحقيقة ومعرفة الجميع بأن بوصلتهم قد انحرفت عن المسار لبعض الوقت، فاعادو توجيهها نحو الغاية والهدف، والتقوا معاً وتصارح القوم وتحمل الكل مسؤولياته عن ذلك الخلل الطارئ ومثلوا نموذجاً رائعاً ومميزاً في علاقاتهم

وبخاصة أن التسامح والصفح واستدراك القصد الذي ساروا وراءه، والعودة عنه، وهكذا عادت المياه لمجاريها وبقيت علاقاتهم أكثر صلابة ولا يشوبها شائب.

بقي أن نشير أخيراً إلى أن الخلاف في وجهات النظر يبقى ظاهرة صحيحة، ولا يخلو مجتمع من خلاف، ومجتمعنا الفلسطيني بأسره مثله مثل المجتمعات، ونحن كمجموعة أصدقاء بشكل خاص وكغيرنا من المناضلين، مستهدفين من قبل استخبارات العدو وأعوانه الذين ما انفكوا يحاولون الاصطياد في المياه العكرة، ولطالما حذرنا من مغبة الوقوع فريسة لهذه الاستهدافية، التي يقصد منها النيل من وحدتنا وتفكيك أواصر الترابط التي جمعتنا إلا أنهم نجحوا في إيقاع فتنة كنا خشيناها، لكن هذا هو قدرنا وسنبقى شوكة في حلقهم إلى أن يندحر الاحتلال عن أرضنا ووطننا وسنتصدى لكل جرائمه معاً ويداً بيد، وسنسعى جاهدين لإيقاف مخططاتهم، وردها إلى نحرهم ومعنا كل شرفاء مدينتنا الخيرين كجزء من الوطن الكبير.



الخلاصة

رحلة صداقة

من المهد إلى اللحد

للأسير / خليل محمود يوسف أبو عرام

الخلاصة:

قد لا يختلف اثنان على أن انتفاضة الأقصى قد جاءت نتيجة حتمية وواقعية أثر انغلاق الأفق الذي أعقب مفاوضات كامب ديفيد الأخيرة عام ٢٠٠٠ م، وما عكسه الصلف والتعنت والخداع والتسويف الإسرائيلي الأمر الذي جعل من الغضب الفلسطيني بسبب الضغوطات التي يعيشها الشعب جراء ممارسات الاحتلال اليومية وسلوكياته وإجراءاته ضد المواطنين، وعدم استجابة حكومته لمطالب العملية السياسة التي تتمسك بها السلطة الوطنية، مما أظهرها أمام شعبها بمظهر الضعيف والعاجز عن تلبية حاجاته ومتطلباته الضرورية وتلمسه للحرية، في حين أنها تحاول ضبط الشعب ولجمه عن الاحتكاك بالمحتل، الذي يضرب بعرض الحائط كل شيء وغير مقدر لحاجات الناس وضرورة تقديم شيء للسلطة للحفاظ على هيبتها وقدرتها، فاندلعت الانتفاضة وانفجر برميل البارود الذي ضغط أكثر مما يحتمل، وأصبحت الانتفاضة ناراً تحرق أقدام الصهاينة وحيدت السلطة جانباً، مذكرة أن الاحتلال ما زال يحتل الأرض، وعلى الشعب الذي ملّ الانتظار، التحرك لإزاله ورفع الظلم عن أبنائه.

بدون شك فإن الانتفاضة قد خيّبت ظن الاسرائيلي الذي لم يستطيع قراءة الواقع جيداً، واعتقد بأنه من الممكن الاستمرار في الضغط على الشعب ومواصلة تجاهل السلطة التي توقعت أن بالإمكان مسك العصا من وسطها وإبقاء زمام الأمور في يدها إلى مالا نهاية، دون نتائج مقنعة وملموسة للشعب، والحفاظ على ممارسة السلطة من ناحية ومنع الجماهير الخانقة من التعبير عن مكنونات نفسها والوقوف حائلاً إمامها لصدها من الوصول لخطوط التماس مع المحتل من ناحية أخرى.

لا ننكر أن الانتفاضة انطلقت شعبية في بدايتها وشارك فيها المواطن البسيط والعام، وكل الفئات والقطاعات الشعبية والتنظيمية بنسب متفاوتة، وفي كل الأماكن والمواقع من الوطن، إلا أن هذه الانتفاضة حملت بعض الاختلافات الجوهرية، في الشكل والأسلوب والوسيلة عن سابقتها من الانتفاضات وذلك يعود لتغير الظروف ذاتياً وموضوعياً، ووجود السلطة وخروج قوى المحتل من داخل المدن، وتوافر الأسلحة وكل ذلك كان عاملاً فارقاً ومتغيراً رهناً بسلوكيات الاحتلال ووحشيته وإفراطه في استخدام القوة المفرطة وجر الانتفاضة إلى دائرة العنف المسلح، حيث يمتلك الاحتلال موازين القوة العسكرية بأفضل أحوالها أمام الإمكانات العسكرية فلسطينياً .

ولا نبوح سرّاً إن قلنا أَن هناك تخبطاً قيادياً في تبني الانتفاضة أو اتخاذ موقف واضح حيالها هذا على المستوى الرسمي سواء للسلطة أو الحركة وبخاصة في مجال عسكرتها، ولذلك كان جلياً مواقف أبناء فتح الذي كان يسير وراء اجتهادات ميدانية دون التبني في إطار رسمي لتلك الخلايا، ودون تقديم الدعم اللوجستي لهم، فليس لديهم مرجعيات عسكرية سوى هم أنفسهم ولا سلطة لأحد عليهم مما دعاهم لتحديد أساليبهم ووسائلهم ومكان العمل وزمانه دون قراءة حقيقية للهدف ومتطلباته، وهذا ما أوقعهم في حالة المنافسة والتخبط للوصول إلى غايات وأهداف ذاتية.

وبما أن الحديث يدور عن كوكبة الأصدقاء فإن ذلك لا يغني عن القول إن هذه التجربة النضالية الخاصة في الشكل والمضمون ستمثل صورة مصغرة لواقع فتحاوي شامل مع وجود بعض التباينات على مستوى أفراد أو جماعات رهناً بالقرب أو البعد من دائرة التأثير الرسمية، ومن هذا المركز أو ذاك من أقطاب القيادة المركزية ومدى تعاطفها مع الشخوص

أو لوضعها تحت كتفها في حالات الحاجة والضرورة، وقد نجد كثيراً من خلايا العمل كانت تلقى بعض المؤازرة والدعم من هذا المسؤول أو ذلك، لكنها ليست بشكل رسمي وثابت وتبعاً لتبادل المصالح واحتواء هذه المجموعات، فيما نجد أن الخلايا التي لم تضع ذاتها في دائرة خاصة قد بقيت تعاني شحه الموارد واضمحلال قنوات التمويل، لكنها بقيت حرة في قرارها ومستقلة في رأيها.

ختاماً يجدر بنا الاشارة إلى أن مسيرة الأصدقاء النضالية، بالرغم مما اعترضها من صعوبات ومخاوف ومخاطر، فقد تخللها من النوادر والحكايات والقصص الهامشية والعابرة التي كانت تأتي في غالب الأحيان بعفوية، وعلى غير هدى، منها ما كان مضحكاً ومسليا وكذلك المبكي، لكنها من الواقع الشيء الكثير وتلقي بروح الدعاية والتحفيز وشحذ الهمم وإزاحة ارهاصات المسيرة، وجل هذه الأحداث تبقى مسجلة في الذاكرة لكي يتم استرجاعها كلما طاب للأصدقاء استعادة شريطها للاعتبار منها، أو التنفيس عن مكنونات النفس المكلومة بمنغصات الواقع وإجراءات المحتل، حالما يشاء لهم القدر ويدور بهم الزمن للاجتماع معاً ثانية بدءاً بتغطية غواصي سيل الحيلة أو الأصدقاء والمهدي المنتظر مروراً بقصة الحصادين والشمع منور، وكذلك الحذاء المتقلب والمطلوب الذكي ورجل المخابرات وصولاً لليلة البحث عن المغامرة وغيرها من القصص والنوادر والحكايات التي مروا بها وهي كثيرة ومتعددة.

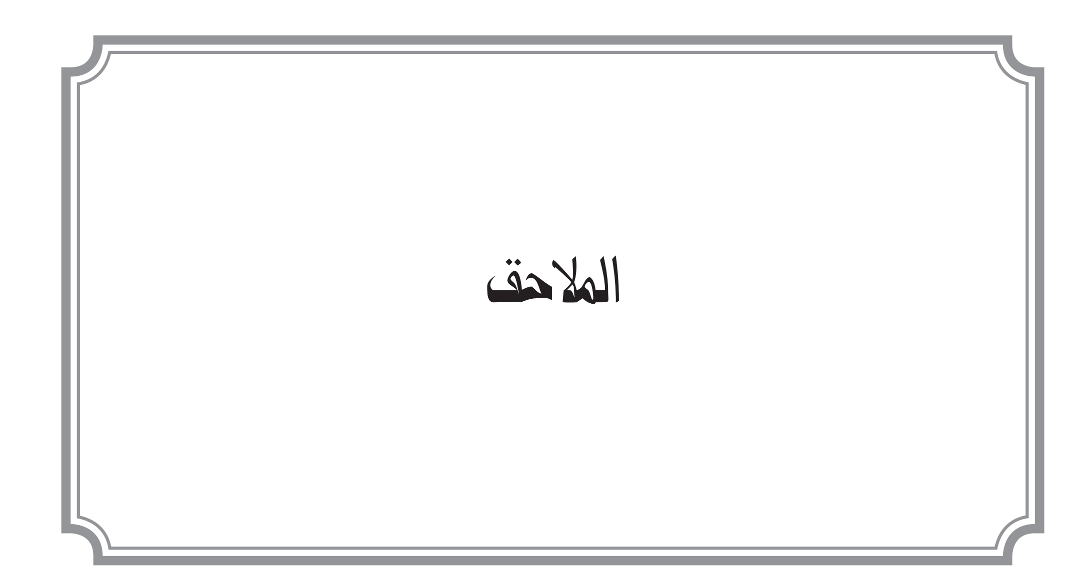
تم بحمد الله.

يتبع ملحق أسماء شهداء وأسرى ومحرري مدينة يطا خلال إنتفاضة الأقصى.

رحلة صداقة

من المهد إلى اللحد

للأسير / خليل محمود يوسف أبو عرام



الملاحق

رحلة صداقة

من المهد إلى اللحد

للأسير / خليل محمود يوسف أبو عرام

شهداء يطا

في الانتفاضة الثانية "إنتفاضة الأقصى"

الرقم	إسم الشهيد
١	الشهيد البطل/ **مراد فايز الهروش**
٢	الشهيد البطل/ **عيسى خليل الدبابسة**
٣	الشهيد البطل/ **نادر جميل الهدار**
٤	الشهيد البطل/ **جمال حماد قرعيش**
٥	الشهيد البطل/ **احمد محمود النجار**
٦	الشهيد البطل/ **محمد سلمان مر**
٧	الشهيد البطل/ **خالد جبرين مخامرة**
٨	الشهيد البطل/ **جاد الله احمد شريتح**
٩	الشهيد البطل/ **عمر راضي حوشية**
١٠	الشهيد البطل/ **محمود محمد رومي**
١٢	الشهيد البطل/ **محمد خالد محمود النجار**
١٣	الشهيد البطل/ **موسى عبد المجيد فنشة**
١٤	الشهيد البطل/ **محمود كايد بدير**
١٥	الشهيد البطل/ **زكريا جمال ابو عرام**

أسرى يطا داخل السجون الإسرائيلية
في الانتفاضة الثانية "إنتفاضة الأقصى"

الرقم	إسم الأسير	مدة الحكم
١	الأسير البطل/ خليل محمود يوسف ابو عرام	٧ مؤبدات
٢	الأسير البطل/طالب موسى شحادة مخامرة	٧ مؤبدات
٣	الأسير البطل/ محمود ابو خوصة	٧ مؤبدات
٤	الأسير البطل/ بكر خليل شحادي لنجار	٦ مؤبدات
٥	الأسير البطل/ فتحي محمد النجار	٣٠ عام
٦	الأسير البطل/ حسام محمد موسى العاروري	٣٠ عام
٧	الأسير البطل/ امجد خضر شحادة ابو سمرة	٣٠ عام
٨	الأسير البطل/ موسى عودة علي مخامرة	٣٠ عام
٩	الأسير البطل/ خليل يوسف الجبارين	٣٠ عام
١٠	الأسير البطل/ محمود محمد شحادة مخامرة	٢٢ عام
١١	الأسير البطل/ عيسى خليل محمد النواجعة	٢٢ عام
١٢	الأسير البطل/ نبيل حماد محمد البيراوي	٢١ عام
١٣	الأسير البطل/ علاء محمد عيد بحيص	٢١ عام
١٤	الأسير البطل/ محمود حسن محمد حوشيه	٢٠ عام

الرقم	إسم الأسير	مدة الحكم
١٥	الأسير البطل/ جميل خليل محمد عوض	١٧ عام
١٦	الأسير البطل/ جواد جميل خليل حوشيه	١٦ عام
١٧	الأسير البطل/ رامي سالم علي داود	١٥ عام
١٨	الأسير البطل/ صلاح محمد احمد ابو ربيع	١٥ عام
١٩	الأسير البطل/ اسامه شريتح	١٥ عام
٢٠	الأسير البطل/ احمد محمد احمد ابوعلي	١٢ عام
٢١	الأسير البطل/ محود حسين محمد الهدار	٩ أعوام
٢٢	الأسير البطل/ فضل محمد علي ابوعرام	٩ أعوام
٢٣	الأسير البطل/ محمد عمر راشد(عواد)	٩ أعوام
٢٤	الأسير البطل/ احمد بدر عبد الله ابوعلي	٨ أعوام
٢٥	الأسير البطل/ محمد خليل علي مر	٦ أعوام
٢٦	الأسير البطل/ يوسف ابراهيم النواجعة	٦ أعوام
٢٧	الأسير البطل/ محمد عيسى محمد عوض	أسرى صفقة شاليط
٢٨	الأسير البطل/ خالد موسى مخامرة	أسرى صفقة شاليط
٢٩	الأسير البطل/ ثائر الهريني	موقوف
٣٠	الأسير البطل/ عمر يوسف عامر الهريني	موقوف
٣١	الأسير البطل/ علي خالد مر	موقوف
٣٢	الأسير البطل/ محمد ماهر العدرة	موقوف

أسرى يطا المحررين من السجون الإسرائيلية

في الانتفاضة الثانية "إنتفاضة الأقصى"

الرقم	إسم الأسير المحرر	الرقم	إسم الأسير المحرر
١	محمد ابراهيم "ابو علي يطا"	١٩	صفوت جبريل جبر الجبور
٢	طالب النجار	٢٠	ذياب عوض ابو قبيطة
٣	محمود أبو زهرة	٢١	احمد موسى النجار
٤	محمد محمود ابو عرام	٢٢	محمد خالد الشواهين
٥	محمد اسماعيل ابو زهرة	٢٣	جمال بحيص
٦	محمد محمود النجار	٢٤	ايمن محمود ابو طه
٧	محمد ابو حسان	٢٥	عيسى محمد موسى عوض
٨	محمود احمد شحادة ابو زهرة	٢٦	خليل عيسى النجار
٩	محمود موسى شحادة مخامرة	٢٧	عزام خليل شحاده
١٠	محمود محمد ابوعرام	٢٨	شاهين عوض ابو قبيطة
١١	محمود جبر الهروش	٢٩	نبيل ذياب عوض ابو قبيطة
١٢	ملحم ابو شاكر	٣٠	احمد خليل الدبابسة
١٣	حسين محمد حسين الشواهين	٣١	ابراهيم خليل الدبابسة
١٤	خليل جميل خليل حوشية	٣٢	عبد الكريم الجندي
١٥	شادي عوض	٣٣	عايد عيد الجندي
١٦	خيرت مسعف	٣٤	سامي ابو عرار
١٧	سليمان الدبابسة	٣٥	فواز النواجعة
١٨	فضل اسماعيل جبريل العدره	٣٦	رائد النجار

الرقم	إسم الأسير المحرر	الرقم	إسم الأسير المحرر
٣٧	جبر عودة علي مخامرة	٥٩	علي ابو علي
٣٨	ركان حسن محمد ابوعرام	٦٠	ناجح النواجعة
٣٩	اياد حسن محمد ابوعرام	٦١	عواد الجندي
٤٠	انس حسن محمد ابوعرام	٦٢	نافز اعمر
٤١	عيسى احمد جبر الجبور	٦٣	حيدر خلايلة
٤٢	جهاد ابو زهرة	٦٤	زياد خلايلة
٤٣	سامي شناران	٦٥	ماهر رومي
٤٤	رافت ماهر خليل العدرة	٦٦	محمد خليل مر
٤٥	مسلم شريتح	٦٧	جهاد الهليس
٤٦	اسامه شريتح	٦٨	خالد عوض ابو قبيطه
٤٧	حمزة شريتح	٦٩	هيثم عواد
٤٨	خليل موسى ربعي	٧٠	بهاء بحيص
٤٩	محمود شريتح	٧١	برهان شريتح
٥٠	جهاد النجار	٧٢	ابراهيم عبد الهذالين
٥١	عمر النجار	٧٣	ابرهيم حريزات
٥٢	زيد ابوفنار	٧٤	اياد اعمر
٥٣	سميربحيص	٧٥	عاطف مر
٥٤	عاطف رباع	٧٦	سالم حريزات
٥٥	عيسى اسماعيل صالح	٧٧	محمد الهريني
٥٦	زكريا اسماعيل صالح	٧٨	فضل النجار
٥٧	يحيى اسماعيل صالح	٧٩	تيسير موسى ربعي
٥٨	نضال يونس النجار		



عمادة البحث العلمي والدراسات العليا
جامعة القدس المفتوحة

الماصيون- رام الله / فلسطين
ص. ب: ١٨٠٤
هاتف: ٢٩٨٤٤٩١ – ٢ – ٩٧٠+
٢٩٥٢٥٠٨ – ٢ – ٩٧٠+
فاكس: ٢٩٨٤٤٩٢ – ٢ – ٩٧٠+
بريد الكتروني: ***sprgs@qou.edu***